الدكتور عمر فرّوخ

تجديد في المسلمين، لا في الإسلام

دار الكتاب العربي


التجديد
في المسلمين
لا في الإسلام



تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة

عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة

عضو المجمع العلمي العربي في دمشق

عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي

عضو المجمع العلمي العراقي

الناشر

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

فهرس البحوث :

المقـدّمة

يتألّفُ هذا الكتابُ أيضاً[1] من بحوثٍ وموضوعاتٍ أُلْقِيَتْ في عددٍ من المؤتمرات والمناسبات أو نُشرتْ في المجلّات والصحف . ولقد سلَكْتُها في نظامٍ منطقيّ قَدْرَ الإمكان فجاء ترتيبها هنا مُتعانقاً كثيراً أو قليلاً .

هذه البحوثُ والموضوعات تتعلّق أصلاً بالإسلام على أنّه دين . ولكنّ الإسلام نظامٌ شاملٌ جامع لا يقتصر على الإيمان الذي هو صِلةٌ بين الإنسان وربّه ، وكذلك لا يقتصرُ على الشريعةِ التي هي الأحكامُ الضابطةُ لِصِلَةِ الإنسان بالإنسان .

في هذه البحوثِ والموضوعاتِ آراءٌ يُقْصَدُ بها هنا أن تكونَ من بابِ الاجتهاد الشخصيّ مأخوذةً من مصادرِ الإسلام ومعروضةً على العقل والمنطق . ومعَ أنّها كُلُّها راجعةٌ إلى أعمال السَّلَفِ ومعروفةُ المَظانّ عند الفقهاء ، فليس معنى هذا أنّها وحدَها صحيحةٌ وأنّه لا يجوزُ العمل بغيرِها . إنّها آراءٌ صحيحةٌ في نفسِها إلى جانبِ الآراء الصحيحة الواردة عند الفقهاء . ثمّ إنّها أيضاً خاضعةٌ للمناقشة .

ولمّا أعددتُ هذه البحوثَ للطبع كانت أكثرَ عدداً وكانت تتناول ما يتعلّق بالإسلام والمسلمين أو تتعلّقُ بالمسلمينَ وبغيرِ المسلمين . ولكنْ لمّا رأيتُ حجمَ الكتابِ سيزيدُ على الحجمِ المألوفِ آقتصرتُ على البحوثِ المتعلّقة

---

(١) راجع « عبقرية اللغة العربية » - بيروت (دار الكتاب العربي) ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م (٣٢٠ صفحة) .

بالإسلامِ وحدَه أو بالمسلمين وحدَهم وتركتُ البحوثَ التي تتّصل بالمسلمين وبغيرِ المسلمين معاً لتكونَ كتاباً مُستقلاً ، إن شاء الله .

في حياتِنا اليومَ جوانبُ مُشرقةٌ لا شكَّ في ذلك . ثمّ إنّ فيها أيضاً جوانبَ غائمةً أو مظلمةً . وبما أنّ المقصودَ أنْ نُعالِجَ أحوالَنا الحاضرةَ بشيءٍ من الإصلاح فقد درستُ عدداً من تلك الأحوال في ماضينا ثمّ قارنتها بأحوالٍ من حاضرنا . فقَبْلَ وصفِ الدواء تَجِبُ مَعرِفةُ الداء .

ولا يستطيعُ أحدٌ أن يُنْكِرَ أن المسلمين نازلون اليومَ - في مجموعِهم - عن المُستوى الحَضاريّ في جميع بلادِهم ، وخصوصاً في الجوانبِ المادّيّة : في الصِناعة وفي آلةِ الحرب وفي المحافلِ الدولية . غيرَ أن هذا لا يمنَعُ من أنْ يكونَ فيهم أفرادٌ ذَوُو براعةٍ فائقةٍ ومكانةٍ ساميةٍ في العِلم والفِكر ، وفي الحياةِ الاقتصاديّة أيضاً . ولكنّ هؤلاء أفرادٌ موزّعون في بلادِ الإسلام وفي المهاجرِ المختلفة . ولا ريبَ في أنّ العالَمَ الغَرْبيَّ - وهو عالَمٌ عدُوٌّ للإسلام وللمسلمين ، في المعسكرِ الشرقيّ وفي المعسكر الغَرْبيّ على السواء - يستفيدُ من عقول أبنائِنا ومن جُهودِهم أكثرَ مِمّا نستفيد نحن .

لقد حَرَصتُ على أنْ أُثْبِتَ في حاشيةِ الصفحةِ الأولى من كلّ بحثٍ أو موضوعٍ تاريخَ كتابتِهِ أو تاريخَ نشرِهِ معَ مكان نشرِهِ والمناسبة التي كُتب فيها أو لَها . ولكنْ قَد ذهَبَ عنّي التاريخُ والمناسباتُ لِعَدَدٍ من هذه البحوث . فأرجو المعذرة . إنّ التاريخَ والمناسبةَ يَضَعانِ البحثَ في إطارٍ مفيد ويجعَلانِ فَهْمَ البحثِ أكثرَ يُسْراً وسُهولةً .

هذا ، وأرجو أنْ أُقدِّمَ الطائفةَ الباقيةَ من البُحوث (والمتعلّقةَ بالإسلام من جانبٍ وبغير الإسلامِ من جانب آخَرَ) قريباً للطبع .

والله المُسْتَعانُ في كلِّ حالٍ .

رابع جُمادي الثانية ١٤٠١

٨ / ٤ / ١٩٨١ .   ع . ف .

تجديد في المسلمين
لا تجديد في الإسلام(*)

الجيّدُ من كلّ شيء هو القديم الذي يظلّ على الدهر جديداً .

أمّا التغيير فإنّه يتناول فروعَ الأحكام ولا يتناول أصولَها . حينما يؤلّف أحدُ الأساتذة كتاباً جديداً في الهندسة المستوية فإنّه يخُطّ لكتابه خُطّةً جديدةً لتقريب قضايا الهندسة المستوية من أذهانِ التلاميذ ، ولكنّه لا يغيّرُ الأشكالَ الهندسيةَ ولا يُبدِّلُ قواعدَ الهندسة .

ومعَ أن العلوم الاجتماعية أو العلومَ النَقْلية ـ بتعبيرِ ابنِ خَلْدونٍ ـ كالدين واللُّغة والتاريخ ليستْ ذاتَ قواعدَ جازمةٍ كعلوم التعاليم من مثلِ الجبر والكيمياء والفلك ، فإنّ العلومَ الاجتماعية تُشبهُ العلومَ الرياضيّة والعلومَ الطبيعية من حيث المنهجُ المخطوطُ .

وفي الدينِ خاصّةً ينظُرُ المُصلِحُ مرّةً إلى الدين نفسِه ومرّةً إلى الناسِ الذين يُؤدّون فُروضَ هذا الدين . وعملُ المُصلحِ الاجتماعيِّ في الدين أن يُقرِّبَ تعاليمَ الدين من أذهان الناس ، على طَبَقاتهم ، لا أن يجعَلَ من الدينِ نفسِه حقلَ اختبارٍ كأنه بذلك ينشُرُ على الناس في كلّ يوم ديناً جديداً .

ثمّ إنّ التجديدَ الذي يحاولُه المُصلح في بيئته الاجتماعيةِ إنّما يتناولُ جانبَ المُعاملات ، أو الصِلاتِ الاجتماعيةَ بين البشرِ وهي التي تتغيّرُ بتغيُّرِ الأزمان . أمّا العِباداتُ فإنّ الدينَ نفسَه قد جَعَل لها نِطاقاً من الرُّخَصِ (بضمّ

(*) هذا البحث الذي هو رأس البحوث قد ذهب عنّي الآن تاريخ كتابته وتاريخ نشره ، ومكان نشره أيضاً .

ففتح) يَلْجأ إليها المؤمنُ بحسْبِ الأحوال التي نصّ عليها الدين نفسُه . وأمّا العَقائدُ فإنّها الأسُس التي تجعل كلَّ دينٍ مُختلفاً من كلِّ دينٍ آخرَ من حيثُ أصولُه ومن حيثُ ٱنطباقُه على الحياة . والإسلام في هذا أيْسَرُ الأديانِ وأقربُها إلى العُقول وإلى الحياة .

* * *

بعد هذه المقدّمةِ الوجيزةِ التي تضَعُ لموضوعِ هذا المقال إطاراً أُحِبُّ أن آتيَ إلى الخطأ الذي يرتكبُهُ الكاتبون في التجدُّد في الإسلام ، ذلك الخطأ الذي جاءهم من نظرهم إلى الحركة الدينية والإصلاح البروتستانتي في مطلع العُصور الحديثة ، فأرادوا أن يُجرّبوا تطبيقَ تلك الحركةِ على الإسلامِ . والموضوعانِ مختلفانِ جدّاً من ناحيتين :

أُولى تَيْنك الناحيتين أنّ القرآنَ الكريمَ كتابٌ مُنْزَلٌ وصَلَ إلينا كما نَزَلَ على رسولِ الله ؛ ونحنُ نقرأه اليومَ كما كان رسولُ الله يقرأه على المسلمين الأوّلين . أمّا التوراةُ والأناجيل الموجودةُ بأيدي الناس فَهِيَ من عَملِ الناس . فالتوراة التي أُنْزِلَتْ على موسى عليه السلام مرفوعةٌ أو مَنْسِيّةٌ ، وأمّا التوراةُ الموجودةُ اليومَ بأيدي الناس فقد كُتِبَتْ في زمنٍ متأخّر جدّاً عن أيام موسى .

وكذلك الإنجيلُ الذي نَزَلَ على عيسى عليه السلام مرفوعٌ . وأمّا الأناجيل الأربعة الموجودة اليوم بأيدي الناس فقدِ ٱختارها رجال الكنيسةِ الكاثوليكية من بين أربعِمائةِ إنجيلٍ كَتَبها الناس في عُهودٍ مختلفة . هذه الأناجيل الأربعة تُسمّيها الكنيسة الأناجيلَ القانونية ، وكان أصحابُها قد كتبوها بين عامَيْ ٦٠ و١١٠ للميلاد ـ أي بعدَ أن رفع الله عيسى بمدّة تتراوح بين ثلاثين سنة وثمانين سنة (راجع مثلاً « لاروس ٣ ، الجزء الثاني ، الصفحة ١١٠) .

ثمّ إنّ هذه الأناجيلَ الكَنَسِيّة الأربعةَ تتضمّن سِيرةَ عيسى بحَسْبِ ما فَهِمَ كاتبوها تلك السيرةَ ، وليس فيها شيء من العقائد الموحَّدة (بالبناء لاسم المفعول) ولا من الأحكامِ المُقنَّنة . أمّا العقائدُ والأحكامُ في النصرانية فقد

وَضَعَها رِجالُ الكنيسة في أزمنة متأخّرة . من أجل ذلك لمّا جاء مارتن لوثر الألماني مثلاً ، في عام ١٥٢٠ للميلاد (٩٢٧ للهجرة) ، عَرَضَ للأصولِ النَّصْرانيةِ التي كانتِ الكنيسةُ الكاثوليكيّةُ قد وضعتْها للناس مُخالفةً للعقلِ وللحياة ، ولكنْ ضامنةً لمغانِمِ الكنيسةِ ورِجالِها ، كَبَيْعِ الغُفْرانات مثلاً (إعفاءِ من الذنوبِ وتطويبِ بِقاعٍ في السماء في مُقابِل مبالغَ يدفَعُها الذين يريدُونَ النجاةَ من الجحيم ودخولَ الجنّة) .

كنتُ أتفاوض مرّةً مع أستاذي المستشرق الألماني يوسفَ هل (١٨٧٥ - ١٩٥٠ م) ، وهو كاثوليكيّ ، وذلك في أيام دِراستي في ألمانية (١٩٣٥ - ١٩٣٧) في هذا الأمرِ ، فقال لي : لا شكَّ في أنّ لوثرَ كان ، وهو يضَعُ مذهبَه الإصلاحيَّ للنَّصرانية الكاثوليكية (المذهبِ البروتستانتي) ، يُطالِعُ في مُصْحَف (في نُسخةٍ من القرآن الكريم) بينَ يَدَيْهِ . لقد كان القرآنُ الكريمُ قد نُقِلَ إلى اللغة اللاتينية مُنذُ القرنِ الثاني عَشَرَ (قبلَ لوثرَ بنحو أربعةِ قرون) . ومن الأدلّة على ذلك عددٌ من وجوه الإصلاحِ التي اقترحها لوثرُ (وهي موجودةٌ في الإسلام ومُخالفة لما كان معمولاً به في النَّصرانية الكنسية) : الإنسان ينجو في الآخرةِ بعَمَلِهِ الصالح لا بحَلِّ الأسقفِ له من ذُنوبه - لا مكانَ للصُّوَرِ في الكنيسة والعِبادة - ليس للبابا عِصمةٌ في نفسِه ولا له سُلطة على النصارى ولا قُدرَةٌ على غُفرانِ الذنوب - لا إكليركيةَ (طبقاتٍ لرجالِ الدين) - لا رُهبانَ ؛ ورِجالُ الدينِ كُلُّهم يستطيعون أنْ يتزوّجوا - إنكار القُربان (قولِ الكنيسةِ الكاثوليكية بأنّ الخمرَ تَنْقَلِبُ بصلاةٍ من الكاهن فتصبحُ دمَ المسيح وينقلب الخُبزُ فيصبحُ لحمَ المسيح) - ليس للكاهن ثوبٌ خاصٌّ، ولا مكانَ خاصًّا لإقامة القدّاس (الصلاة) ، فكلّ إنسان يستطيعُ أن يُقِيم الصلاة ويقودَها (يَؤُمّ الناسَ فيها) .

وفي الإسلام مذاهبُ : المذهبُ المالكي والمذهبُ الحَنَفيّ والمذهبُ الشافعيّ والمذهب الحَنْبلي والمذهب الجَعْفريّ ؛ ثمّ كان هنالك مذاهبُ بادتْ (أي بَطَلَ العمَلُ بها ، كمذهبِ الأوزاعي والمذهب الظاهريّ) . وجميعُ هذه المذاهبِ في الإسلام أبوابُ آجتهادٍ وليستْ فِرَقاً تجعَلُ من الدين الواحدِ أدياناً

كثيرة . إنّ الكاثوليك في النصرانية لا يقبلون أن يُقالَ « المذهب الكاثوليكي » في مقابلِ المذهب الأرثوذكسي والمذهبِ البروتستانتي ، ولكنّهم يقولون : « الدينُ الكاثوليكيّ » .

* * *

من كلّ ما تقدّم نرى أن الخِلافَ بينَ الإسلام والنصرانية واسعُ جدّاً . وإذا كان القول بالتجديد في النصرانية مُمكناً فإنّ هذا القولَ غيرُ جائزٍ في الإسلام . إنّ المُصْلحين والمُجَدِّدين النصارى) ـ وكانوا كِثاراً منذُ مطلَعِ النصرانية ـ كانوا يُجدّدون في الدين النَّصرانيّ نفسِه . أمّا في الإسلام فكان الإصلاح أو التجديدُ يتناولُ ردَّ المُسلمينَ إلى حَقيقة الإسلام . كان المُصلحون النصارى يُريدون إنقاذَ الناسِ من قبضة الكنيسة ورجالِها ، أمّا المصلحون في الإسلام فكانوا يريدون أن يُفْهِموا الناسَ ـ كلّما انتكسَ الناسُ في جاهليةٍ ـ حَقيقة الإسلام .

إنّ اختلافَ الفقهاء في المذاهب التي وضعوها (من المذاهب المعمولِ بها والمذاهب البائدة) كانت أبوابَ آجتهادٍ لا يُوجِبُ العملُ بها تحريمَ حلالٍ أو تحليل حرامٍ ولا يوجب إيماناً أو كُفراً . إنّ القولَ بالإشهاد على عَقْدِ الزَّواج في المذاهبِ السُّنّيّة والقولَ بالإشهاد على الطَّلاق في المذهب الجَعْفريّ رأيانِ يمكن قَبولُهما لأنّ الغاية منهما « حِفْظُ حقوق الذرّية ، إذا وقع آختلافٌ بين الزَّوْجين » . ولا يكونُ المسلمُ مُذنباً إذا انتقل من أحدِ هذين الرأيين إلى الثاني منهما . ولكن يُخشى إذا ترك أحدٌ ذلك أنْ يُضيِّع حقّاً يَجِبُ (عندَ الآختلافِ بينَ الزَّوْجين) لأحد الزوجين أو للأولاد (وفي قانونِ الأحوالِ الشخصية للدُّروزِ في لُبنانِ نصٌّ على أن الإشهادَ يكونُ على عَقْدِ الزَّواجِ وعلى إيقاع الطلاق معاً) .

وجميعُ الخلافاتِ في المذاهبِ الإسلامية هي في المُعاملات وفي تفسيرِ أوْجهِ العبادة . وليس فيها شيءٌ يتعلّقُ بالله تعالى ولا برسولِ الله . أمّا في النصرانية فالخلاف يتعلّقُ بالله مباشرة كقول الكاثوليك مثلاً (تعالى الله عن قولِهم) : إنّ المسيح هو اللّهُ بالذات . أمّا غيرُهم (مثل الأرثوذكس

والبروتستانت ، فيما أظنّ) فيقولون إنَ المسيحِ ابنُ الله . وهذا خِلافٌ قديمٌ في النصرانية ذكره اللّهُ تعالى في القران الكريم :

- ﴿ لقد كَفرَ الذين قالوا : إنّ اللّهَ هُوَ المسيحُ بنُ مَرْيَمَ ﴾ (٥ : ١٧ ، المائدة ، راجع ٧٢) .

- ﴿ وقالتِ اليهودُ : عُزَيرٌ ٱبنُ اللّهِ ؛ وقالتِ النصاري : المسيحُ ٱبنُ الله . ذلك قولُهم بأفواههم يُضاهِئونَ به قولَ الذين كفروا من قَبْلُ ، قاتَلَهُمُ الله أنى يؤفكون ﴾ (٩ : ٣٠ ، التوبة) .

من أجل ذلك كلّهِ أصبحَ بإمكانِنا اليومَ أن نقولَ إنّ الإسلامَ نفسَه ليس بحاجةٍ إلى تجديدٍ ، ولكنّ المُحتاجَ إلى التجدُّدِ وإلى التجديدِ هم جانبٌ من المسلمين ، وجانبٌ كبيرٌ من فقهاءِ المسلمين .

إنّ العجزَ الذي ينوءُ به المسلمون اليوم في وَجْهِ خُصومهم آتٍ من ثلاثةِ جوانبَ هي من حيث مكانتُها في أسبابِ هذا العجز :

* الجهلُ (وفيه خمسةُ أَوْجُهٍ) .
* الضَّعْفُ السياسيّ (وفيه أربعةُ أوجهٍ) .
* الأحزاب (وفيها ثلاثةُ أوجهٍ) .

وسأمدّ القولَ في هذه الجوانبِ ووجوهِها كثيراً أو قليلاً مَعَ سرْدِ أمثلةٍ على عددٍ من أوجه هذه الجوانب .

أمّا فيما يتعلّق بالجهل فإنّي أُريدُ الاَستغناء عن هذه الكلمة لأنّها تُسِيءُ إلى نفرٍ كثيرين من الناس وسأجعَلُ مكانَها كلمة « العِلْم » ، فلعلّ الكُرْه ، عندَ بعضِ الناس ، « لقِلّة العلم » أقلّ من كرههم « للجهل » .

(١) العلم المفقود :

إذا نحن استعرضنا حالَ العالمَ الإسلاميّ اليومَ وجدنا أوّلَ أسبابِ تخلُّفِهِ « الأُميّة » أو جهلُ القراءة والكِتابة . وكيلا تكونَ المقارنة ضيّقةً تُثير ٱنتِقاداً ربّما

كان صحيحاً من بعضٍ وجوهه أُسْرِعُ إلى القولِ بأن الأميّةَ بينَ المسلمين أكثرُ ٱنتشاراً منها بين أهلِ أُسوجَ ونَرْوَجَ وسَوِيسرا (إذا كان في هذه البلادِ الثلاثةِ أميّةٌ مُنتشِرةٌ) .

وسيرُدّ عليّ هنا نفرٌ من المسلمين ردّاً أعْرِفُه . سيقول هؤلاءِ إنّ في المسلمين اليومَ أعلاماً من العارفين في الرياضيّات والطبيعيّات والتاريخ والاقتصاد أو من البارعين في الطِبّ والهندسة والفلك .

هذا صحيحٌ ولكنّ الأمَمَ لا تُعَدُّ عالمةً بنفرٍ قليلينَ أو كثيرينَ من العلماء من أفرادها . ولكنّ الأمم تُعَدُّ عالمةً إذا كان العلمُ سِمَةً شائعةً في مَجْموعِها . ليس الدليلَ على العلمِ والرُقيّ أن يكونَ للأمّةِ طائراتٌ تَحْمِلُ أسماءَها وأعلامَها ، ولكنْ أن يكونَ في الأمّة مَنْ يستطيعُ أن يُصلِحَ العطب الداخل على تلك الطائرات بنفسه وبأداة صنعها بنفسه . من أجل ذلك ليس في المسلمين اليوم حضارةُ طائراتٍ (مقدرةٌ على صنعها) بل مدنيةُ طائرات (إمكانٌ لٱستخدامها) .

(٢) العلم الناقص :

أشدّ ما في الجهل من الأذى ٱعتقادُ الإنسان أن العلم يتجزّأ . يجب على أبناءِ كلّ أمّةٍ أنْ يَعْرِفوا فضائلَ حضارة أُمّتِهم ووجوهَ حياتها . ولكنّ هذا الواجبَ لا يكون تامّاً إلاّ إذا عَرَفَ أبناءُ تلك الأمّةِ ما عند غيرِ أمّتهم من العلوم . إنّ المسلمين الأوّلين لمّا خرَجوا بالفَتْحِ وبالنور إلى العالم المعروف كلِّهِ يومذاك (آسِيةَ وإفرِيقيَةَ وأوروبةَ) كانتْ لهم علومهم في اللغة والفِقه والتاريخ والأدب نثراً ونظماً وحِكمةً . ولمّا ٱحتكّ المسلمون بغيرِهم من الأمم أخذوا منها الرياضيّاتِ والفلكَ والهندسة والطبيعيّاتِ والطِبَّ المِزاجي (العِلمي) والموسيقى أيضاً . ثمّ إنّ المسلمين قد طوّروا هذه العلومَ وزادوا فيها زياداتٍ جعلت عدداً من تلك العلومِ علوماً عربيةً خالصةً أو كالخالصة ، كما ٱتّفق في الجبرِ والكيمياء والفلكِ ثمّ في الطِبّ . ولم يَقُلِ المسلمون يومذاك إنّ أخْذَ

العلوم الصحيحةِ عن النصارى والمَجوس وعنِ اليهود والصابئة يضُرُّ بالإسلامِ أو بالمسلمين .

والتخلُّفُ الكبيرُ في جانب من المُسلمينَ اليومَ أن هؤلاء يأخُذون عن الغرب ما يضُرُّ ويترُكون من علومِ الغربِ (بالغين المعجمة) ما ينفَعُ : يأخُذون البحوثَ الجِنسية والخُرافية والجَدَلية (الإيديولوجية) .

(٣) العلم المنحرف :

وفي العِلم آتّجاهانِ : الاتّجاهُ المادّيّ أو الفنُّ العِلمي أو العلم الفنّي (ما يسمّى بالتعبير الفِرنجي : تكنولوجيا) . ومن واجبِ كلِّ أمّةٍ أن تأخذَ من هذا آخِرَ ما توصّل إليه عُلماءُ جميعِ الأمم . وأمّا الاتّجاه الثاني فهو التُراثُ الروحي الذي يجب أن يبقى نَقِيّاً صافياً لأنّ الأممَ تبقى ما دام تُراثُها هذا باقياً . وأعظمُ الأدِلّةِ على العلم المنحرف وأوجزُها جهلُ المسلمين بٱستخراج البترولِ من أرضِهم وجهلُ تصنيعه وبيعُ الطُنِّ المِتريّ منه بأربعةَ عَشَرَ دولاراً أو بستّة وثلاثين دولاراً ، بينما كلّ حَفْنة منه تُساوي ألفَ دولار (إذا صُنِعَ منها لُعَبٌ للأطفال) أو مليونَ دولار (إذا صُنِعَ من بعضها صمّاماتٌ للقلوب المرضى) . ولكنّ كثيرينَ من هؤلاء المسلمين (ومن سادَتِهم وكُبَرائهم) يَعْرِفون الآنغماسَ في المعاصي الأوروبيّة بدقائقها ويَعْرفون الأفلام الخاصّة . . . فقط .

(٤) العلم القاصر :

هذا أعظمُ ما في المسلمين اليومَ من البلاء . إنّه العلم القاصر في الفُقهاء الذين هم قادةُ الأمّة ومعلّمو دينِها وحافظو شريعتِها وباعثو نَهْضَتِها .

إنّ الفقهاءَ المسلمين اليومَ مقتصرون في العلم على جانبٍ واحدٍ ، على الفِقه يُديرون كلامَهم فيه على الألفاظ وعلى التخريج الشخصي (لا أقْصِدُ في كُتُبهم بل في معاملتهم مَعَ الناس) . وسنَجِدُ في هذا المقال (وإن طالَ الكلامُ) أمثلةً مُؤلمةً من ذلك . سنجدُ أنّ أعظَمَ الناسِ حاجةً إلى التجديد (أو

إلى التَعْتيقِ الصحيح) جَماعة الفقهاء الذين يتولَّوْنَ شرحَ الدينِ للناس ، وذلك إذا قِسْنا مُعظَمَ الفقهاء اليومَ (من الناحية العَمَلية لا من النواحي النَظَرية) بالفقهاءِ بالأمس من أمثالِ الأوزاعيِّ ومالكٍ وجعفرٍ وأبي حنيفةَ والشافعيِّ وأحمدَ بنِ حَنْبَلٍ وآبن القيِّم (آبنِ قيِّم الجَوْزية) وآبن تَيْميَّة والمِئاتِ من أمثال هؤلاء العظماء . لم يكن هؤلاء بارعين في الفِقه فقط . ولكنّنا إذا دَرَسْنا المذاهبَ التي وَضَعوها (والمذاهبُ في الإسلام أبوابُ اجتهادٍ) أدْركنا وشيكاً أنَّ هؤلاء الفقهاءَ كانوا يَصْدُرون في فِقْههم عن علمٍ بالتاريخ والاُجتماع والاُقتصاد والرياضيّاتِ والفَلَكِ أيضاً . أمّا إذا نحن أتينا إلى الإمام الغزّاليِّ وإلى آبنِ حَزْمٍ قبلَه وإلى آبْنِ رُشْدٍ بعدَه فإنّنا نرى أنّ آلتَهم من الفلسفة ومن العلوم الرياضيّة والطبيعية والعلوم الاُجتماعية كانتْ تامّةً أو شِبْهَ تامّة .

لنأخذْ عدداً من الأمثلة تتعلق بالأئمّة الأوّلين . وسأجعلُ هذه الأمثلةَ من الجوانبِ المشهورة في الفِقه والحياة .

ـ لمّا جعل الشافعيُّ البلوغَ (في الصِبيانِ والبناتِ) في سنٍّ باكرةٍ (في التاسعة) كان يصدُرُ عن علمٍ بطبائع البلاد وبآختلافِ أحوالِ المُناخ . ولا شكَّ في أنّه كان يَعْرِفُ أن الفتاةَ في جَنوبيِّ مِصْرَ وفي جنوبيِّ الحِجاز تُدْرِكُ مَدْرَكَ النساء قبلَ الفتاة في شَماليِّ الشام وشَماليِّ التركستان . وكذلك لمّا مدّ الإمامُ أحمدُ بنُ حَنْبلٍ « البلوغ » (بلوغَ الرشد) في الصِبيان إلى أن يُتِمّوا عِلْمَهم ، وفي البناتِ إلى أنْ يَتَزَوّجْنَ ، كان يصدُرُ عن معرفة بأحوالِ آلاُجتماع الإنساني وبالمسلك العَمَليِّ في الحياة . فما قيمةُ الحُكْمِ الشرعي ببلوغِ الرشدِ في فتى في الخامسةَ عَشْرَةَ من عُمُرِهِ الجَسديِّ إذا كان عُمُره العقليِّ أو عُمُرهُ التعليميِّ خمسَ سَنَواتٍ ؟ ـ أيّ الطِفلين أحقُّ أنْ يكونَ راشداً : أطفلٌ ذكيٌّ متعلّمٌ في الحاديةَ عَشْرَةَ أمْ طِفل مُتَخلِّفٌ أُمِّيٌّ في الثامنةَ عَشْرَةَ ؟

لم يكنْ هنا بينَ الشافعيِّ وأحمدَ تناقضٌ ولا خلافٌ . ولكنّ كلَّ واحدٍ منهما قد تناوَل موضوعَ « الرُّشْد » من جانبٍ (في مكان واحدٍ من مذهبه) ولعلّه مَسّ سائرَ الجوانبِ من ذلك (في أماكنَ أُخرى) .

قلتُ إنّ المذاهبَ أبوابُ اجتهاد . فإذا كنتُ قاضياً ثمّ تقدم أناسٌ إليّ بدعوى « في بُلوغِ الرُّشد » لم أتقيّدْ بلفظِ الشافعيّ أو بلفظِ أحمدَ ، بل عَمَدت إلى تطبيقِ أحدِ قَوْلَيْهما أو جمعتُ بين قَوْلَيْهما فيما يتعلّق بالقضيّة المعروضة عليّ . إنّ فقهاءَنا الكِبارَ قد وضعوا في أيدينا معاييرَ أو مقاييسَ لقياسِ الأحوال بها ولم يَفْرِضوا علينا أحكاماً « غائبة » .

وكذلك لمّا وضع الفقهاءُ قواعدَ التوريث (تقسيم الإرث) ثمّ تكلّموا على العَوْل (بفتح العين : زيادةِ أنصِبَةِ الوارثين على مقدارِ التَرِكة)[١] وعلى الردّ (وهو ضدّ العَوْل ، وذلك أن تنقص الأنْصِبة عنِ المفروض للوارثين)[٢] ، دَلّ ذلك على معرفتهم بالحساب . أمّا إذا نحن جِئْنا إلى مالكِ بنِ أنسٍ وإلى « عدّه » عَمَلَ أهلِ المدينة في « الأدلّة الشرعية » التي تُستَمَدّ منها الأحكامُ أدْركنا أنّه كان ذا بَصَرٍ نافذٍ في علم الاجتماع . ثمّ لا ريب في أنّ الإمامَ أبا حنيفةَ ، لمّا تكلّم على بَيْعِ السَلَمِ[٣] وعلى عاداتِ أهل البلاد ، كان عارفاً بقواعدِ العُمران وبقواعد الاقتصاد أيضاً . إنّ الفِقه جانب من جوانب التشريع ، وهو أهمّ الجوانب فيه بلا شكّ . ولكنّ علم الاجتماع وعلم الاقتصاد والتاريخ والجغرافية (كما سنرى) والسياسة (أقصِد علم السياسة) والرياضيّاتِ

---

(١) في التركة (بفتح فكسر) أنصبة ثابتة وأنصبة نسبية . من أجل ذلك يزيد أحياناً مجموع الأنصبة على مجموع الكسر في الواحد (أو ينقص أحياناً عن ذلك) . راجع ما يلي .

(٢) لنفر من الوارثين أنصبة ثابتة مفروضة (وهم يسمّون ـ بفتح الميم المشدّدة ـ أصحاب الفروض) : الأب والأم (أو من يحلّ محلّهما) والزوج أو الزوجة .

(٣) بيع السلم (بفتح ففتح) : بيع النتاج النباتي قبل ظهوره (ويسمّى اليوم : الضمان) . شكا أهل التركستان في أحد الأعوام للخليفة العبّاسيّ أبي جعفر المنصور محل (بفتح فسكون) موسم الزيتون وحاجتهم إلى مال يعيشون به . فأفتى أبو حنيفة بأن يبيع أهل التركستان موسم العام التالي بيع سلم . وحسب أهل التركستان ثمن الموسم التالي (بإشارة من أبي حنيفة) على أساس السنوات الثلاث أو الأربع السابقة (معدّل ثمن المواسم السابقة) . ومع أنّ هذا العمل ليس جائزاً في الإسلام (بالاستناد إلى القاعدة : بيع المعدوم باطل) ، إلّا أن مخالفة القاعدة الفقهية في سبيل إنقاذ أرواح الناس جائز ، لقوله تعالى : ﴿ فمنِ اضطرّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه ﴾ (٢ : ١٧٣ ، سورة البقرة ـ راجع ٦ : ١٤٥ ، سورة الأنعام و١٦ : ١١٥ ، سورة النحل) .

والطبيعيّات وغيرّها « أدواتٌ مساعدةٌ » في التشريع وفي غير التشريع أيضاً . إنّ الفقيه المسلمَ اليومَ بحاجة إلى فنون كثيرة من فنون المعرفة حتّى يكونَ فقيهاً نافعاً .

ولا أريد أن أتكلّم على الفِقه عند الغزّالي وابن حزمٍ وابن رُشْدٍ وعلى صِلة فِقههم بالعلم (أي بالعلم الرياضي والطبيعي) لأنّ ذلك يدعو إلى آستطرادٍ (تشعّبٍ في الموضوع) لا تدعو الحاجة إليه هنا .

- من المشاكل المؤلمة إثبات هلال رَمَضان .

في كلّ عامٍ تحدُثُ مفاجئاتٌ في إثبات هلالِ رَمَضان :

* إعلانُ رُؤْيةِ الهِلال قبلَ أنْ يُرى في قطرٍ ما من أقطارِ البلاد الإسلامية .

* تأخيرُ إعلان ذلك .

* آلِاختلاف في بدء الصوم في بلدٍ إسلامي دونَ بلدٍ إسلامي وفي البلد المسلم الواحد .

كلّ ذلك يَرْجِعُ إلى خطأٍ في فَهْمِ الشرع ثمّ إلى المنافسة في النفوذ السياسيّ . ننتظر الإذاعات في ذلك فتتأخّرُ (أحياناً إلى ما بعدَ مُنتصفِ الليل) ونَنْهَض في الصباح فإذا أهلُ بيتٍ صائمون وجيرانُهم إلى جَنْبهم غيرُ صائمين ، إذِ آتَفَقَ أنّ الأوّلين سَهِروا فَسَمِعوا الإذاعة عن بدء شهرِ الصوم بينما آوَى الآخرون إلى فِراشهم باكراً فلم يسمعوا الخبر .

لماذا يتأخّرُ إعلانُ وِلادةِ الهِلال ؟ إذا ولد الهلال بعدَ غيابِ الشمس فإنّ رؤ يتَه تُمْكِنُ في الدقائقِ القليلة بعدَ الغروب . فلماذا التأخّرُ إلى نصفِ الليل أو إلى ما قبلَه بقليلٍ أو إلى ما بعدَه بقليلٍ ؟ (مَعَ أن الخبرَ يُمْكِنُ أنْ يدورَ اليوم في العالم كلّه في بِضْعِ دقائقَ) .

وجواب ذلك سهل : هنالك عددٌ من الدول تريدُ أن يكونَ فضلُ الإعلان لها . ورُبّما أعلنتْ دولةٌ أنّ الهلالَ قد « ثَبَتَتْ رُؤ يتُه عندها بالوجه الشرعي »

ثمّ ، بعدَ بِضْعِ دقائقَ ، أعلنت دولةٌ ثانية أن رُؤ يةَ الهِلال لم تثبُتْ لَدَيْها شرعاً . ولكنّ الدولةَ التي لم تَثْبُتْ عندَها رؤ يةُ الهلالِ قد تريّثتْ في إعلانِ نَفْيها ساعاتٍ طوالاً لا حاجة إليها .

ونقول لهم « آعملوا بالحِساب » . فيقولون : لا يجوزُ العملُ بالحِساب لأنّ رسولَ الله ﷺ قال : « صوموا لرُؤ يته وأفطِروا لرؤ يته . . . » غيرَ أن رسولَ الله قد قال شيئاً آخر أيضاً . إنّه قال : « نحنُ أُمّةٌ أمّيّة لا نكتُبُ ولا نَحْسُبُ (بضم السين) ، صوموا لرؤ يته وأفطروا لرؤ يته . . . » ثمّ يستشهدون أيضاً بآيات من القرآن الكريم آستشهاداً خاطئاً لا أُحِبُّ أن أتوسّعَ فيه هنا ولا أنْ أتطرّق إليه لأنّ القوم سيجادلون في ذلك جدالاً لفظيّاً لا فائدةَ منه . ولكنّي سأتناول نقطتين علميّتين :

* هم يقولون : إنّ العَمَلَ بالحِساب (في الصوم) لا يجوزُ ، مَعَ أنّهم لا يعملون إلاّ بالحساب في الصَلَوات الخَمْس (مع أن الصلاةَ مقدّمةٌ في أركانِ الإسلامِ على الصيام) .

* ونسألُهم كيف ثبَتَتْ عندكم رؤ يةُ الهلال بالوجه الشرعي ؟

فيقولون جاء فلانٌ وَشَهِدَ لدينا وأقسمَ يميناً على أنّه شاهدَ الهلال . ونعود لنسألهم : وكيف عَلِمتم أن دعواه في رؤ ية الهِلال صادقةٌ ؟ فيجيبون : قُلنا إنّه أقسمَ يميناً .

ولقدِ اتّفقَ لي أنْ فاوضت نفراً من رجال الفِقه الرسميّين وغيرِ الرسميّين وكتبتُ إلى نفرٍ منهم. ولقد أجابَ نفرٌ من هؤلاء على رسائلي ، ولكنْ لم تخرُجْ أجوبتُهم عمّا ذكرتُه آنفاً . ولمّا طلبتُ منهم التشدُّدَ في تصديق المخبر عن رؤ يته للهلال ولم أصدق يمينه (لأنّه آدّعى أنه رأى الهلال ولم يكن هنالك في سماء البلاد الإسلامية هلال) ، قال لي أحدُهم : وكيفَ تريدُ منّا أنْ نستوثقَ من هذا الرجل بغيرِ اليمين ؟ فقلت كنتُ أسألُه :

** أينَ كنتَ لمّا رأيتَ الهلالَ ؟

** هل كان الهلالُ ظاهراً إلى يمينِك أم إلى شِمالك ؟

** كم دام بقاءُ الهِلال بعدَ غِياب الشمس ؟

** كم كان ٱرتفاعُه فوقَ الأُفُقِ لمّا لمحتَه أوّلَ مرّة ؟

** إلى أي جهة كان ٱتّجاه طَرَفيه ؟

ومن الغريبِ الذي لا يغتفرُ أنّ الخبرَ إذا جاء من سورية نُسِبَتْ رُؤيته إلى رجلٍ من حماةَ (وقد قيل لي أنّ هذا الرجل الذي كان في كلّ عامٍ يرى الهلالَ في حماةَ قد تُوُفِّيَ منذ مدّة) . أمّا إذا جاء الخبر من المملكة السعودية فيقال في الأكثر إنَّ الهلال رُؤي في بُريدة . وكلّ الناس يَعْرفون أن حَمَاةَ في مُنْخَفَضٍ من الأرض لا تصلُحِ منها رؤيةُ الهِلال ، وأنّ إلى غرب بُريدة تِلالاً جبليّة تعلو خَمْسُمائَة متر . ولقد كان الأولى أن يُرى الهلال في سوريةَ في اللاذقية أو طرطوسَ (على ساحل البحر) وأن يرى في المملكة السعودية من جدّة أو رابغ .

وبعدَ هذا كُلِّهِ ، فإذا كان الهلال الجديد لم يُرَ في الغرب (في بيروتَ أو القاهرةِ أو تُونِس أو الرِباط) ، فكيف يُمْكِنُ (في الحُسْبان الفلكيّ) أن يُرى في المشرق ؟

ومحاولة رؤية الهلال في المساء خطأٌ كبيرٌ لأسبابٍ فلكيّة (غَرَقُ الهلالِ في شَفَقِ المغيب) ومَحَلِّية (تكاثرُ الضَّباب أوِ الغيمِ في سماءِ البلد أحياناً) . أمّا المنهجُ الصحيح فهو أن يخرُجَ المُفتي نفسُه أو من ينتدبه المفتي من العلماء بالفلك والحساب ليلتمسَ الهلال في « الصباح » (الرؤية في الصباح تكون أوضح لأنّ السماء عادةً تكون أصفى آفاقاً) . فإذا رُؤِيَ الهلالُ يطلُعُ قبل الشمس ، فمعنى ذلك أنه سيغيبُ قبل الشمس (ولا فائدةَ من ٱلتماسه في مساءِ ذلك اليوم) . وأمّا إذا لم يطلُعِ الهلالِ قبلَ الشمس فيكونُ حينئذٍ من الممكنِ أن يُرى قبلِ مغرب الشمس من ذلك اليوم .

هذا حكم الفِقه (والفِقه هو العِلم بحقائق الأمور) في رؤ ية الهلال .

إنّ الأمر هنا واضح . إنّ الحاجة ليستْ إلى تجديدٍ في الإسلام (فالإسلام قديمُه لا يزالُ ولنْ يزالَ جديداً ، لأنّ أحكامه صحيحةٌ نَقْلاً وعقلاً) . أمّا التجديدُ فيجب أن يكونَ في نفرٍ من الناس يتولَّوْنَ شؤون الإسلام والمسلمين .

وبما أنّ هذا المقالَ قد طال فإنّني سأشيرُ إلى العاملين الباقِيَيْنِ إشارَتَيْنِ عارِضتينِ .

أمّا الضَّعْفُ السياسيُّ فحُجَّةٌ قائمةٌ على الضعيف . إنّ العالم الإسلاميَّ اليومَ ضعيفٌ سياسيّاً (يحكُمُ في كثيرٍ من البلادِ ذاتِ الكَثْرةِ الإسلامية (الحَبَشةِ ، السنغالِ ، لُبنانَ ، الخ الخ) حاكم غير مسلم . وهو ضعيف مادّيّاً إذ لا يَمْلِكُ أن يبيعَ نفطه إلاّ بالسعر الذي يَفْرِضُه المشتري (وهذا أغرب ما يمرّ في تاريخِ التجارة . فإنّ الذي يَبيعُ سِلْعة يَمْلِكُها بعشرةِ دراهمٍ وهي تُساوي أحَدَ عَشَرَ دِرهماً يُعَدّ مغبوناً ـ بالغين بعد العين وقبل الفاء ـ فكيف إذا كانتْ تُساوي عَشْرَةَ آلافِ درهمٍ ؟) . وكذلك يغشى عالَمَنا الإسلاميَّ اليومَ ضَعْفٌ روحيٌّ (من ضِيقٍ في الأفق كالأخذِ بأشكالِ العبادات والعاداتِ مَعَ غَفْلةٍ عن كلِّ ما يَسْتُرُه المستقبلُ عنّا) . ثمّ إنّ عالَمنا ضعيفٌ آقتصادياً (لِغَرَقِهِ في التَرَفِ الذي هو مَضْيَعةٌ للمالِ وتبديدٌ للجُهود وعبء على الفرد وعلى المجموع) .

وأمّا الأحزابُ فكلُّها خارجةٌ عنِ الإسلام .

إنّ الأحزابَ نشأتْ في البلاد النَّصرانية لأنّ الإنجيلَ الذي بأيدي الناس ليس فيه تنظيمٌ سياسيٌّ أوِ آجتماعيّ ، فآضْطُرَّ نفرٌ من قادةِ كلِّ بلدٍ إلى أنْ يُنشئوا أحزاباً تَضَعُ لبلادِهم تنظيماً سياسيّاً . ولكنّ الإسلامَ جاء بكلِّ تنظيمٍ . فما حاجةُ المسلمين ، إذَنْ ، إلى أحزابٍ ؟ جاء الإسلامُ بالطَّلاق مثلاً . فمضى الجَهلةُ من النصارى يشتُمون الإسلامَ ألفاً وأربَعمِائةٍ وعَشْرَةَ أعْوامٍ لأنّ الإسلامَ أجاز الطلاقَ (وهو لم يُبحْه) . وبعدَ هذهِ الأعوامِ الكثيرةِ أُبيحَ الطلاقُ في البلاد

النَّصرانيَة ، وفي رُومِيَة نفسِها) . وكان الإسلامُ قد أجازَ الطلاقَ إذا كان للطلاقِ عندَ كلِّ زوجينِ من المسلمين ما يسوِّغه . ولكنّ النصارى أباحوا بعدَئِذٍ الطلاقَ من غيرِ نظرٍ إلاّ إلى شهوة الطلاق في سبيلِ زَواجٍ جديد . ولقد كان رسولُ الله ﷺ قد قالَ : « لَعَنَ اللّهُ الذوّاقين والذوّاقات . قيل : ومَنِ الذواقون والذوّاقات ، يا رسولَ الله ؟ قال : الذين يتزوّجون رَغبةً في لذّة النكاح » (أو كما قال) . ولا غِنًى هنا عنِ الاُستِشهاد بالحديث الشريف « أبغضُ الحَلالِ إلى الله الطلاقُ » .

فأيُّ فائدةٍ من التجديد ، إذا كان المسلمُ يتبدّلُ بالنظامِ العاقلِ فوضىً جامحةً ؟

مِنْ دَعْوى التجدّد ، في بلدٍ مُسلمٍ كُلُّهُ ، أن الحزبَ الحاكمَ فيه أصدَر قانوناً يُحَرِّمُ تعدُّدَ الزوجات . ولكنّ تعدّدَ الخليلات (بالخاء المُعجمة) غيرُ ممنوعٍ . وقانونُ ذلك البلدِ يُعاقِبُ الذي يجعَلُ في عِصمته آمرأتينِ ، ولكن لا يتعرّضُ للذي يتّخذُ في كلِّ يومينِ خَليلتينِ .

وأشدُّ من الأحزابِ السياسيّة بُعْداً عنِ الإسلام الأحزابُ القومية (لأنّها تُشَتِّتُ القوّةَ في الأمّةِ وتدعو دعوةً قال فيها رسولُ الله : « ليس منّا من دعا إلى عَصَبية ») . والأحزاب العَقَدية أشدُّ بُعْداً عن الإسلام من الأحزابِ السياسيةِ والأحزابِ القومية .

إنّ الأحزاب العَقَدية تتّخذُ وَلاءً مُعيّناً . والمسلمُ لا يجوزُ له أن يتولّى (أو يجعَلَ له وَلِيّاً) غيرَ الله (وغيرَ الصالحين من إخوانه المؤمنين) . وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ تذكُرُ ذلك سأستشهدُ هنا منها بآيتينِ فقط :

﴿ يا أيُّها الذين آمنوا ، لا تَتّخذوا اليهودَ والنَّصارى أوْلياءَ ؛ بعضُهم أوْلياءُ بعضٍ . ومَنْ يَتَوَلَّهُم منكم فإنّه منهم . إنّ اللّهَ لا يَهْدي القومَ الظالمين ﴾ (٥ : ٥١ ، المائدة) .

﴿ لا يَنْهاكُمُ اللّهُ عنِ الذين لم يُقاتلوكم في الدِّينِ ولم يُخْرِجوكم من

دِيارِكم أنْ تَبرّوهُمْ وتُقْسِطوا إليْهم . إنّ الله يُحِبُّ المُقسطين . إنّما يَنْهاكُمُ اللّهُ عن الذينَ قاتلوكم في الدِّين وأخْرجوكم من دِيارِكم وظاهروا على إخراجِكُم أنْ تَوَلَّوْهم . ومَنْ يَتولَّهُمْ فأولئك هُمُ الظالمون ﴾ (٦٠ : ٨ ـ ٩ ، الممتحنة) .

* * *

جاء إليّ يوماً شابٌّ مُنْتَمٍ إلى حِزبٍ (ولا يزالُ فيه بقيّةٌ من إيمان) وسألني : أيجوزُ أنْ نقولَ : نفتتحُ الجَلسةَ باسمِ اللّهِ وباسم . . . . (وسمّى الحزبَ الذي يَنْتَمي إليه) ؟ فقلت له : لا ، يا بُنيّ . إنّ هذا هو الشِرْكُ المُبين . فعاد يسألُني : أفلا يجوزُ أيضاً أن نقولَ : نفتتحُ الجلسةَ باسم الله وآسمِ الوطن ؟ فقلت له : إذا كان لا يجوزُ أن نُشْرِكَ مَعَ الله بَشَراً فكيفَ يجوزُ أن نُشْرِكَ مَعَه حَجَراً ؟

إنّ للأحزاب العَقَديّةِ عقائدَ يتولَّوْنَها لا تَتّفقُ مَعَ الإسلام بحالٍ ، ولا حاجةَ بنا إليها . إنّ الحاجةَ إلى الإصلاح . فإذا لم نستطعِ الإصلاحَ من طريقٍ فأيَّة حاجةٍ بنا إلى سلُوكه ؟ ما حاجةُ المُسلمِ مثلاً إلى أن يَترُكَ الطوافَ حولَ الكَعبةِ لآعتقاده أنّ ذلك يُبْعِدُه عن رِفاقه في حِزْبه ثمّ إذا ذَهَبَ إلى موسكو طاف حَوْلَ قبرِ لِينينَ ؟

ومعَ ذلك كلّهِ فأنا لا أزالُ أضعُ قِسطاً كبيراً من اللَّوْمِ على رِجالِ الفِقه الذين لم يستطيعوا أن يَحْفَظوا للإسلام نَقاءه أمامَ عيون الشّبان الناشئين .

غيرَ أن هذا الموضوعَ كثيرُ الاتّساعِ ، فأرجو أن تكونَ اللّمَحاتِ الماضيةِ قد ساعدتْ على الكَشْف عن عددٍ من أطرافهِ .

مشاكل لم يَحُلَّها العلم :
الإنسان والدين

تاريخ الحضارة قديم جدّاً ؛ فنحن إذا ما رَجعنا أدراجَنا في التاريخ خمسةَ عَشَرَ ألفَ عامٍ أو أكثرَ أبصرْنا أن هذا الإنسانَ الذي نَرِثُهُ نحنُ اليومَ جِسماً وعقلاً وفَنّاً كان يتمتّع بأوجهٍ كثيرة من الحضارة التي لا نزالُ نحنُ إلى اليومِ نَقِفُ أمامَها مشدوهين . من ذلك مثلاً الرسومُ التي خلّفها الإنسانُ القديمُ على جُدرانِ الكهوف وما فيها من رَوْعة التعبير ومن البراعة في مزج الألوان . ثم هنالك الأنصابُ الهائلةُ التي أقامَها الإنسانُ القديمُ في إنكلترة وفرنسةَ والتي يعلو بعضُها عشراتِ الأقدامِ ويَزِنُ مئاتِ الأطنان وهو قائمٌ على حرفٍ مُنتصباً في الهواء . ومن ذلك أيضاً العملياتُ التي أجرَاها الإنسانُ القديم في جِراحة الجُمجمة ثم نَجحت ، فإذا بنا نكتشفُ اليومَ جماجمَ من ذلك العهد السحيق وقد ظهرتْ فيها آثارُ سِكين الجرّاح القديم ثم آثارُ الالتئامِ في تلك الجماجمِ مِمّا يدُلُّ على أن أصحابَها قد بَرِئوا مِنْ جِراحاتهم الكبيرة وعاشوا بعدَ ذلك مدةً طويلة . ولا ريبَ في أن عدداً من تلك العمليات الجراحية لم ينجحْ في ذلك الحين ، كما يتّفق اليومَ أيضاً .

ومن أوجه الحضارة القديمة الدينُ .

نحن نُسمّي الدينَ الذي عَرَفه الإنسانُ القديمُ وثنيّةً لأنّ الإنسانَ القديمَ كان يُمَثِّلُ المدارك الروحية في عالَمه بأوْثانٍ ، أي بأشكالٍ مادّيةٍ كانتْ مألوفة في عَهْده . ولم يكن للدينِ عند الإنسانِ القديم إلا المدركُ الذي يمثّل الخوفَ من الطبيعة : كان الإنسانُ القديمُ يعتقد أن الطبيعةَ تعترضُ سبيلَه مزحاً وجِدّاً في كلّ شيءٍ . كان يعتقد أنّ الطبيعة هي التي تَهَبُه الحياةَ وتَهَبُه المال ثم تأخُذهما منه

متى شاءتْ . حتّى أن الإنسان القديمَ كان إذا عَثَرَ بحجرٍ اعتقد أن الطبيعةَ هي التي ألقتْ هذا الحَجر في طريقِهِ ليَعْثُرَ به كي تلهُوَ هي بالنظر إليه وهو يقَعُ أرضاً أو ينهَضُ من وقعته على شكلٍ غيرِ مألوفٍ في حياةِ الإنسان العاديّة .

وَمع رُقِيِّ الحضارة واتّساع نِطاق العقل واكْتِناه أسْرار الطبيعة تطوّر المدركُ الدينيُّ في حياةِ الإنسان القديم ثم أخَذَ ذلك المدركُ يَرْقى شيئاً فشيئاً من الدَرْكِ الماديِّ المُجَسَّم إلى دَرَجاتٍ روحيّةٍ مجرّدةٍ من المادة قليلاً أو كثيراً .

ومنذ نحو ثلاثة وثلاثين قرناً خطر لشاب من الفراعنة ، هو أمنحوتب الرابع ، أن ينظر إلى الدين بِنظرةٍ توحيديةٍ ، أي أن يرى العاملَ الفاعل في هذا العالم واحداً ؛ غيرَ أنه ظلّ في ذلك ماديّاً مُجَسِّماً إذِ اعتقد أن ذلك المُهَيْمِنَ الواحدَ على العالم هو الشمسُ . من أجلِ ذلك سمّى أمنحوتبُ الرابعُ نفسَه إخناتونَ ، أيِ النافعَ للشمسِ (عبدَ شَمْسٍ) ثم أمرَ جميعَ رعاياه أنْ يلتفتوا إلى عبادة الشمسِ وحدَها وأن يَذَروا[1] ما دون ذلك من الآلهة .

ثم جاءتِ الأديانُ السماويةُ التي أرادتْ أن تَرْقى بالإنسانِ من التجسيد الماديِّ لقُوى الطبيعة إلى التجريدِ الروحيّ للمدارك الإنسانية . وفي مَدى ألْفَيْنِ من الأعوام كان المدركُ الدينيُّ قدِ استقرّ على جانبٍ يزيدُ فيه العُنصُرُ الاجتماعيُّ على العنصرِ الماورائي .

كان اهتمامُ الإنسانِ القديمِ يكاد يقتصر في الحياة الدينية على التطلُّعِ إلى الغيب : « ما فَعَل الله ؟ ما يعمَلُ الله ؟ ما يُخَبِّىءُ الله لنا ؟ وكان التقرُّبُ إلى الله ، أيِ العبادةُ، يتّجهُ إلى أن يَمْحُوَ الله عنِ الإنسانِ السيّئاتِ التي كان الإنسان قدِ ارْتَكَبَها . وكذلك كان الإنسانُ القديمُ حريصاً على أن يَعْرِفَ الحياةَ التي يَحْياها الآلهةُ في مساكنهم العُليا في طعامِهم وشَرابِهم وزَواجهم ونِزاعِهم ولَهْوِهم . أما الأديانُ السماويةُ فوجّهتِ اهتمامَ الإنسان المؤمنِ إلى الأمور التالية :

---

(١) وذر (بفتح فكسر) يذر (بفتح ففتح) : ترك .

- التقليل من الاهتمام بالعنصر الماورائي الذي هو بمجموعه خارج من نطاق العقل الإنساني وعن دائرة النفع للإنسان .

- زيادة الاهتمام بالجانب الاجتماعي الذي يدور على نفع بعض الناس بعضاً وتأمين حال من الاطمئنان في الحياة الدنيا .

- التأكيد على الجانب الأخلاقي لأنه أساس الصلة بين الأفراد وأساس المجتمع السليم .

- السلوك العاقل في الحياة لاستقرار الصلات بين الجماعات وتنشئة أجيال صالحة للعيش في مُجْتمعاتٍ مُتجاورةٍ على الألفة والمحبّة حتى يصلُح سيرُ العالم الاجتماعيّ كُلّهِ . وقد جُعِل للعقل الإنسانيّ سُلطةٌ واسعةٌ على تسْيير هذا السلوك .

- التأكيد على نظام مُتماسكٍ من العبادات والمُعاملات يكونُ نطاقاً حولَ المُجتمع وزاجراً عن العُدوانِ على المجتمع .

* * *

ويُوغِلُ التاريخُ في سيره ويتراءى للعُقلاءِ أنّ الأديانَ السماوية قد حَلّتْ مُشكلةً كبيرةً للإنسان ، وذلك بأنْ يَلْتفِتَ عنْ أمورٍ لا سُلطةَ له عليها (كعددِ الملائكةِ الذين يستطيعون أن يرقُصوا على رأس إبرة وكمصيرِ الوحوش المفترسة والحيوانات الأليفة بعدَ الموت) ولا نفعَ ظاهراً له منها إلى أمورٍ هي أساس حياتِه الاجتماعية والنفسية (كالحِفاظ على صِحّته وعلى أسباب مَعاشه وكالمحافظة على سلامة المُجتمع الذي هو أحدُ أفراده وكالعِناية بالضُعفاء من أبناءِ مُجتمعه وجِنسه) . إن الأديانَ السماويةَ أرادتْ أن تخرُجَ بالدين من عالمِ الاحتفالات لتدخُلَ به إلى قلب الإنسانِ ثم أن تخرُجَ بالدين من أن يكون مناسباتٍ عارضةً في الحياة ، مربوطةً بمواعيدَ وتواريْخ أو غيرَ مرتبطةٍ بذلك كُلّهِ ، إلى أن يصبحَ الدينُ عادةً مألوفةً في حياة الفرد والمجموع . لقد أرادتِ الأديانُ السماوية أن تنقُلَ الإنسانَ والمُجتمعَ الذي يعيشُ فيه الإنسانُ من

الفَوْضى إلى النِظام ، ومِنَ ٱلاِضطراب إلى ٱلاِستقرارِ ، من التغالُبِ إلى التعاوُنِ ، ثم من الخيال النظري إلى الواقع العملي ومن الخُرافة إلى الحقيقة .

ولكن يبدو أن الإنسانَ الذي لم يَقْضِ في التوحيد الصحيحِ إلاّ ألْفَيْ عامٍ أو تزيدُ قليلاً لم يستطعْ أن يتخلّصَ من قيودِ الوثنية التي كان قد قضى فيها على هذهِ الأرضِ مِئاتِ الألوفِ من الأعوام . إنّ الإنسانَ عموماً لا يزالُ يَحْمِلُ في نفسِه كَثيراً من مظاهرِ الوثنية الأولى : تأسُره اللّفظة وتستهويه الكَلِمةُ وتَفْتِنُهُ الصورة وتستعبدُه الحركةُ ويتعلّق بالأصوات والأنوار والألوان ، حتّى حينما تكونُ الكَلِمة واللفظةُ والجُملة والصورةُ البلاغية سُبُلاً إلى تفهيم مَدْرَكٍ روحيّ . إنّه كثيراً ما يلتهي بالكلمة والصورة البلاغية العارضة في التعبير عن المدرك المقصودِ من ذلك التعبير .

أنّ الإسلامَ خاتَمُ الأديانِ السماويّة . ثمّ إنّ التوحيد في الإسلام قد بلَغ تَمامَه . إنّ الله في الإسلام فَرْدٌ أَحَدٌ : إنّه واحدٌ في العدد ثمّ هو أحَدٌ في أسمائه الحُسنى . هو مُنزَّهٌ عن أن يتّصِفَ بصِفاتِ خَلْقهِ ، وأسماؤه الحُسنى قاصرةٌ عليه لا يَتّصِفُ بمِثْلِها شيءٌ من خلقه .

والإسلامُ قدِ ٱستغنى عن جميعِ الصور الوثنيّة ، وقد نَقَلَ الأعيادَ من مَعْناها الوثني القديم إلى حقيقتِها التي جاء هو بها . للعيدِ في الإسلامِ جانبانِ : جانبُ الذِكرى التي تَرْبِطُ الإنسانَ المُسلِمَ بنِعمةِ الدين والتوحيدِ فيَقْضي المسلمُ وقتاً من مُدّة العيد في العِبادة ، في عبادةٍ تُشبه العِبادةَ اليوميةَ تحدُّثاً بنعمةِ الله عليه بالإسلام والتوحيد . ثمّ هنالك جانبٌ ثانٍ مُهِمٌّ هو الجانبُ ٱلاِجْتماعيُّ من التزاوُرِ (زِيارةِ بعضِ الناسِ بعضاً : تأكيداً للرِباط ٱلاِجتماعيّ بينَ الأقارب والجيران والأصحاب) ومن التَّوْسِعَةِ على الأهل ثمّ التصدّقِ على المُحتاجين من الأقربين والأبعدين .

أمّا في غيرِ الإسلامِ فإنّ العيدَ مناسبةٌ للإفلاتِ من القوانين ٱلاِجْتماعية والخُلُقيّة بٱلاِنْغماس في الشَّهَوات ، كما كان يفعَلُ أهلُ الجاهلية في الأُمَمِ

القديمةِ من العربِ ومن غيرِ العرب كاليونانِ والرومان والكَنْعانيّين (الذين يُدْعَوْنَ فينيقيّينَ) . ويدورُ العيد الوثنيّ على الغِناء والرقص في الهَيْكل الوثنّي وعلى ألبسةٍ لرجالِ الدين برّاقةٍ مَهولة وعلى الصُّوَرِ والرموز والكلامِ على الخالقِ كالكلامِ على المخلوق . . . .

وجاء العِلْمُ الحديثُ يُساعدُ الأديانَ السماوية على الخروجِ بالإنسان من عالَمِ الخُرافات إلى عالم الحقيقة ، ومن ظُلُماتِ الجهلِ إلى نور المعرفة ، ومن ذُلّ العبودية إلى عِزّ السَّعْي والجِهاد . ولكنّ الإنسانَ ظلّ متعلّقاً بما كان قد تعوّدَهُ بعَواطفه غيرَ قادرٍ على آلإِستنارة بهُدى عقله وآلإِعتمادِ على نفسِه . لقد أرادَ الدينُ أن تكونَ مَبادِئَه لنا أُسُساً نَقيسُ بها أحوالَنا الحاضرةَ ونطبَعُ على غِرارِها سُلوكَنا في أحوالنا المُقبلة ، فإذا بنا نجعَلُ تلك المبادىءَ كَلِماتٍ نتقيّدُ بظاهرِها ونغفُلُ عن حقائقها ثم نرفُضُ كُلَّ ما وَهَبَتْه لنا من القُدرة على تبديل الأحوال بتبدُّلِ الأزمان .

أرى أنّني أطَلْتُ في الكلام المجرّد . من أجلِ ذلك سأضْرِبُ على ما أردتُ مثلاً . غيرَ أنّني أوَدُّ من القارىء أن يعدَّ ما أضْرِبُه مثَلاً إنّما هو مثلٌ فقط وليس موضوعاً للمناقشة : إنني أودّ من القارىء ألّا يلتفتَ عنِ المدرك المقصودِ من المثلِ الذي سأضْرِبُه إلى الصورةِ البلاغية التي سأتّخِذُها سبيلاً إلى التعبير عمّا أردتُ :

يبدو أن جميعَ الأديانِ قد فرضتْ على أتباعها حجّاً على شكلٍ من الأشكال وفي فصلٍ من الفصول أو في غيرِ فصلٍ مُعيَّن من الفصول . ويحجّ كُلُّ قومٍ على شاكلتهم . وأنا لا أُنْكِرُ أنّ حجّ كثيرٍ من الناس إلى مناسِكِهِمُ المخصوصة قد أصبحَ صورةً لا صِلةَ لها بالغايةالتي فُرِضَ الحجُّ على الناس في كل دين من أجلها .

وجاء الاتّحادُ السوفياتيُّ يستغني عن الدين في أشكالِهِ التاريخية المُختلفة ويحاربُ تلك الأشكالَ التاريخية للأديان مُحاربة لا هَوادةَ فيها حتّى خرَجَ بذلك

إلى مُحاربة الدينِ نفسِه . وكان الحجُّ بطبيعةِ الحال من أشكال العِبادة التي حارَبها ٱلاتّحادُ السوفياتي ، والتي كانتْ في الحق قد خرجتْ عن كثيرٍ من غاياتها الأولى الصحيحة . ولكنْ إذا ٱتّفق لك أن رأيتَ مثلاً صورةً لقبرِ لينينَ فإنّك تُبْصِرُ الناسَ عنده صفّاً طويلاً يطوفون به في خُشوعٍ كما يفعل الهِندوكيّ في بَنارس والمسيحيُّ في القدس والمُسلم في مكّة . إنّ الاتّحادَ السوفياتي أرادَ أن يؤكِّد المدرَكَ من الحجّ ، فيما أظنّ ، ولكنّه لم يبدِّلْ إلاّ الصورةَ . لقد أرادَ أن يَحُلَّ مُشكلةً قديمةً فٱستعانَ على ذلك بصورةٍ جديدةٍ وظلّتِ المُشكلةُ حيثُ كانتْ يومَ ظنَّ الإنسانُ القديمُ أن حجَراً في رأسِ جبلٍ من الجبال حجرٌ مقدّسٌ فكان يسعى إلى الحجّ إليه .

لعلَّ الذنبَ في ذلك كُلّهِ ليس ذنبَ المُصلحين المتأخّرين في الزمن ، ولكنّه ذنبُ الناسِ الذين لا يستطيعون ، في مَجْموعِهم وجُمهورهم ، أن يُدركوا الغايةَ مِنَ الإصلاح . غيرَ أن المصلحينَ المتأخرينَ مَلومونَ ، وهم ينقُلون الناسَ من صورةٍ إلى صورةٍ ، بينما نفَرٌ منهم غافلون عن المدرك الحقيقيّ مِنَ الصورة الأولى .

يبدو أن العلمَ الذي نَعْرِفُه عاجزٌ عن حَلِّ مشاكلَ كِثارٍ ، وأنّ صِلةَ الناسِ بالدين من تلك المشاكل التي لم تُحَلّ . وٱعتقادي أنّ الدينَ في المدركِ التوحيديّ حقيقةٌ نفسيةٌ ٱجتماعيةٌ ، فالدين : بذلك ضروريٌّ للناس . أما عجزُ المُصلحين المتأخرين عن تحقيق الإصلاح الحقيقيّ فراجعٌ إلى أنهم يُعالجون صُوَرَ المجتمع المُختلفة وهم يظنّون أنها الحقائقُ ـ وذلك ما يفعَلُه جُمهورُ العامّة تماماً : إن جمهورَ العامةِ يتمسّكُ بالألفاظ والأشكال وهو يظُنُّ أنها الدينُ ، بينَما هو يُهْمِلَ الحقائقَ لأنه عاجزٌ عن إدراكها . ولا فائدةَ من عَمَلِ المصلحين إذا لم يكن بينَ مَدْرَكِهِمْ لهذه الأمورِ ومدركِ جُمهورِ العامةِ لها فرقٌ .

أزمة المفكّر المسلم(*)

يرى نفرٌ من الناظرين في شأن المسلمين أنّ المفكّر الإسلاميّ اليومَ في أزمةٍ (في شدّةٍ أو ضيق) تَحُولُ بينَه وبينَ التصرّف في حلّ المشاكلِ العارضةِ في أيامنا . وكلامُهم هذا من باب المَجاز ، فإنّ « الفكر » بما هو نَشاطٌ للعقل لا يمُرّ في أزَماتٍ ولا ينحطّ ولا يُخْطىء ولا يُبْطىء . إنّ « الفكر » الذي تجلّى في أرسطو (ت ٣٢٢ ق . م .) ـ منذ ألفينِ وثلاثِمِائةِ عامٍ بالتمام ـ لم تتبدّلْ قيمتُه ولا أحكامُه ولا قواعدُه ولا نتائجُه ولا أثرُه في الحياةِ الإنسانية، ولكنّ نفراً من الذين جاءوا بعدَ أرسطو من أمثالِ زَيْنونَ الرُّواقيّ القُبْرسيّ وأفيغورسَ (والناشئون يقولون : أبيكورُ) وفورّونَ الشاكّ (ويقولون : بيرونُ) ، وهؤلاء جميعاً تُوُفّوا نحوَ عامِ ٢٧٠ قبلَ الميلادِ (بعد أرسطو بخمسينَ عاماً) ، قد وقعوا في أزمات .

لقد عَجَزَ هؤلاء جميعاً عن أن تكونَ لهم قوّةُ التفكير التي كانت في أرسطو ثمّ قدرةُ الإحاطةِ بوجوهِ الوجودِ ممّا كان لأرسطو ثمّ إصابةُ الرأي التي تمتّع بها أرسطو . من أجل ذلك انقلبوا إلى جِدالٍ فرعيّ :

الأخلاقُ مُطلقةٌ أم نِسْبيةٌ ؟

أحقائقُ الوجودِ ثابتةٌ أم مُتَوَهَّمَةٌ ؟

آلحياة الصحيحة قائمةٌ على أحكامِ العقل أم على رَغَبات النفس بحَسْبِ ما تتطلّبُ الطبيعة ؟ . . . . .

(*) كتب هذا البحث في ٧ /١٢/ ١٩٧٨ .

وبهذا النظرِ وَسَمَ مؤرّخو الفلسفة هذا الطورَ الذي تلا عصرَ أرسطو في بلادِ اليونانِ باسم « طورِ آنحطاطِ الفكر اليونانيّ » تسميةً مَجازيّة .

ونحنُ المسلمينَ اليومَ (أو منذُ قرنَيْنِ أو يزيدانِ قليلاً من الزمن) يَمُرّ نفرٌ كثيرون منا بمثلِ هذا الطور من خُمود الفِكْر .ولكن، حينما يُحاوِلُون أنْ يستعيروا أساساً أجنبيّاً مَحدوداً كالرمزيّة والانعتاقية والواقعيّة والماركسية والأنجلسية والسارترية فإنّهم لا يفعلون أكثر من أن يعلنوا عن خمود فكرهم لأنّهم يحاولون أن يوقدوا فكرهم برماد لا نارَ فيه .

نحن نقول : إنّ الهندسةَ المستوية التي وضع أقليدسُ أصولَها وقواعدَها ووحّدَ حلولها ، في القرنِ الثالثِ قبلَ الميلاد ، علمٌ صحيحٌ لأنّه يَصِحّ عندنا نظريّاً وعمليّاً منذ ألفينِ ومِائَتَيْنِ من الأعوام عندَ أهل الصينِ وعندَ أهلِ إيطالية ، وعندَ النصارى وعند المسلمين ، وفي البلاد التي تألف الأديان والبلادِ التي لاَ دينَ لها . أمّا « الرسم التكعيبيّ » ، وأمّا « الشعر الحُرّ » وأمّا « السياسة التقدّميّة » فليستْ من هذا الباب : إنّها ليستْ من الصوابِ في شيءٍ ، وإن كانتْ تبدو في بعض الأحيان « على صوابٍ اُجتماعيّ عارض » .

إنّ زوايا المُثلّثِ الثلاثَ ما زالتْ منذُ الأزلِ ، وستبقى إلى الأبدِ ، مُساويةً لزاويتين قائمتين مجموعُهما مِائةٌ وثمانونَ دَرَجةً (نصف دَرجات الدائرة) . ولكنّنا قد وجدنا أن نفراً ممّن نعُدّهم كِباراً بينَنا قد ذهبوا في السياسةِ مثلاً مرّةً ذاتَ اليمين ومرّةً ذات اليَسار ، ثمّ إنّهم عادوا مِنَ اليَسارِ إلى اليمين . ثمّ نَجِدُ أنّهم اليومَ لا هُمْ في اليمين ولا هم في اليسار : ففي شيءٍ من الحياة الاُقتصادية يُشبهون بعضَ ما عند أهلِ اليَسار ، وفي شيءٍ من الحياةِ السياسية يشبهون بعضَ ما عند أهل اليمين . أمّا في الحياة العِلمية مثلاً فهم ليسوا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاء . فأين الصوابُ ، إذَنْ ، فيما يفعلون ؟

* * *

إنّ كلَّ ما تقدّم يُفضي بنا ـ عند درسِ خُمود الفكر عند نفر منّا اليوم ـ إلى القول بأنّ « ضَعْفنا السياسيّ » هو المسؤولُ عن تأخّرنا في التفكير المُنتج . وإذا

كان الإنسانُ لا يَمْلِكُ زِمامَ نفسِه في حياته السياسية - والسياسة هِي الإطارُ العَمَليّ للوجودِ الأجتماعيّ - فأخْلِقْ به ألاّ يكونَ مالكاً زِمامَ نفسِه في ميدانٍ آخرَ من ميادينِ حياته .

من أجل ذلك نَجِدُ الناسَ في الداخل وفي الخارج لا يُولُونَ الثقافةَ العربية ما تَسْتَحقُّه من العِناية ومن التقدير . خُذْ في المفكّرين الحديثين : عبدَ الرحمن الكواكبيَّ(1) ومحمّدَ عبده(2) ، ومحمودَ شُكري الألوسيَّ(3) ومحمّدَ روحي الخالديَّ(4) وأحمدَ سامحِ الخالديَّ(5) وساطعَ الحُصْريَّ(6) وشكيبَ أرْسلانَ(7) ومُحمّدَ كُرْدَ عليّ(8) وعُمَرَ الفاخوريَّ(9) - وهذا التَّعدادُ على سبيلِ المِثال لا

---

(1) عبد الرحمن الكواكبي (ت ١٣٢٠ هـ = ١٩٠٢ م) رحّالة من أهل حلب (سورية) اشتهر بكتابين له : « أمّ القرى » و« طبائع الاستبداد » ، أراد إصلاح العرب من طريق الإسلام وجمع العالم الإسلامي في دولة واحدة تتألّف حكومتها من خليفة حجازيّ ووزراء (يعهد إلى كلّ وزير منهم بالعمل الذي برع شعبه فيه) .

(2) محمّد عبده (ت ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م) مجدّد مصلح من أهل مصر أراد تسهيل العمل بالدين على الناس .

(3) محمود شكري الألوسي (أو الآلوسي) من أهل بغداد (١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م) مصلح ألّف عدداً كبيراً من الكتب أشهرها « بلوغ الأرب في أحوال العرب » . مجاهد وطني ومصلح .

(4) محمّد روحي الخالدي (محمّد روحي أو روحي بن محمّد) الخالدي (ت ١٣٣١ هـ = ١٩١٣ م) من أهل القدس ، مفكّر ألّف كتباً في العلم والسياسة والأدب ، أشهر كتبه « علم الأدب عند الافرنج والعرب » .

(5) أحمد سامح الخالدي (ت ١٣٧٠ هـ = ١٩٥١ م) من أهل يافا (فلسطين) ومن رجال التربية والتعليم كان ذا أثر في الحركة التعليمية في فلسطين (وفي لبنان أيضاً) ، ولكن ليس له من الكتب ما يدلّ على مكانته .

(6) ساطع الحصري (ت ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م) حلبيّ الأصل ، ولد في صنعاء (اليمن) ونشأ في استانبول ثمّ عمل بعد الحرب العالمية الأولى في سورية وفي العراق . وهو من رجال التربية والتعليم ومن الباحثين في القومية العربية .

(7) شكيب أرسلان (ت ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٦ م) ولد في الشويفات (لبنان) ، مجاهد سياسيّ وقوميّ له كتب كثيرة ، اشتهر بالمجلّة التي كان يصدرها في جنيف (سويسرة) : « الأمة العربية » (بالفرنسية) ، وله كتب متعدّدة في موضوعات مختلفة من السياسة والتاريخ والأدب .

(8) محمّد كرد علي (ت ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٣ م) من أهل دمشق (سورية) أديب عالم عمل في الصحافة وألّف كتباً كثيرة واشتهر بكتابه « خطط الشام » (ستّة مجلّدات) . وكان رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق .

(9) عمر فاخوري (ت ١٣٦٥ هـ = ١٩٤٦ م) أديب ناقد من أهل بيروت مرهف الحسّ بارع في=

على الحصر - تجدُ أنّ هؤلاء وأمثالَهم لا ينالون عِنايةً رسميةً إلاّ من خلال التخلّف السياسيّ النازل بالعرب : يريد نفر منا أن يجعلوا من الكواكبي ، مثلاً ، « داعيةً إلى الإصلاح الزراعي » لأنّ جانباً من العرب يريد أن يدُلّ على تقدّمه بسياسة الإصلاح الزراعي الذي كان ضرورةً في بولونية ، مثلاً (أمّا الدول العربية التي كانتْ تُصدّرُ الحبوبَ إلى أقطار العالم فقد أصبحت تستورد القمح من كندا أو تأخذه من الولايات المتّحدة في إطار الإنماء العالمي . وفي بعض البلاد العربية يقفُ المواطن في الصفوفِ الطويلة حتّى يستطيعَ أن يحصُلَ على حاجتِهِ من الخبز) . وإذا جاء هؤلاء إلى عمر الفاخوري أرادوا أن يدلّوا على تقدّمهم هم بنسبته هو إلى الشيوعيّة (وأين الشيوعية في كتب عمر الفاخوري ؟) . إنّ تخلّفنا الظاهر هو في محاولة الرؤية لثقافتِنا من خِلالِ الاتّجاهات الحاضرةِ في الفِكر الأوروبّيّ . ومن ذا الذي قال إنّ هايْدَكّر[1] وبَرْغْسون[2] وسارْتر[3] مقاييسُ للتفكيرِ الإنساني ؟ ثمّ من ذا الذي يقولُ إنّ نِتاجَ هؤلاء يمُتُّ إلى الفلسفة بسبب ؟

= الموازنة بين الأدب العربي والأدب الفرنسي ، له عدد من الكتب اللطيفة ، منها : الباب المرصود - الفصول الأربعة (وهما مجموع مقالات) - أديب في السوق .

(١) هايدكّر فيلسوف ألماني معاصر (١٨٨٩ - ١٩٧٦ م) أوّل من قال في العصر الحديث بالوجودية . والوجوديّة هذه مذهب يريد أن يجعل الإنسان الذي وجد في هذا العالم بغير اختياره : يختار نمط حياته (إنّ جميع التعاريف لهذا المذهب غامضة) . وهذا المذهب كان موجوداً (في جانبه العاقل) في العصور القديمة . إنّ الفيلسوف اليوناني (السفسطائي) بروثا غوراس الذي بلغ أشدّه نحو عام ٤٤٤ ق . م . قد قال : « إنّ الإنسان مقياس الأشياء » . ونجد الوجودية عند محيى الدين بن عربي (٦٣٨ هـ) تامّة إذا قبلنا أن الإنسان هو الذي يضع لنفسه القوانين التي يختار أن يسير عليها . ولعلّك تدرك شيئاً من الغموض والحيرة من عناوين عدد من كتب هايدكر :الوجود والزمن - ما فلسفة « ما بعد الطبيعة » ؟ - الطرق التي لا تؤدّي إلى مكان ما - في أثناء المسير إلى اللغة .

(٢) برغسون (ت ١٩٤١ م) فيلسوف فرنسي يرى أن الذكاء لا يدرك الحياة وإنما يدركها الحدس (الوصول إلى العلم من غير طريق العقل والبرهان) . وله من الكتب : منابع الأخلاق والدين .

(٣) سارتر (ولد ١٩٠٥ م) فيلسوف فرنسي وجودي معاصر لنا وقصّاص . من كتبه : الوجود والعدم - الغثيان - طرق الحريّة - الذباب (مسرحية) - أموات بلا قبر (قبور) - الأيدي القذرة - إبليس والإله الطيّب - المسألة اليهودية .

إنّ الفلسفةَ تُحاولُ أن تحُلَّ مشاكلَ البشر العقليةَ والنفسية ، كما أن العلم يُحاول أن يُسَهِّلَ حياة البشر الاْجتماعية والمادّيّة (التلفون والطائرة والبرّاد . . .) . أمّا هؤلاءِ وأمثالُهم فإنّهم تناولوا عدداً من المشاكل وأخذوا يَتسلَّوْنَ بتقليبِها على وجوهِها المختلفة ، فظنّ الناسُ العاديّون أنّ هؤلاء يتفلسفون .

إنّ قضيّةَ الفكر يجب أن توضَعَ اليومَ في إطارِها الصالحِ : إنّ عهدَ التفكيرِ النَظَريِّ قد مَرّ مُنْذُ غادرَ أرسطو هذا العالَمَ قبلَ الميلاد بثلاثةِ قرون : ثمّ جاءَ عهدُ الإصلاح الاْجتماعيّ متمثّلاً بظُهور النصرانية ثمّ بِظُهورِ الإسلام . وكانت النصرانية ـ لمكانِها بين الوثنية القديمة والتوحيد الجديد ـ لا تزال يَغْلِبُ عليها الطابعُ النظريُّ (من التثليث والأسرار الكَنسيّة وموت صاحب الدين لخلاص أتباعه ومن أنّ الإيمانَ وحدَه يمنح الخَلاصَ في الآخرة) . أمّا الإسلامُ الذي جاء في ذِرْوةِ الوحدانية فقد ألغى الرموزَ والأسرار والنجاةَ في الآخرة بجُهْد أحدٍ آخَرَ ، فأصبحت النجاةُ في الدنيا وفي الآخرة بعمل المُسلمِ وحدَه .

بهذا وبأمثال هذا في الإسلام لا يُعاني « الفكرُ الإسلاميّ » أزْمَة ولا تَخلّفاً ، ولكنّ نفراً من المسلمين يعانون أَزْمة في « تفكيرهم » لأنّهم يريدون أن يَقيسوا الإسلامَ بمقاييسَ ليست صالحةً في ذاتها .

وتبديدُ هذه الأزمةِ الموهومةِ يجب أن يكونَ اليومَ بالمنهج التالي :

إنّ المفكّرين المسلمين ، منذ نهضه آلاِعتزال ـ بما كان في آلاِعتزال من خير وشرّ ـ إلى الأمس القريب بوفاةِ ساطع الحصري (١٩٦٨ م) قد تركوا لنا تُراثاً غَنِيّاً . فلا يجوز لنا الآنَ أن نُصْدِرَ أحكاماً على هذا التُراثِ الغنيّ قبلَ أن ندرسَه دِراسةً مفصلة : فيحسُنُ بالمفكّرين المسلمين اليومَ أن يَرْجِعوا إلى هذا التُراثِ فيدرُسوه ويُرتّبوا مادّتَه ويبوّبوا موضوعاتِه ثمّ يسهّلوا الاطّلاعَ عليه . فإذا هم فعلوا ذلك أمكَنَهم حينئذٍ عملُ أمرينِ :

أولاً - إصدارُ الأحكامِ على مرتبةِ الفكر الإسلامي في تاريخِ الفكر الإنساني ومدى آتّساع أثره في العمران البشريّ .

ثانياً - تَتْميمه بما ليس فيه من التفلسف الجِدّيّ المفيد .

أمّا في الوقت الحاضر فلا يُنتظرُ أنْ ينشأ في المسلمين فلاسفةٌ نَظريّونَ لسَبَبَيْنِ مُهمّين :

السبب الأوّل : إنّ الفلسفةَ النظرية قد أُحِيط بها منذُ زمنٍ باكر . وجميع الفلسفاتِ ، آبتداءً من مطلَعِ العصور الحديثة إلى اليومِ ، إنّما هي مذاهبُ فرعيّةٌ تُجادل في عددٍ من وجوه فلسفةِ أفلاطونَ في الأكثرِ أو في عددٍ من وجوه فلسفة أرسطو في الأقل .

السبب الثاني : أنّ العصرَ الذي نحيا فيه اليومَ هو عصر علمٍ (علمٍ رياضيٍّ وعلمٍ طبيعيّ) ، فيجب علينا أن نهتمّ بالجانبِ العِلمي من الفكر . وعبقريّةُ العرب ، لِحُسْنِ الحظّ ، يجب أن تُطلَبَ في تُراثِهِمُ العِلميّ أكثرَ ممّا يمكنُ طلبُها في الجانبِ الفلسفي . إنّ في رسائلِ إخوانِ الصفا مثلاً (وهي رسائلُ دُوِّنَتْ في القرنِ الرابعِ الهِجريّ أوِ العاشر الميلاديّ ، قبل ألفِ عامٍ أو تزيد) ذِكْراً للأجسام التي تَفْقِدُ وزنَها في دَوَرانِها في أفلاكها . وهذا شيء لم يَعْرِفْه العِلمُ الحديثُ إلّا منذ أعوامٍ يسيرة . وفي المصادرِ العربية ذخائرُ من هذا القبيل لا تُعَدّ ولا تُحصى : في الفيزياء والكِيمياء وعلم الحياة وفي الطِبّ . فيحسُنُ بالمفكّر المسلمِ اليومَ أن يتحرّرَ من عُقدة البحث في الفلسفةِ النظرية ويَرْجِعَ إلى ميدان العلوم التجريبية .

ثمّ على الباحثين المسلمين أن يهملوا المقالات التي زوّرها في الثقافة الإسلامية « أبناء لويس ماسينيون » - وللويس ماسينيون[1] اليوم آبنة آسمها جنفياف تتابع عمل أبيها . فبحق الثقافة الإسلامية عليك ، لا تأخذ عن شركاء

---

(١) لويس ماسينيون (ت ١٩٦٢ م) مستشرق فرنسي ومستشار للشؤون الشرقية في وزارة الخارجية صبّ اهتمامه على التصوّف المتطرّف في الإسلام وعلى الملحدين .

جنفياف ولا عن تلامذة أبيها شيئاً يتعلّق بالثقافة الإسلامية : لا عن سلامة موسى[1] ولا عن عبد الرحمن البدوي[2] وغيرهما . إنّ عمل هؤلاء كان في تزيين أقوال الشاذّين عن الإسلام من الملاحدة ومن المُتصوّفين المُتطرّفين كالسُهْرودي المقتول والحلّاج المقتول أيضاً ، وكمُحْيي الدينِ بن عَرَبيّ[3] المقتول كذلك . وهنالك من أبناء ماسينيون نفر آخرون لا أريد الآنَ أن أُسَمِّيَهم ، وإنْ كانوا معروفينَ بسِيماهم .

غيرَ أنّ هذا ليس معناه ألّا نقبلَ من المُستشرقين شيئاً . إنّ الدِراسات التي قام بها مستشرقون في الثقافة الإسلامية من أمثال ألدو ميالي وجورج سارطون وفريتز كرنكو وليفي بروفنسال (والأخيران يهوديّان) دراساتٌ يمكنُ الاطمئنانُ إليها إلى حدّ بعيدٍ . ثمّ إنّ للمفكّر الإسلاميّ أن ينظُرَ في كلّ شيء بعقلِهِ فيقبَلَ ما يدُلُّه عقلُه على صوابِهِ ويترُكَ ما يدلّه عقلُه على فَسادِهِ .

فالقضيةُ ، إذَنْ ، ليستْ قضيّةَ أزْمةٍ في « الفكر الإسلاميّ » ، ولكنّها - في نفر من المسلمين - قضيّةُ جَزَعٍ أمامَ حركاتٍ (ثقافية أوِ آجتماعية أو أدبية ،

---

(١) سلامة موسى (من « الأعلام » لخير الدين الزركلي ، الطبعة الرابعة ٣ : ١٠٧ - ١٠٨) القبطي المصري (ت ١٩٥٨ م) كاتب مضطرب الاتّجاه والتفكير ، دعا إلى الفرعونية ، جحد الديانات في شبابه وعاد إلى الكنيسة في سنّ الأربعين . قام بحملة على الصحافة اللبنانية بمصر فنشرت دار الهلال رسائل بخطّه تثبت أنّه كان عيناً عليها لحكومة صدقي (إسماعيل صدقي المتوفّي سنة ١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م ، وتولّى رئاسة الوزارة في مصر مراراً) .

(٢) عبد الرحمن بدوي مؤلّف مكثر ، يتمتّع بقسط وافر من الذكاء أراد أن ينقل إلى اللغة العربية مائة كتاب من روائع الفكر الإنساني . من تلاميذ ماسينيون ومن السائر على خطاه في الاهتمام بالتصوّف المتطرّف وبالملحدين من المنتسبين إلى الإسلام .

(٣) السهروردي المقتول يحيى بن حبش (قتل ٥٨٧ هـ) بأمر صلاح الدين الأيوبي ، كان مشعوذاً يمكر بالناس ثم اتهم بأنّه كان يريد القضاء على الدولة . ولا ريب في أن كثيراً من أعماله كان مخرقة .

(٤) الحلّاج ، وهو الحسين بن منصور (قتل ٣٠٩ هـ) من طبقة السهروردي المقتول (وكان للمستشرق ماسينيون) اهتمام خاصّ به .

(٥) محيي الدين بن عربي (قتل ٦٣٨ هـ) ،كان متصوّفاً متطرّفا متّهما في أمور كثيرة من أمر حياته ، قيل قتله العامّة لأنّه قال مرّة أمامهم : أنتم وما تعبدون تحت قدمي هذه (قيل : يقصد أنّ العامّة لا يعرفون الله ، فهو يعبدون صورة ناشئة في أوهامهم) .

وراءَها قوةٌ سِياسية تُحاولُ أن تُخْضِعَ الشعوبَ سياسيّاً فتُحاوِلُ أن تخلقَ في نفوسِ تلك الشعوب « خوفاً ثقافيّاً » وعجزاً في التحرّك .

لِيَرْجِعِ المفكّرون منّا إلى التراثِ الماضي وَلْيَدْرُسوهُ ثمّ لِيَبْنوا عليه ما يُتَمّمه ، وخصوصاً من الناحيةِ العلمية ، فإنّ الناحيَةَ النظريةَ (الجَدلَ الفلسفيّ) أصبحَ قليلَ الأثرِ اليومَ في حركة الشعوب ، ثم لِيَكُنْ لنا دارسون يُلمّون بعَدَدٍ من الفنون المُساعدةِ ، فالكيمياء مثلاً تحتاج إلى الرياضيّات والفيزياء وعلم الحياة وإلى الآثار العُلويّة (بضمّ العين : أحوالِ الجوّ) بالإضافة إلى الجغرافية وإلى التاريخ أيضاً . إنّ الثقافة وَحْدَةٌ لا تتجزّأ . وليس معنى الاختصاص أن يَعْرِفَ الإنسان فنّاً واحداً لا يَعْدوهُ (لا يَعْرِفُ إلاّ الفلكَ ، مثلاً) ، بلِ الاختصاصُ أن يَعْرِفِ الإنسانُ علوماً مختلفةً مُتجاورةً وغيرَ متجاورة ثمّ يُوسِعَ جُهودَه في علمٍ منها .

إنّ ثمّةَ فارقاً كبيراً بين « المعارفِ الكثيرةِ المُتراكمة » و« المعرفةِ القليلةِ المُنظّمة » . إنّ المعرفةَ المنظّمة ، كثيرةً كانتْ أو قليلةً ، هي الأساسُ الثقافي للفرد وللمجموع ، بقَطْعِ النظر عمّا إذا كانتْ مُوافقةً للمقاييسِ الأجنبيةِ أو مُخالفةً لها . إنّ هذه المخالفةَ هي التي تجعلُ بعضَنا اليومَ يشعُرُ أنه في أزْمة ثقافية - فكريةٍ أوِ أدبية أوِ اجتماعية - ولو كان على صوابٍ فيما يفعَلُه .

والخطرُ من الشعور بأزْمةٍ في الفكر كبيرٌ جدّاً . إنّ الاستعمارَ يُحاولُ أن يجعَلَنا فريسةً لهذا الشعورِ حتّى يجعَلَنا نجبُنُ عنِ التحرّك فنجبُنُ عنِ التقدّم . إذا كان المسلمون اليومَ متأخّرين عن الغربِ المسيحي في العِلم الفنّي (التكنولوجيا) - وهم ، بلا ريبٍ ، كذلك - فيجب عليهم أن يُقْدِموا على هذا العلم الفنّي فيتعلّموه ، لا أن يمنَعَهُمُ الخوفُ ، أو الخجلُ ، من تأخّرِهم هذا فيَبْقَوْا بعيدينَ عنه مُكتفينَ بلَوْمِ أنفُسِهِمْ على هذا التأخّر . أنا أعتقدُ أنّ الموقف الجريء في مثلِ هذا الأمرِ هو الموقفُ المطلوبُ ، وحينئذٍ يُصْبِحُ الكلامُ في أزْمة الفكرِ في الإسلام ، أوْ أزمة الفكر في المُسلم ، في غير محلّه .

الإسلام السياسيّ
والسياسة الإسلامية(*)

هذا العنوانُ يُوهِمُ أنّني سأتكلّمُ في السياسة المحلّية الحاضرة ، أو في السياسة عموماً على الأقلّ . إنّني لن أفعلَ ذلك ، ولكنّني سأُوردُ عدداً من الأحداثِ مرّت في تاريخ الإسلام ثمّ أقفُ بالسَّرْد عند أواخرِ القرنِ السابعِ للهجرة ، أي قبلَ اليومِ بثمانية قرونٍ . وربما لم أصِلْ إلى ذلك الحدّ في الزمن . في هذه الأثناء سأحاول أن أرْسِمَ صورةً لِنَفَرٍ من رجالِ الإسلام ملأوا عُصورَهم بأعمالٍ أمينةٍ مألوفة عاقلةٍ معقولةٍ ، سواءٌ أكان هؤلاء الرجالُ من الحُكّام أو من المحكومين ، من الرُّعاة أو من الرعايا .

يظُنّ نفرٌ كثيرون أن الخطأَ في الأُمم والدُّول يقَعُ دائماً من الحكّام وحدَهم . والصحيحُ الذي لا شكَّ فيه حديثُ رسولِ الله ﷺ : « كُلُّكُمْ راعٍ ، وكلُّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيته » . إنّ السيّدَ مسؤولٌ عن الذين سوّدوه على أنفُسِهِمْ ، وكذلك كلّ واحدٍ من هؤلاء مسؤول أيضاً عن الأمانة في صِلَتِه بمَنْ هم فوقَه وبمن هم دُونه .

ثمّ إنّ في هذا الحديثِ فكرةً صحيحة ولكنها ليستْ جديدةً . غيرَ أنها كانتْ مقبولةً من قبلُ ، وهي اليومَ ثقيلةٌ على النفوس . كلُّنا اليومَ ميّالون إلى أن نُبْدِيَ آراءً عاطفيةً ـ ومِن النقدِ المُرِّ أحياناً ـ في الأحوال المحيطةِ بنا ، وقلَّما نظَرَ أحدُنا اليومَ بعينِ العقل في الأحوال الجاريةِ حولَنا : كل واحدٍ منّا يُحاولُ أن يزيح التبِعةَ إلى كتِف غيره .

(*) محاضرة ألقيت في المركز الثقافي الإسلامي (بيروت) ١٤٠٠ هـ (

وأنا هنا أيضاً - حينما أمُرُّ برجال الإسلام - لن أعْرِضَ لحياةِ الرسولِ ﷺ لسببين آثنين :

* أوَّلُ ذَيْنِكَ السببين أن رسولَ الله قُدْوَةٌ للمسلمين . ثمّ إنّ حياته خِصبةٌ بالأحداث العِظام ، فلا يجوزُ أن أقتطع منها ثلاثةَ أحداثٍ مثلاً ثمّ أزْعُمُ أن تلك الأحداثَ القليلةَ كافيةٌ في أن تنقُلَ للسامعين صورةً واضحةً لحياة الرسول .

* وثاني السببين أن من عادتي إذا تكلّمتُ على حياةِ الرسول أن أتناول منها وجْهاً واحداً وأن أعالِجَه معالجةً مُستقلّةً ، إذ لا أُحِبّ أن أجعَلَ من سيرةِ الرسول مَجالاً للمقارنةِ بسيرة رجل آخر .

وكذلك إذا أنا أتيتُ إلى رجالِ الإسلام الآخَرين فإنّني لن أستطيعَ أنْ أُورِدَهم جميعاً في هذا الحديث ، ولا أن أُورِدَ كلَّ شيءٍ في حياةِ نفرٍ منهم أيضاً . وحبّاً بأن أجعَلَ لهذا الحديثِ إطاراً صحيحاً واضحاً سأُورد أولاً رأيَيْنِ لِقِمَّتَيْنِ من قِمَمِ التفكير في التاريخ الإنساني : أرسطو من اليونانيّين قبلَ الإسلام ثمّ ابنِ خَلْدونٍ من مفكّري المسلمين . وليس بعد هذين ، قديماً وحديثاً - في وضوحِ القولِ - زيادةٌ لمستزيد .

يقول أرسطو : « إنّ أحسنَ أشكال الدولة هو الشكلُ الذي يُتيح أكبرَ قَدْرٍ من الخير للمجموع وللفرد . أما صَلاح الحُكْمُ أو فَسادُه فلا يُعْرَفُ من آلِاسم الذي يُطلقه الحاكِمُ على شكلِ حكومته ، بل من الغايةِ التي يُحاول الحاكمُ أنْ يَصِلَ إليها . فإذا هو قَصَدَ من حُكمه النفعَ العميمَ فحُكمه صالحٌ ؛ وإذا هو آستغلّ حُكْمه لمَصْلحته الشخصيةِ فإنّ حُكمَهُ يكونُ حينَئذٍ فاسداً مَهْما يطلقْ عليه من الأسماء » .

ثمّ يقولُ آبنُ خَلْدونٍ - وكأنّه ينقُل رأيَ أرسطو هذا من الصيغة النظرية إلى المجال العمليّ : « آعلَمْ أنّ مصلحةَ الرعيةِ في السُّلطان ليستْ في ذاتِه وجسمه من حُسْنِ شكله ومَلاحة وجهه أوْ عِظَم جِثْمانه أوِ آتّساعِ عِلمه أو جَوْدة خَطّه أو

ثُقوبِ ذِهنه . وإنّما مصلحتُهم فيه من حيثُ إضافتُه إليهم » بأنْ يكونَ حُكمُه عليهم صالحاً جميلاً ».

من هنا نشأ عُنوانُ هذا الحديث : « الإسلام السياسيّ والسياسةُ الإسلامية » ، أعني أيكتفي الراعي ـ كائناً من كان في طَبَقات المجتمع ـ بلفظ الإسلام ليجعَلَه وسيلةً إلى آستغلالِ الرعيةِ أو هُو قيامُ الراعي بواجبهِ نحو الرعيّة ؟ .

وكيلا تطولَ هذه المُقدّمة فوقَ ما يجب ، أبدأ بالأمثلة من حياةِ الرجال الذين آتّفق لي أن أتناولَ الحديثَ عليهم . وأوّلهم هُنا عُمَرَ بْنُ الخَطّاب .

كان عمرُ بْنُ الخطّاب ـ على عادتِه في ليلةٍ بعدَ ليلةٍ ـ يَعُسّ ، أيْ يطوفُ في المدينة يحاولُ مَعْرِفةَ أحوالِ الرعيّة قَدْرَ الإمكان . ففي إحدى ليالي تَطْوافهِ سَمِعَ صوتَ آمرأةٍ ينشد :

هَلْ مِنْ سبيلٍ إلى خمرٍ فأشربَها أوْ مِنْ سبيلٍ إلى نَصْرِ بْنِ حَجّاجِ ؟

إنّ عُمَرَ بْنَ الخطّاب ـ في هذه الحالِ ـ لم يثُرْ ويأمرِ الجُندَ بأنْ يقتحموا على تلك المرأة بيتَها ، ولا هو ختَمَ بابَ بيتِها بالشمع الأحمر ، ولا وضَع أمام جدارِ البيتِ عُبْوّة ناسفةً أو مُحرقةً ، ولا أمَرَ بِسَجْنِ تلك المرأة . ولكنه في اليوم التالي سأل عن ذلك البيتِ فقيل له : هو بيتُ فلانٍ . وسأل عن فلانٍ فقيل له : هو في الجِهاد ، في جيوشِ الفتح الإسلاميّ . فذهب عُمَرُ إلى آبنتِهِ حفصةَ وسألها رأيَها في ذلك . فقالتْ له : أربعةُ أشْهرٍ ، يا أبي . عند ذلك أصْدَرَ عُمَرُ بْنُ الخطّاب أمراً بأنْ يَصْطَحِبَ المجاهدون في سبيلِ الله أهلَهم أوْ أنْ يعودَ كُلُّ مجاهدٍ إلى أهله مَرّةً كُلَّ أربعةِ أشهُرٍ .

إنّ عُمرَ بْنَ الخطّاب قد أراد أنْ يحُلّ مُشْكِلاً آجتماعيّاً وعسكريّاً ودينيّاً في وقتٍ واحدٍ . إنّ القضيّةَ لم تكُنْ قضيّةَ آمرأةٍ تُغنّي في الليل ، لقد كانتْ قضيةَ أُسرةٍ يجب أن تبقى سليمةً صحيحة . إنّ بإمكانِ رئيسِ الشُّرطة أنْ يستَصْدِرَ

قانوناً يمنعُ وُقوفَ السيّاراتِ في جوانبِ الشوارع وأنْ يُعاقبَ السائقَ الذي يَقِفُ على أحَدِ جانِبَيِ الشارعِ بمبلغ من المال . ولكنْ هل يَحُلُّ أمرُ رئيسِ الشّرطة بِمَنْعِ الوُقوفِ في جانِبَيِ الشوارعِ ، أو هل تَحُلّ الغَرامةُ المفروضةُ على المخالفين ، مُشكلةَ السيرِ في المُدُنِ ؟

وثانيةٌ من حياةِ عُمَرَ :

عَرَفَ بعضُ القُوّاد في فارسَ نوعاً شَهِيّاً من الطعام . فلمّا كان في إحدى زَوْراتِه إلى المدينة صَنَعَ مثلَ ذلك الطعامِ وحَمَلَه إلى عُمَرَ . وقالَ له :

- يا أميرَ المُؤْمنينَ ، هذا طعامٌ طيّب .

فسألَه عُمَرُ :

- وهلْ أكَلَ منه جميعُ الجُندِ ؟

فقال القائدُ :

- لا ، يا أميرَ المُؤْمنين .

فقالَ عُمَرُ :

- لا حاجةَ بي إلى ذلك الطعامِ .

وبعدَ قُرونٍ من الزمنِ يُقام في قصرِ فُلانِ بن فلانِ بنِ فلانٍ موائدُ يأكُلُ منها الألفُ والألْفانِ - مِمَّنْ لا حاجةَ بهم إلى طعامٍ - ثمّ ينهَضون عنها وَهِيَ كأنها لم يَمَسَّها أحَدٌ ، أو قريباً من ذلك . فإذا آنصرفَ عنها المَدْعُوُّون بِطاناً ، ونال حَواشي القصر منها ألواناً أُلْقِيَ ما تَبَقّى عليها في مكانٍ من الباديةِ القريبة . هذا ، ونِصْفُ أهلِ آسِيَةَ وإفريقيَةَ يَتضوّرون جُوعاً .

وثالثةٌ من عهدِ عُمَرَ بْنِ الخطّاب على مُستوى الحَضارة الإنسانية :

ولّى عُمَرُ بْنُ الخطّاب على قضاءِ البصرة أبا موسى الأشعريّ وكتبَ إليه بِرسالة يقول له فيها :

« إن القضاء فريضةٌ مُحكمةٌ وسُنّة مُتبعة ، فافْهَمْ إذا أُدْلِيَ إليك وأنْفِذْ إذا تبَيّن لك ، فإنّه لا ينفعُ كلامٌ لا نفاذَ له . آسِ بين الناسِ بوجهِكَ وعدلِكَ ومجالسِكَ حتّى لا يطمعَ شريفٌ في حَيْفِكَ (في مَيْلِكَ إليه وظُلْمِكَ خَصْمَهُ) ولا ييْأسَ ضعيفٌ من عدلِكَ . البيِّنَةُ على مَنِ ادّعى واليمينُ على من أنكر . والصُّلْحُ جائزٌ بينَ المُسلمين ، إلاّ صُلْحاً أحَلّ حراماً أو حرّم حلالاً . ولا يَمْنَعْكَ قضاءٌ قَضَيْتَهُ اليومَ فراجَعْتَ فيه عقلَكَ وهُدِيتَ فيه لِرُشْدِكَ أن تَرْجِعَ إلى الحقّ ، فإنّ الحقّ قديمٌ ، ومُراجعةُ الحقّ خيرٌ مِنَ التّمادي في الباطل » .

ليستْ غايتي هنا أنْ آتيَ بفصلٍ من تاريخِ القضاء ، مَعَ أنّ عُمَرَ بْنَ الخطّاب قال هذا القولَ في النصفِ الأولِ من القرنِ السابعِ للميلادِ ، بعدَ أنْ نُسِيَ القانونُ الرومانيُّ وسادَ في أوروبّة قانونُ السيف والقوّة البهيميّة . لقد أحْبَبْتُ أنْ آتيَ بشاهدٍ على أنّ الحاكمَ مسؤولٌ عن كُلّ شيءٍ ، فإذا لم يَعْرِفْ هو كُلَّ شيءٍ فيجبُ عليه أنْ يسألَ الذين يَعْرفون . وليسَ من الحُكْمِ والحِكْمَةِ ولا من العِلم والعدلِ أنْ يُصْدِرَ الحاكمُ اليومَ قانوناً ثمّ يُصْدِرَ تعديلاً لذلك القانون في غدٍ ، ثمّ مُلحقاً بتعديلِ القانون بعدَ غدٍ ، ثمّ ذيلاً لذلك الملحق بعدَ أيامٍ ، وذلِكَ كلُّه لأنّ لذلك الحاكمِ قوماً في البلد يريدُ أن ينفعَهُمْ من مال الدولة فيُصْدِرَ لهم في كلّ حينٍ قانوناً بحسب ما يُملي هواه وتُملي أهواؤهم أو بحسب ما يُمليهِ عليه مَنْ هو فوقَه في دَرَج الدولة .

والمَثَلُ على المُلاحظةِ السابقةِ نأخذُه من عليٍّ كرّمَ اللّهُ وجهَه :

جاء عَقِيلُ بْنُ أبي طالبٍ إلى أخيه عليٍّ - وعليّ يومئذاك خليفةٌ - وقال له : يا أخي ، أنا غارِمٌ (أيْ عليّ دَيْنٌ) ، فأعْطِني ما أستطيع به وفاءَ دَيْني . فقال له عليٌّ : واللّهِ ، يا أخي ، ما عِندي شيءٌ أُعطيكَ منه . فقال له عَقِيلٌ : أعْطِني من بيتِ المال . فأجابه عليٌّ قائلاً : يا أخي ، هذا مالُ المُسلمين في بيتِ مالِ المسلمين . ولستُ أنا الآنَ ، ولا أنتَ الآنَ ، مِمّنْ يُحَقّ له أنْ يأخُذوا من بيتِ مالِ المسلمين شيئاً .

ثمّ يأتي زمانٌ يكثُرُ فيه المنكوبون والمحرومون فتُجْمَعُ الأموالُ بآسْمِهِمْ وعلى رَسْمِهِمْ بعدَ ما نالتِ المصائبُ من رُوْحِهِمْ ومن جِسمِهِم ، ويجتمعُ منها في يدِ الراعي قناطيرُ مُقَنْطَرةُ . فمن كانَ من الرعيّةِ فقيراً مُصاباً أُعْطِيَ نقيراً حقيراً ، ومن كان من الرعيّة غنيّاً سَريّاً أُعطِيَ عطاءً واسعاً جامعاً . أوَلَيس العطاءُ على المَقاماتِ وبحَسْبِ الكرامات ؟

ونأتي إلى الحجّاج بْنِ يوسُفَ .

لم يكُنِ الحجّاجُ مَلِكاً ولا خليفةً ، بل بدأ حياتَه مُعَلِّماً في كُتّاب . ثمّ دخلَ جُنْدِيّاً في ساقةِ[1] الجيش (في مَطْبخِ الجيش) ثمّ أصبح والياً على العِراق في أيامِ عبد المَلِك بن مَرْوانَ . غيرَ أنه كان أحقَّ بالمُلك وبالخلافة من نَفَرٍ كثيرين جلسوا على العروش ولَبِسوا التِيجان .

لمّا جاءَ الحَجّاج إلى العِراق ، كانتِ الحروبُ والفِتَنُ قد خرّبت الدُّورَ وطَمَرَتِ الأقنِيةُ ، فخَلَتِ المزارعُ من فلّاحيها وهجر مُعْظَمُ أهلِ القرى قُراهُم . فلم يبدإ الحجّاجُ إصلاحَ البلاد وتنظيم الإدارة بإصدارِ المراسيم والقوانين ، ولكنّه أعادَ بناءَ البلد وأصلح الطُرقَ وأعادَ حَفْرَ الأقنية . بعدَئذٍ أمَرَ أهلِ القُرى بالرجوعِ إلى قُراهم وأخَذَ بجَمْعِ الضرائب وبإرسال الجُيوشِ إلى الفتح . فآنتشرَ الأمنُ في طولِ العِراق وعَرْضه حتّى كانتِ المرأةُ تنامُ وحيدةً في بيتها وبابُ بيتِها مفتوحُ .

ولمّا باشرَ الحجّاج الفتوحَ ثم أراد فتحَ بلادِ السِّنْد (غربيّ الهِنْد أو باكِسْتانِ اليومَ) ، حَشَدَ جيشاً كبيراً من الناشئين وجعلَ القائد عليهم آبْنَ عمٍّ له آسْمه محمّدُ بنُ القاسمِ الثَقَفيُّ ، وعُمُرُه يومَذاك سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً .

وسار ذلك الجيشُ الكبيرُ من الأطفالِ الصِغار إلى فتحِ بلادِ السِّند - وفي أثناء طريقِهِمُ الطويلِ كَبِروا . ولمّا بدأ عَقْدُ مُعاهدةِ الصُّلح بينَ مَلِكِ السِّند ومحمّد بْنِ القاسم الثقفيّ وجاء الكلام إلى الغرامة الحربية قالَ مُحمّدُ بْنُ

---

(١) الساقة : جماعة وراء مؤخّرة الجيش يعمل أفرادها في إعداد الطعام وإصلاح الأسلحة ، الخ .

القاسمِ الصغيرُ للمِهْراجاه الكبير : آمْلأ لي هذه القاعة ذهباً ـ كذلك فكّر هذا الطفل الذي فتح تلك البلاد البعيدة الكبيرة الغنيّة . وأرسَلَ محمّدُ بْنُ القاسم هذا المالَ كُلَّه إلى الحجّاجِ بْنِ يوسف . . . ولمّا ماتَ الحجّاج بْنُ يوسُفَ خلّفَ مُصْحَفاً وسيفاً وعَشْرَةَ دراهِمَ فضّةٍ .

ثمّ نأتي بحسْبِ التسلسل التاريخي إلى عُمَرَ بْنِ عبدِ العزيز .

كان عمرُ بْنُ عبد العزيز قبلَ الخلافة لبّاساً مِعطاراً ناعمَ العيشِ فلمّا فُرِضَتْ عليه الخِلافةُ ـ في حديثٍ طويل ـ تركَ ذلك كُلَّه ، إذ كيفَ يستطيعُ الخليفةُ أن يتخيّرَ كُلَّ يومٍ أنواعَ طَعامه ثلاثَ مرّاتٍ ويتخيّر أنماطَ ثيابهِ ثلاثَ مرّاتٍ لِمَا قبلَ الظهرِ ولما بعد الظهيرة وللمساء ثلاثَ مرّاتٍ أيضاً : القميصُ موافقٌ للرداء ، والرداء مُشابهٌ للحذاء ، والحذاء من آخر ما آبتدعه أربابُ الأزياء ، ثمّ يكونُ له الوقت الكافي للنظر في شُؤونِ الناس وفي أمور الدولة ؟ وإذا قضى الخليفةُ كُلّ أوقاتِه في اللّهو معَ الأصدقاء فمتى يكونُ منه الجِدّ في مُقارعة الأعداء ؟

وجاء رجُلٌ إلى الخليفةِ عُمَرَ بْنِ عبدِ العزيز يقول له : إن فُلاناً يسُبُّكَ في الأسواق . فقال له عُمَرَ : آسْمَعْ ، يا هذا . هنالك قوم يسُبُّون الواحدَ الخلّاقَ . ثمّ أنتَ تسمَعُهم ، كما يسمَعُهُم غيرُك ، وتَدَعُهم وشأنَهم . فإذا أنتَ رأيتَ أحداً من مثل هؤلاء فأسْدِ إليه النصيحة وأعْفِني من هذا النفاق .

ولم يَعِشْ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيز في الخلافةِ سوى سَنَتَيْنِ ألغى في أثنائهما رواتبَ أعضاء الأُسرة المالكة وآستردّ مِنْهُمُ الأراضِيَ التي كانتْ قد أُقطِعتْ لهم قبلَ خِلافته . فعمرُ بْنُ عبد العزيز وحدَه كان خليفةً لا جميعَ أفرادِ الأُسرة الأُموية . بهذه اللَّفْتة البسيطة صَلَح جانبٌ كبيرٌ من البيئة الإسلامية في أيامِ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيز ، حتّى إنّ المُسْلم كان يَضَعُ زكاته على كفّه ثمّ يطوفُ بها في الدولة الإسلامية فلا يَجِدُ مُستحقّاً يدفعها إليه ـ لأن الناسَ كُلّهم كانوا قد أصبحوا ـ في خلافته ـ أغنياءَ .

ثم يأتي زمانٌ يُكالُ المديحُ فيه للخلفاء كَيْلاً - من الأمويين والعبّاسيّين - بينما كثيرون من الناس يحتاجون إلى نِصْفِ كَيْلٍ من الطعام يسُدّون به الرمَق ، أو إلى قِطعة من النسيج يرُدّون بها حرّ الشمسِ عن رُؤوسهم أو يدفعون بها المطرَ عن أجسامهم .

ولا عجبَ في ذلك ، فإنّ الناس على دينِ مُلوكهم ، أو على دين المَلِك ، كما يقولُ آبْنُ خَلْدونٍ . كان الوليدُ بنُ عبدِ الملك خليفةً عُمرانيّاً بنى في أيامِه الدُورَ والقصورَ . فكان الناسُ في أيامه إذا آجتمعوا أقبلَ بعضُهم على بعضٍ يتساءلون : ما آشتريتَ من المزارع والدساكر ؟ وأينَ بَنَيْتَ قصراً جديداً لسَكَنِك ؟ وكم ثمنُ الذِّراع من الأرض اليومَ ؟

ثمّ جاء أخوه سُليمانُ بن عبدِ الملك - وكان أكولاً ذَوّاقةً : gourmand et gourmet! فكان الناسُ في أيامه إذا آجتمعوا قال بعضُهم لبعضٍ : ما أكلتُمْ بالأمسِ ؟ وما طَبَخْتُمُ اليومَ ؟ وهل ذُقْتُمُ البِطّيخَ الباكر ؟

فلما جاء بعدَهما الخليفةُ العالمُ الزاهدُ عُمَرُ بْنُ عبد العزيز جَعَلَ الناسُ إذا آلْتَقَوْا في مَجالِسِهم أو في الأسواق سأل كُلُّ واحدٍ منهم صاحبَه : كم رَكْعةً تَنَفَّلْتَ في الليلةِ الماضية ؟ وكم وِرْداً قرأت بالأمس ؟ وكم ليلةً آعتكفت في هذا الشهر(١) ؟

وننتقل إلى الدولة العبّاسية ونكتفي منها بخليفةٍ واحدٍ :

كان الخليفة المأمونُ مرّةً في دِمَشْقَ فقلَّ المالُ بين يَدَيْهِ . فأسَرَّ بذلك إلى أخيه المُعتصِمِ - وكان المعتصمُ يتولّى الأموال في عدد من المقاطعات - فجاء المعتصمُ إلى المأمونِ بثلاثينَ ألفِ ألفِ ألفِ درْهَمٍ (أيْ بثلاثينَ بِلْيوناً) . فلمّا وَصَلَ هذا المالُ الكثيرُ إلى المأمونِ قال لمن حَوْله : إذا نحنُ آنصرفنا إلى منازِلِنا بهذا المالِ ، والناسُ أيضاً في ضِيق شديدٍ ، كان ذلك منّا لُؤْماً قبيحاً .

---

(١) تنفّل الرجل : صلّى عدداً من الركعات تطوّعاً من عند نفسه . اعتكف أقام مدّة طويلة يتعبّد .

ثمّ جعلَ المأمونُ يفرّقُ من هذا المالِ حتّى بلغَ إلى أربعةٍ وعشرينَ بليوناً . بعدَ ذلك حوّلَ الباقيَ إلى الجُنود . فآنتعشَ الناسُ .

وهُنا تحضُرني قِصّةُ إمبراطور الصين :

في أواخرِ القرنِ الماضي زار إمبراطورُ الصين مدينةَ باريزَ فأعْجَبَهُ منظرُها في الليل وهي مُضاءةٌ بمصابيحِ الغاز . فلمّا رَجَعَ إمبراطورُ الصين إلى عاصمتِهِ بكّينَ آسْتَدْعى رئيسَ وُزرائِه وقال له : « **لقد أعْجَبَني منظرُ باريسَ في الليل ، وأُريدُ أن تُضاءَ بكّينُ مثلَ باريس ، وها مِليونَ دينارٍ لتنفيذِ هذا المشروع** .

في اليومِ التالي أرسلَ رئيسُ الوزراءِ إلى وزيرِ الداخلية يدعوه إلى مقابلتِهِ ثمّ قال له : إنّ الإمبراطور يُريدُ أن تُضاءَ بكّينُ في الليل ، فهاك نِصْفَ مِليونِ دينارٍ فآفْعَلْ ذلك . فلمّا وصل وزيرُ الداخلية إلى ديوانه آسْتَدْعى وكيلَ الوزارةِ وقال له : يحسُنُ أن تُضَاءَ بكّينُ في الليل تسهيلاً للسير في شوارِعها ، وإليك رُبْعَ مِليونِ نَفِّذْ به هذا المشروعَ . وبعدَ مُدّة استدعى وكيلُ الوزارة رئيسَ الشُّرطة وقال له إنّ جَلالَةَ الإمبراطور يرغَبُ في إضاءة بكّينَ في الليل . وخُذْ ، هذه مِائةُ ألفِ دينارٍ لهذا المشروع الجليل .

وبعدَ بِضعة أيامٍ آستدعَى رئيسُ الشرطة ألفَ شُرْطيّ وآسْتَعْرَضَهم ثم خطب فيهم خُطبةً حَماسية في فضْلِ تنويرِ المُدُنِ في الليالي المُظلمة ثمّ أخبرهم أن صاحبَ الجلالة إمبراطورَ مَمْلَكةِ السماء وسليلَ الآلهة يرغَبُ في خِدْمة شعبهِ الكريم بأنْ تُضاءَ شوارعُ بكّين في الليل حتّى يسهُلَ على شَعْبنا العظيم أن يتنقّل في الليالي المُظلمة بيُسْرٍ وراحة . ثمّ إنّه نَقَدَ كُلَّ شُرطيّ ديناراً .

وفي الصباحِ الباكر مِنَ اليومِ التالي آنطلَقَ أفرادُ الشُّرطة الألْفُ في شوارعِ بكّينَ وأحيائها يطرُقون كُلّ بابٍ ويأمرون أهلَ كُلِّ بيتٍ أن يُعلّقوا أمامَ دارِهم فانوساً ، **بأمر صاحب الجَلالة الإمبراطور** .

* لننتَقِلْ قليلاً إلى المغرب :

كان يوسُفُ بْنُ تاشِفينَ من أتباع عبدِ الله بْنِ ياسينَ . وعبدُ اللَّهِ بْنُ ياسين هذا تولّى - في حديثٍ طويلٍ جِدًّا - الدعوةَ الإسلاميةَ في المغرب ، من حُدودِ النيل الغربيّ (أي نهر النِيجَر) إلى الشواطىء الشَّمالية من قارّة إفريقِيَة . وكانتْ قبائلُ البربرِ في تلك البلاد المترامِيَةِ كقبيلةِ لَمْتونة وقبيلةِ مَصْمودة وقبيلةِ بُرْغُواطة قبائلَ مسلمةً ، ولكنْ لا تَعْرِفُ من الإسلام إلاّ أشياءَ يسيرةً . ووَجَدَ عبدُ الله آبْنُ ياسينَ أنّ الأُمَمَ لا تنهَضُ إلاّ بالعِلم . وليس بإمكان رجُلٍ ، مهما يكنْ صالحاً ، أنْ يَقِفَ في جماهير الناسِ ويُلقِيَ دروساً في العِلم أو في الأدب أو في فنّ النِجارة أو الحِدادة ، إلاّ إذا كانَ ذلك الرجُلُ عالِماً بالفنّ الذي يريدُ أن يُعَلّمه . لا بُدَّ لكُلِّ شيءٍ من آلةٍ ، ولا بُدَّ لكُلِّ آلةٍ من طريقةٍ لِلإِستخدام . والمُعلّم رجلٌ كثيرُ الإخلاص - ولا عليه أن يكونَ كثيرَ العلم - يَقِفُ أمامَ لَوْحٍ أسودَ ويَحْمِلُ في أصابعه «بشورة . أما الكُتُبُ المُزخرفة المُلوّنة ووسائلُ الإيضاح والأدواتُ السَّمْعية البَصَرية فإنّها أشياءُ مُساعدةٌ ، ولكنّها لا تنفَعُ إلاّ إذا كانَ لدينا المُعلّمُ الذي يُحْسِنُ آستخدامَها ويستطيعُ أن يفهَمَها هو ثمّ يُفْهِمَها نفراً آخرين . والمعلمُ الصالحُ لا يحتاجُ إليها في العادة . إن هذه الوسائلَ المُصطنعةَ لم تكُنْ موجودةً من قبلُ ، ولكنْ عِندنا أفلاطونُ وأرسطو ، وكان عندنا الجاحظُ وابنُ سينا والغزّالي وابنُ رُشْدٍ ثمّ كان بعدَ ذلك لافوازيه ونيوتن وأينشتاين . وكذلك كان عندنا محمّد عبده وشوقي .

ولكنْ ما لنا ولهذا الآن ، فَلْنَرْجِعْ إلى عبد اللَّهِ بنِ ياسينَ :

آختارَ عبدُ الله بنُ ياسينَ جماعةً من البربر وآنتقلَ بهم إلى جزيرةٍ في نهرِ النيل الغَرْبيّ - ويُقالُ له اليومَ « نهرُ النيجر » - وقيل بل جمعَ عبدُ الله بنُ ياسينَ جماعتَه في جزيرةٍ من نهرِ السِّنغال . وهنالك أسّسَ عبدُ الله بنُ ياسينَ رِباطاً وسمّى أتباعَه المُرابطين .

لقد قطعَ عبدُ الله بنُ ياسين أتباعَه عنْ كُلّ شيءٍ إلا عنِ الإسلام : أيْ إلاّ عنُ الأخلاقِ والعِلم النافع والطاعة لِوَلِيِّ الأمر والنُّصح للناس. ولمّا أعَدّ عبدُ الله آبْنُ ياسين تلاميذَه على المنهجِ القويم والصِراط المُستقيم ثم آنتقلَ بهم إلى

أطراف المغرب يدعو بهم إلى الجِهاد ، فإن الكَلِمة الطيّبة وحدَها ربما نفعَتْ وربما لم تنفَعْ . والعملُ الصالحُ ينفَعُ معَ الكَلِمة الطيّبة وبغيرِ كَلِمةٍ طيّبة . ثمّ إنّ العملَ الصالحَ كان في رأيِ عبدِ اللّهِ بْنِ ياسينَ ـ وفي رأينا أيضاً ـ هو القدوةَ الصالحة وليس التظاهرَ بالصلاح .

كان عبدُ اللّهِ بنُ ياسينَ سيدَ الجماعةِ وصاحبَ الدعوة إلى الجِهاد والحاكمَ في أتباعه الذين كانوا يكثُرون بآستمرار . ولكنْ لا بُدّ ، في كلّ جماعةٍ ، من مُلْك ، من حُكم ، من تنظيمٍ ، من سياسة مالية ومن حَمْلٍ للتبعة . ومعَ ذلك كُلّهِ فإنّ عبدَ الله بن ياسين لم يختَرْ أن يرأسَ الدولةَ الجديدة بنفسِه رِئاسةً مُباشِرة ظاهرةً ، بل جعَلَ رِئاسَتَها إلى شَريكٍ له في الدعوة هو يحيى بْنُ عُمَرَ الكدّاليُّ ، وظلّ هو ـ من وراءِ سِتارٍ ـ يقودُ الدعوة فِعْلاً : لا يمشي على رؤوسِ المواكب ، ولا يُلَوِّحُ الصِغارُ له بالأعلام إذا مرّ في الشوارع ولا يختارُ ملابسه من شِعار بردانَ وخَيال فردانَ وتفصيل سرد نَ . ثمّ جاء بعدَ يحيى أخوه أبو بكرٍ .

ثُمّ آتّسعتْ حركةُ المرابطين آتّساعاً كبيراً وزادت أعباؤها ، ووَجَدَ أبو بكرِ بنِ عُمَرَ أنّ في المرابطين من هو خيرٌ منه لِقيادةِ هذه الحركة ، فتنازَلَ عن رِئاستها لرجُلٍ من المرابطين آسمُه يوسُفُ بْنُ تاشِفينَ . ونحنُ اليومَ نرى في الأرجنتين وبَرازافيل ، وفي البُرتغال والبرازيل وفي كوبا ونيكاراغوا أُناساً يقومون بأنقلاباتٍ لِيَصِلوا إلى حُكْمٍ مُضطربٍ ، وربما خاض أحدُهم إلى هَدَفِه جداولَ من الدماء أو أنهاراً ، أو يقولُ إنّ انْقلابَه كان أبيضَ لِأنّ عَوامّ الناسِ لم يَعْرِفوا ، في ذلك الحدَثِ المشهور ، عددَ الذين طَغَتْ عَلَيْهِمُ الأمواجُ أوِ آسْتقرتِ الأرض أو سُدّتِ الأبواب . وها هو في تاريخنا الإسلامي عبدُالله بن ياسينَ لا يتولّى الحُكم ، والحُكْمُ في إصبَعِه كالخاتَمِ . ثمّ هذا أبو بكرِ بنُ عُمَرَ يتخلّى عنِ الحُكْمِ المُستقرّ لِرَجُلٍ آخرَ . كان ذلك كُلُّه نحوَ سَنَةِ ٤٥٠ للهِجرة أو ١٠٦٠ للميلاد .

وتسمّى يوسُفُ بْنُ تاشِفينَ بآسْمِ سُلْطانٍ وتلقَّبَ بلَقَبِ أمير ، إذ رأى أن آسْمَ الخِلافة ولَقَبَ أميرِ المؤمنين يجب أن يَبْقَيا لأصحابها . ولم يكُنْ هنالك ، في رأيِ يوسُفَ بْنِ تاشِفينَ ، منافسةٌ على المناصب ، بل تعاوُنٌ على الخير . ومِنْ حُسْنِ حظِّ المسلمين أنّ مُدّةَ يوسُفَ بنِ تاشِفينَ في الحُكم دامتْ خَمْسينَ سَنَة . في هذه الأثناءِ آنتشرتْ شُهرتُه في المشرق والمغرب : المشرق رازِحٌ تحتَ وطأة الحروب الصليبية ، والمغرب في الأندلس يتناثَرُ قِطَعاً وخِرَقاً بأيدي مُلوكِ الإسبان .

وتذاكَرَ المسلمون في الأندلسِ أمرَهم وآجتمعَ الأُمراءُ الذين يُسمّون أنفسَهم « ملوكَ » الطوائف (لكُلِّ ملكٍ مدينةٌ أو مدينتانِ وبِضْعُ قُرًى) . ووَجَدَ المجتمعون أنْ لا مَحيدَ لهُمْ عنِ آلإِسْتنجادِ بيوسُفَ بْنِ تاشِفينَ أقوى مُلوكِ الإسلام في زمانِهم .

وفكَّرَ يوسُفُ بْنُ تاشِفينَ في هذا الأمرِ الواجب ، ولكنّه تذكَّرَ أيضاً أنّ مُلوكَ الطوائفِ في الأندلس مُتنافِرون مُتنابِذون يُحارِبُ بعضهُم بعضاً ، وأن المَلِكَ المُسلِمَ يُحاربُ المَلِكَ المسلمَ يُريدُ أنْ ينتزِعَ منه مدينةً أو قريةً أو حُصْناً . وكان كُلُّ خَصْمٍ من خَصْمَيْنِ - في مُعْظَمِ الأحيانِ - يتّفق مَعَ أحدِ مُلوكِ الإسبان النصارى على قتالِ المُسلمِ ثم يُعطيه في سبيلِ ذلك العَوْنِ الموهومِ بِضعةَ حُصونٍ من الحصون التي في يده . فيأخُذُ المَلِكُ الإسباني هذه الحصونَ مُقَدَّماً ، ثمّ إذا سَقطتِ المدينةُ المُتنازَعُ عليها بيْنَ المَلِكين المُسلمين لم تَسْقُط في يد أحدِهما ، بل في يد الإسباني .

وَجَدَ يوسُفُ بنُ تاشِفينَ أنّ آلإِسْتجابة لنداء المسلمين في الأندلس مُغامرةٌ ، ولكنّ تلك آلإِسْتجابةَ كانتْ فرضاً . وآحتياطاً لكُلِّ طارئٍ مُفاجئٍ طَلَبَ يوسُفُ بْنُ تاشِفينَ من أمراءِ المسلمين في الأندلس شيئين :

- أنْ تكونَ له القِيادةُ العُليا الفِعْلية على جُيوشه وعلى جُيوش الأندلسيّين .

- أن يتخلّى له أُمراءُ الأندلس ، طَوالَ مُدَّةِ الحرب ، عنِ الجزيرة الخَضْراءِ (في جَنوبيِّ الأندلس) .

وجاز يوسُفُ بنْ تاشِفينَ إلى الأندلس واسْتَعدّ للمعْرَكَةِ .

في ذلك الحين كان ألفونسو السادسُ ملكُ قَشطالةَ وأقوى ملوك النصارى في الأندلس يُحاصِرُ مدينةَ سَرَقُسْطَةَ يريد انتزاعها من يدِ أحمدَ المستعينِ التُجيبيِّ ، فَرَفَعَ الحِصار عنها وانحدرَ جَنوباً لِمُلاقاةِ يوسفَ بنِ تاشفينَ . ووصلَ الفونسو السادسُ إلى ميدانِ المعركة الذي كان يوسُفُ بن تاشِفينَ قدِ اختاره في الزلاّقة على مقْرُبةٍ من مدينةِ بَطَلْيَوْسَ عند مُنْتَصَفِ الحدودِ بينَ إسبانيةَ والبُرتغالَ اليومَ . وكان وُصولُه إلى هنالك يومَ الخميسِ في الحادي عَشَرَ من شَهْرِ رَمَضانَ من سَنَةِ ٤٧٩ ، والذي يُوافِقُهُ الثاني والعشرون منْ تشرين الأول من عامِ ١٠٨٦ للميلاد .

وأرسل ألفونسو إلى يوسف يقول :

غداً الجُمُعَةِ ، وهو عِيدٌ لكم . وبعد غدٍ السبتُ ، وهو عيدٌ لليهود . ثمّ بعدَهما الأحدُ ، وهو عيدٌ للنصارى . فَلْيَكُنْ لِقاؤنا يومَ الاثنين .

وأجابَ يوسُفُ بنُ تاشِفينَ بالقَبول ، ولكنّه اسْتَعَدّ للمَعْرَكةِ كما لو كانتِ المعركةُ سَتَنْشَبُ يومَ الخميس . وصَدَقَ ظَنُّ يوسُفَ في ألفونسو ، فإن ألفونسو أخْلف ما وَعَدَ وأنْشَبَ القتالَ صَباحَ يوم الجمعة .

وكذلك صَدَقَ ظَنّ يوسُفَ بنُ تاشِفينَ في أهلِ الأندلس ـ وكان قد جَعَلَهُمْ عند تَرْتيبِ المعركة في المُقَدّمةِ ، فلم يَتَقبّلوا ذلك بيُسْر ـ فما أنْ بدأتِ المعركَةُ ووَقَعَ ثِقْلُ الجيش الإسبانيّ عليهمْ حتّى بدأوا بالتّراجُع ، فردَّتْهم جيوشُ يوسُفَ بنِ تاشِفينَ إلى قلب المعركَة .

ثمّ بَدَتِ المُفاجأةُ الثانيةُ : إنّ يوسُفَ بنَ تاشِفينَ كان قد أحاط جيشَه بالإبِلِ التي كانت تُرغي فتُجْفِلُ منها خُيولُ الإسبان . وكذلك كان في أطراف جيشه جماعاتٌ من السودانيّين يَضْرِبون طُبولَهم فيَزيدَ ذلك في جُفول خيلِ الإسبان وفي جُفول الإسبان أنْفُسِهم .

وطالتِ المَعْرَكة حتى تَعِبَ الجانبانِ ، فَبَدَتْ حينئذٍ المفاجأة الثالثة : كان يوسُفُ بن تاشِفينَ قد أعَدَّ خَلْفَ تَلّةٍ قريبةٍ عَشْرَةَ آلافٍ من أنجادِ رِجالِهِ ما عَلِمَ بِهِمْ أهلُ الأندلس ولا عَلِمَ بهم جُنودُه هو . ودخل هؤلاء في المَعْرَكة وهم في ذِروةِ نَشاطِهم ، فآنهزَمَ الإسبانُ هزيمةً تامَّة ونجا ألفونسو السادسُ بنَفْسه جريحاً .

وبعدَ معرَكة الزلّاقةِ عادَ يوسُفُ بنُ تاشِفينَ إلى عاصمتِه مَرّاكُش وتَرَكَ لمُسلمي الأندلس جميعَ الغنائمِ التي كان قد حازَها مِن الإسبان ، كما تَرَكَ في الأندلس أيضاً أربعةَ آلافِ جُنديٍّ مَغْرِبيّ للدِفاع عنِ المسلمين . ولكنّ أمراء الأندلسِ عادوا إلى التنازُع وإلى آستنجاد بعضِهم على بعضٍ بِمُلوك الإسبان . فلم يكن ليوسُفَ بن تاشِفينَ بعدَ ذلك خِيَرةٌ في الأمر ، فعاد إلى الأندلس وقضى على جَميعِ الدُّويلاتِ التي فيها وأقام على الأندلس وُلاةً مِنْ عِندِه . **فمَدّ ذلك في عُمُرِ الإسلامِ في الأندلس مِائَة سَنَةٍ .**

وكان لمعرَكَة الزلّاقة أثرٌ آخَرُ :

إن البابويّة والدُّوَل الأوروبيّةَ كانتْ تُسانِدُ الإسبانَ على أرض الأندلس في حملة صليبيّة طاغية . غيرَ أن البابويّة والدول الأوروبيّة أدركتْ ، بعدَ معركة الزلّاقة ، أنه ما دامَ يوسُفُ بنُ تاشِفينَ في يَقَظَتِهِ تلك ، فلا سبيلَ إلى ضَيْمِ الإسلامِ في المغرب . وبعدَ معرَكة الزلّاقة بعَشْرِ سِنِينَ أعْلَنَ البابا أوربانوسُ الثاني الحربَ الصليبية على المشرق .

لِهذا العَرْضِ الطويلِ - وأرجو ألّا يكونَ مُمِلًّا - غايةٌ هي أنّ مُلوكَ الطوائف في الأندلس كانَ إسلامُهم سِياسِيًّا : كان إسلامُهم وسيلةً إلى الصِراع بينَ أنْفُسِهِمْ على بُقعة من الأرض ولو أضاعوا في ذلك الصِراعِ ما يَجِبُ في الكَرامة الإنسانية مِنَ الحَزْمِ والحقّ والعقل والشرف ومن الدِين نفسِه : ولوِ آستعانَ المَلِكُ المُسلمُ على أخيه المَلِكِ المُسلمِ بخَصْمِهما غيرِ المسلم . أمّا يوسُفُ بنُ تاشِفينَ فكانتْ سِياستُه إسلاميةً : كان يُريدُ أنْ يَخدِمَ الإسلامَ لا أن

يَسْتَخْدِمَهُ ، كان يُريدُ أن يَنْتَصِرَ الحقُّ لا أن ينتصرَ هُوَ على الحَقّ ، كان يريد أن يبيع عَرَضَ الحياة الدنيا في سبيل الإبقاء على مكانة الدولة الإسلامية .

* * *

كُنْتُ أُريدُ أن أقِفَ عندَ هذه الرائعةِ التاريخية . ولكنْ كأنّي بسُؤال يَطوفُ على شِفاه نَفَرٍ منكم وهو يُريدُ أنْ يقولَ : وأينَ صلاحُ الدين في هذه الصورة العظيمة ؟

لا بدّ ، إذَنْ ، مِنْ كَلِمَةٍ في صلاحِ الدين .

كان صلاحُ الدينِ شابًّا لمّا دخَلَ في جيشٍ بإمرةِ عَمّه ثمّ ذَهَبَ معَهُ إلى مِصْرَ . في ذلك الحينِ كان الإفْرِنجُ يُلِحُّونَ على المشرق الإسلاميّ من الشرقِ ومن الغَرْب . وكذلكَ كانتِ الدولةُ الفاطميّة دولةً فاطميةً بالاسم ، وكان بينَ وُزرائِها نفَرٌ لا صِلَةَ لهم بالإسلامِ من قريبٍ أو من بعيد . ومِنْ هؤلاء مَنْ كان يُفاوِضُ الصليبيّين مُباشَرَةً وغيرَ مُباشَرَةٍ للنَّيْلِ مِنَ الإسلام ومن المسلمين . وكان العِراق والشامُ مُقَسَّمِيْنِ دُوَيْلاتٍ ، كما كانتِ الاندلُس في أيام يوسُفَ بْنِ تاشِفينَ .

ولمّا بدأ صلاحُ الدين حُكمَه ، سَنَةَ ٥٦٤ للهجرة - ١١٦٨ للميلاد - ، وَقَفَ يُواجِهُ مَوْقِفَيْنِ : الصليبيّينَ الذين يُريدون تحطيمَ البلاد من الخارج ثمّ الدُويلاتِ التي تُمَزِّقُ البلادَ من الداخل ؛ فَبِعِلاجِ أيِّ الشَّرَّيْنِ يبدأ ؟ وحَزَمَ صلاحُ الدين أمرَه على أنْ يبدأ بِعِلاجِ الموقفِ الداخليّ ، فقضى على الدولة الفاطميّةِ ثمّ جعَلَ يقضي على الدُّويلاتِ الصغيرة . في تلك الحِقبة التي امتدتْ نحو عِشرينَ سَنَةً ، كان صلاحُ الدين في هُدنة مَعَ الصليبيّين ، أو في شِبه هُدنة . ويبدو أنّه لم يكُنْ يتعرّضُ للصليبيّين إلاّ إذا هم تعرّضوا له أو إذا رأى شرَّهم مُسْتَفْحِلاً في مكانٍ فوق ما تحتملُ سِياسةُ الحرب والسِلم . في هذه المُدّة الطويلةِ لا يُحَدِّثنا ابْنُ الأثير مُؤَرِّخُ الحروبِ الصليبية بِمَعاركَ من النِطاق الواسع .

وفي سَنَة ٥٨٣ ، وفي الشهرِ الرابعِ منها ـ أيْ بعدَ عِشرين عاماً من تولّيه الحُكْمَ ـ حاصر صلاحُ الدين مدينةَ طَبَرِيَّةَ في قلب السيطرة الصليبية وأستولى عليها في سِتَّةِ أيامٍ . فتجمَّعَ الصليبيّون من أطراف البلاد التي كانوا يُسَيْطرون عليها ثم أندفعوا نَحْوَ طَبَريّة . وهذا ما كان يُريده صَلاحُ الدين : أنْ يَلْقى الصليبيّين في معرَكة هُوَ آختارَ مكانَها وزمانَها .

كان صلاحُ الدين قدِ أستولى على طَبَرِيَّةَ في الثاني والعِشرين من شهرِ ربيعٍ الأوّلِ ثمّ وقف في سهلِ حِطّينَ ينتظرُ قُدومَ الصليبيّين . فوصَلَ الصليبيّون بعدَ خمسةَ عَشَرَ يوماً مُتعَبين بلا شكٍّ . وبدأ صلاح الدين تلك المعرَكة التي عيَّنَ هو مكانَها وزمانَها . وفي يَوْمَيْنِ من أيّامِ شهرِ تَموزَ الحارِّ قضى صلاحُ الدين على الجيش الصليبيّ : عِشرينَ ألْفَ جُندِيّ ، أو أربعينَ ألْفاً كما قِيل .

إنّ القِيمة العسكرية لمعرَكة حِطّينَ أنها خَلْخلَتِ القوّةَ الصليبية في بِلادنا وأبْطَلَتْ خُطَطَ الصليبيّين الحربية . ولم يتباطأْ صلاحُ الدين بعدَ هذا النصرِ العظيم لِيُقيم المِهْرجاناتِ ويفتَحَ قَصْرَهُ لِلإستقبالاتِ ويملأَ البلاد بالأُستعراضات ، ولم يُوَزِّعِ الأوْسمة على المُقرّبين ، ولا هو شَرِبَ أنخابَ الظفر في كُؤُوس من البلّور أوِ الذهب . . . بل قَسَمَ جيشه فِرَقاً نَشَرها في البِلاد تفتَحُ كلُّ فرقةٍ ما في المِنطقة التي عُيِّنَتْ لها من البُلدان .

وفي مَدى أرْبَعَةِ أشْهُرٍ فقطْ ـ وأرجو أن تُعيروني شيئاً من صبرِكم ـ فَتَحت هذه الفِرَقُ التي بَثَّها صلاحُ الدين في المناطق المختلفة بُلداناً هي : عكّاء ـ مجدليانا ـ الناصرة ـ قيسارية ـ حيفا ـ صفّورية ـ معليا ـ الشقيف ـ الفولة ـ سبسطية ـ نابلس ـ يافا ـ تِبنين ـ صيداء ـ بيروت ـ جبيل ـ عسقلان ـ الرملة ـ الداروم ـ غزّة ـ الخليل ـ يبني ـ بيت لحم ـ بيت جبريل ـ النظرون ، وغيرها وغيرها : ثمّ حاصر القدس .

وبدأ صلاح الدين حِصار القُدس في العِشرينَ من شهر رَجَبَ من سَنَةِ ٥٨٣ . وبعدَ أسبوعٍ واحدٍ ـ يومَ الجُمُعة في السابع والعِشرين من شهرِ رَجَبَ ـ

في يومِ المِعْراجِ - طلَبَ الإفْرنْجُ الصليبيّون الاْستسلامَ على شروط يَضَعُها صلاحُ الدين . وكان من تلك الشروط أن يدفَعَ الفِرِنْجيّ عَشْرَةَ دنانيرَ فِديةً ، وأن تدفعَ المرأةُ منهم خمسةَ دنانيرَ ويدفع الطِفْلُ دينارَيْنِ . أمّا مَنْ يَعْجِز عن دفع الفِدية فيُؤْخَذُ أسيراً .

ولكنّ صلاحَ الدين لمّا رأى نورَ الإسلام يتلألأ على المسجد الأقصى وعلى قُبّة الصخرةِ تضاءلتِ الدنانيرُ في عَيْنَيْهِ اللتين كانتا تدمَعان فرحاً فتساهَلَ في آستيفاء الفِدية حتّى إنه كان يَدفَعُ للفقراءِ من الإفرِنْج الصليبيّين مالاً يَستعينون به على الدهر .

إخواني جميعاً ،

إن الحديثَ طويلٌ ، والزمنَ لا يحتمل الإطالة بلا قيدٍ . وأعتقدُ أنّا رأينا في الأمثلةِ القليلةِ المتقدّمة أينَ تكونُ السياسةُ الإسلامية وأين يكونُ الإسلامُ السياسيّ : أيْ أينَ يكون العمل في سبيل مبدأ من المبادىء المثلى وأين يكون المبدأ مُتّكأً للتسلُّق إلى المآرب .

غيرَ أني لا أرى أنْ أغادِرَ مكاني هذا قبلَ أنْ أسْرُدَ مَثَلاً آخَرَ في سَطْرين بعدَ أنْ أُقدِّمَهما بِسَطْرين آخرَيْن :

كان السلطانُ قَلاوُونَ مَلِكاً صالحاً وشُجاعاً مُظفّراً منصوراً . وقد بنى بيمارِستاناً ، أيْ مُستشفىً كبيراً . ولكنّه كان من المماليك الذين يسُبّهم نفرٌ من المؤرّخين منّا ومن غيرنا . إن المماليك - في رأي هؤلاء النفَرِ - كانوا عبيداً ثمّ أصبحوا مُلوكاً . وهذا لا يجوزُ في مذهب الفخر الفارغ . ما لنا ولهذا أيضاً . فإلَيْكُمُ الآنَ السطرَيْنِ المقصودين :

مَرِضَ قَلاوونُ هذا فَوَصَفَ له الأطباءُ أدْوِيَةً وأغْذِيَةً لم تكنْ موجودةً في قَصْره ، فأشاروا عليه بأنْ ينتقلَ إلى المستشفى - إلى المستشفى الذي كان هُوَ قد بناه - فإن مثلَ هذه الأغذيةِ والأدويةِ موجودةٌ فيه . وكانَ هذا المُستشفى للناس - لعامّةِ الناس - يَدْخلونه لِلإْستشفاء مجّاناً .

حديث رمضان

النبي والفيلسوف(*)

كثيراً ما يَطولُ الجِدال حولَ العِلم والدين ، ويقول في ذلك الذين يعلمون والذين لا يعلمون . ويظنُّ نفرٌ من الفقهاء أنّ آختلاف الدين والعلم نقصٌ في العلم ، ويزعُمُ نفرٌ من « المتثقفين » أنه تقصيرٌ من الدين . ثم يعلو في ذلك الصخَب فلا تسمع إلاّ أقوالَ أصحابِ الحُنجرة من الفريقين . أمّا أصحاب الآراء الهادئة فلا تظهَرُ آثارهم إلاّ بعدَ آنتهاءِ المعركة فيتناولُها أصحابُ الحُنجرة ويأخذون في الصِياح بها على رؤوسِ الناس ، كما يُريدونها وكما يفهمونها ، أو كما يُريدون أن يفهموها . فتختلط حينئذ الأصوات ويضيعُ الحق ، ثم يَرْجِعُ الصخبُ من جديد .

فهل يسمَحُ لي القُرّاء أنْ أعرِضَ أمامهم رأياً لفيلسوفٍ من أكبر فلاسفةِ الإسلام ، أو هُوَ أكبرُ الفلاسفة على الإطلاق ؟ ذلك الفيلسوف هو آبنُ رُشْدٍ الأندلسيّ . لما وصَلَ ابنُ رشدٍ إلى الكلام على الدين والعلم وأتى إلى الأنبياء والرُسلِ قال : « وأصدقُ كُلِّ قَضيّة أنّ كُلَّ نبيٍّ فيلسوفٌ وليسَ كلُّ فيلسوفٍ نَبِيّاً ! » .

يرى آبنُ رشدٍ أن الفيلسوفَ يهتم للحقيقةِ الخالصةِ المُطلقة لأنّ غايتَه إنما هي « الحقيقة » في نفسِها ، ويَصْرِفُ النظرَ عن أوضاعِ المجتمع وأحوال الناس ويعيشُ من تفكيره في عالَمٍ خاصٍّ به وبأنداده من الفلاسفة . والفيلسوف عندَ

(*) نشر هذا الحديث في جريدة « بيروت » (بيروت ـ الأربعاء ، خامس رمضان ١٣٦١ هـ = ١٦ /٩/ ١٩٤٢ م) .

آبْنِ رُشدٍ لا يُنكر الدينَ ولا يتجاهلُ وجودَ البشرَ ، ولكنّه لا يتصدّى للقول في الدين عَلَناً ولا يتعرض لأحوالِ الناس .

ويرى ابنُ رُشْدٍ أنَّ الله يُرسِلُ الأنبياءَ إلى البشر ليهدوهم إلى ما فيه صَلاحُ دِينهم ودُنياهم . فَمَهَمّةُ النبيّ ، إذَنْ ، غير مَهمّة الفيلسوف . إن مهمّة الفلاسفةِ فرديّة محدودة ، أمّا مهمة الأنبياء فعامة شاملة . ولو أننا رجعنا إلى القرآنِ الكريمِ لقرأنا فيه هذه الآية : ﴿ **الله أعلمُ حيثُ يجعَلُ رسالته** ﴾ ؛ فالله سُبحانَه وتعالى ، إذَنْ لا يبعَثُ رسولاً إلاّ إذا كان أهلاً للرسالة وموضعاً لها ، وإلا إذا كان له من الصفات ما يرفَعُه فوق أمثاله من الناس : ﴿ **قلْ إنما أنا بَشَرٌ مِثلُكُمْ يُوحى إليّ أنما إلَهُكم إلَهٌ واحدٌ ، فمن كان يرجو لِقاءَ رَبّهِ فَلْيَعْمَلْ عملاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بعِبادة ربّهِ أحداً** ﴾ .

فالنبيّ عند آبنِ رُشدٍ فيلسوفٌ كامِلٌ في مبدأ الأمر ، ولكنه يزيدُ على الفيلسوفِ في أمرينِ أحَدُهما أن الله تَعالى يختارُه لِأداءِ رِسالة ما ، وثانيهُما أنه مأمورٌ بتبليغ هذه الرسالةِ إلى الناس .

ثم يرتفعُ مَقامُ النُبوّة إلى مَقام الرسالة ، فإنّ كُلَّ رسولٍ نبيٌّ ، وليسَ كُلُّ نبيٍّ رسولاً . ومَهَمّة الرسولِ أنْ يبَلّغَ رسالة ربه وأن يَحْمِلَ الناسَ على قَبولِها بكُلّ سبيلٍ ، فقد قال محمدٌ ﷺ : « أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا : لا إلّهَ إلاّ اللّهُ » . ومَهمّةُ الرسول أيضاً أن يضعَ للناسِ شرائِعَهم وأُصولَ تعايُشِهِمْ ثم يُقَيّد أعمالَهم بأوامرَ ونواهٍ فيها خيرٌ لهم ويَحْمِلُهم بكل سبيل على أن يعملوا بها . فالغاية الأساسية من النبوة ، إذن ، أنْ تُقيم للناس « وازعاً آجتماعياً يرمي إلى صلاح أمرِ الناس في الدنيا والآخرة.أمّا الناحيةُ الفلسفية في الدين فليستْ من شأن الناسِ كُلِّهِمْ : ﴿ **يَسْألونَك عنِ الروح ، قُلِ الروحُ من أمر ربي وما أُوتِيتُمْ مِنَ العلم إلاّ قليلاً !** ﴾ .

ثم إن الرسولَ لا يُفضي للناس مما يعلَمُه إلاّ بالشيء الضَّروريِّ لصلاحِ أمرِهم بينَما الفيلسوفُ مُجْبَرٌ على أنْ يصرِّحَ بالحقيقة كُلِّها . ولمثلِ هذا قال عليٌّ كرّم اللّهُ وجهَه : « خاطبوا الناسَ على قَدْرِ عُقولِهم . أتُحِبّون أنْ يُكَذّبَ اللّهُ ورسولُه ؟ » .

في ذكرى المولد(*)

بَــزَغَ النورُ على غــارِ جِــراءْ   فــتَنــادى بــالــنبــيِّ الـبُـشَــراءْ .
ومضى جِـبـريـلُ في مِعْــراجِــهِ   مِثْلما أُطْلِقَ في الليلِ الضِياءْ .
ورسولُ   الله   فــي   آلائِــه   عِصمـةَ الدين وكَهْفَ الأتقيـاء .
شــرَفٌ لـم يحـلُمِ التـاجُ بـه   وعُــلاً قصّــر عنــه النُّجبــاءْ ؛
فــعـلى مـكّــةَ منــه قــبَسٌ ،   وعـلى يَثْـرِبَ خفّــاقُ اللواءْ .
لا تُـطِلْ في مـدحِـهِ مُجتهـداً ،   كـلُّ مدحٍ جـاوزَ الحدَّ رِيـاء .
إنّ مــن أثـنــى عــليــه ربُّــه   لَـغَنِـيٌّ عن ثـنــاءِ الـشُعــراء .

* *

ولـنــا فــي عَــزمِــه مُــعْـجِـزةٌ   يهتـدي الدهـرُ بها والعُـظمـاءْ .
سلَكَ الجـربَ سبيــلاً للهُــدى   يومَ لم يبقَ سوى الحربِ دواء .
وإذا مـا الحـربُ أبْـدَتْ نـابَهـا   ذاتَ يومٍ لا تكُنْ في الضُعفاء .
أيُّ أرضٍ صــانتِ آستقـلالَهــا   لم تُخضَّبْ كُلَّ يومٍ بـالدِمـاء !

في التاريخ مظاهرُ لا تجري فيها المُوازنةُ والمقارنةُ إلاّ على التشبيهِ والآستعارة ، ثمّ لا تكونُ هذه المقارنةُ ولا تلك الموازنةُ صحيحتَيْنِ جِدّاً ولا قريبتَيْنِ جِدّاً ؛ ذلك لأنّ في التاريخ أيضاً آحاداً من المظاهِرِ لا تُعيد نفسَها كما تعودُ أحداثُ التاريخ العاديّةُ في الحياة مرّةً بعدَ مرّة ، بأسبابِها المُتماثلةِ ، على كَثْرةٍ أو على قِلّةٍ .

(*) كتبت ٨ / ٤ / ٧٤ وألقيت في تاسع ربيع الأوّل ١٣٩٤ هـ (لذكر المولد) = ١١ / ٤ / ٧٤ في احتفال في جامعة بيروت العربية .

والإسلامُ حركةٌ آجتماعيةٌ واسعةٌ لا نَجِدُ حركةً مُوازيةً لها في التاريخ الإنساني كُلِّهِ . إنّ الإسلامَ ليس فلسفةً نَظَرِيةً ينطوي بها الإنسانُ على نفسِه مقطوعاً عن كلّ ما حولَه ؛ ولا هو دينٌ قوميٌّ محليّ لا يدخُل فيه إلاّ جماعةٌ ظَنّتْ أنّ الوجودَ كُلَّه وجودُها هِيَ ، وأنّ البشرَ كُلَّهم أفرادُها وحدَهم وأن سائرَ الناسِ هَمَجٌ لا يدخُلون في نِطاق الإنسانية . ثمّ ليسَ الإسلامُ مذهباً عجَز عن مُعالجة الحياة من أوجُهِها المتعدّدة فقصَرَ همَّه على جانبٍ واحدٍ منها : تَهُمُّه التقوى ولا يَهُمُّه العِلمُ ، يُعنى بالفرد ولا يأبَهُ بالمجموع ، أو يَطْمَئِنّ للسِلم ولا يتعرّضُ للحربِ ، أو تَشْغَلُه الجماعةُ القليلة فلا يُجِيلُ رأياً في الأُسْرة أو في الدولة .

ومحمّدٌ ﷺ ليس نَبِيّاً من الأنبياءِ بُعِثَ إلى قومِهِ وحدَهم أو إلى أهلِ زمانِه فقطْ ، ولكنّه رسولٌ للإنسانيةِ جمعاءَ في أُمَمِها وأقطارِها وأزمانِها . أمّا شريعتُه فقدْ نَسَخَتْ جميعَ الشرائع .

ويسألُ نفَرٌ من الناس ـ من المستشرقين ومن أنصارِ المستشرقين عادةً ـ : لماذا نَسَخَ الإسلامُ جميعَ الشرائع ؟ ولماذا يكونُ محمّدٌ آخِرَ الأنبياء ؟

إنّ جوابَ التاريخ على ذلك واضحٌ فاصل . وأعْني بالتاريخ التاريخَ الذي هو فلسفةٌ ووصفٌ لتطوّرِ الحضارة لا التاريخَ الذي هو تأليفٌ من عمَلِ الرَّغَبات والنَّزَوات وحِكاياتٌ مكْرورةٌ من بناتِ الخَيال ومَطارِحِ الأهواء . إنّ الدينَ وَحْيٌ من الله ، وهُوَ بهذا المعنى واحدٌ . وليسَ في العقل أن يوحيَ اللّهُ إلى البشر أدْياناً مختلفةً مُتناقضةً كتلك التي نألَفُها في العالم اليومَ . من أجلِ ذلك نقولُ : ليسَ ثمّةَ أديانٌ مُتعدّدةٌ مختلفةٌ ، ولكنّ ثمّةَ ديناً واحداً أُوحِيَ إلى البَشَرِ مرّةً بعدَ مرّة .

كان الدينُ منذ المرّةِ الأولى التي أُوحِيَ فيها صحيحاً قويماً . ثمّ مضَتْ فترةٌ جَهِلَ الناسُ في أثنائها حَقائقَ الحياة لِمَا رُكِّبَ في طِباعِ الناس من القُصور ولِما آعْتَوَرَ أحوالَهَا من الجهل فضلّوا عن سَواءِ السبيل . عندَئِذٍ أوْحى اللّهُ تعالى هذا الدينَ الأوّلَ مرّةً ثانيةً لِيَرُدَّ الناسَ إلى طريقِ الهُدى لا لِيُلْقِيَ إليهم بدينٍ

جديدٍ مختلفٍ من الدين الأوّل . ثمّ جاءتْ فترةٌ ثانيةٌ آنحرفَ أهلُها عن الدين أيضاً فأرسلَ اللّهُ إلى البشر نبيّاً ثالثاً ليَرُدَّهُمْ مرّةً ثانية إلى الدينِ الصحيح الصافي . ثمّ إنّ ذلك توالى مِراراً لا نَعْلَمُ عددَها ؛ قال اللّهُ تعالى يُخاطِبُ محمّداً ﷺ (٤٠ : ٧٧ ، سور المؤمن) : ﴿ **ولقدْ أرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ ومِنْهُمْ مَنْ لم نَقْصُصْ عليك . وما كانَ لِرسولٍ أنْ يأتِيَ بآيةٍ إلّا بإذنِ اللّهِ . فإذا جاء أمرُ الله قُضِيَ بالحـقّ وخَسِرَ هنالك المُبْطِلون** ﴾ .

في تلك الأثناءِ من الفَتَرات بَيْنَ الرُسُل كانتِ الحضارةُ الإنسانيةُ تتطوّرُ ، وكان العقلُ الإنساني يَرْجحُ ، وكان عددُ العاقلين في الناسِ يزيدُ . ولقد كان البشرُ في مجموعِهم ـ في أوّلِ الأمر ـ يحتاجون إلى تلقينٍ كثيرٍ فَنَشأ في تلك الفَتَرات المختلفةِ طَبَقاتٌ من الكَهَنة تُعَلِّمُ الناسَ كلَّ شيءٍ وتَفْرِضُ عليهم أساليبَ السلوكِ في كلِّ شيء .

ثمّ لمّا بدأتِ الحضارة تتّسِعُ كان الدينُ في كلِّ مرّةٍ يُوحَى به فيها إلى الناس يتّسعُ بآتّساعِ الحضارة وبآتّساع مَدارِك البشر ـ آتساعاً في المِقدارِ والتفاصيل لا مِنْ حيثُ الصِّحّةُ والمبادىءُ . وكان أولئك الكَهَنَةُ في الأعمِّ الأغلب قدِ آسْتَعْلَوْا على الناس وأنْزلوا أنفُسَهم مَنزِلةَ الأنبياء ثمّ حجروا على عقولِ أتباعهم ، وبدّلَ نَفَرٌ منهم في الدين ما بدّلوا وفسّروا فيه بأهوائهم ما فسّروا .

* * *

عند هذا المُنْحنى في تاريخ الإنسانية جاء الإسلام ، والناسُ يومذَاكَ طَبَقاتٌ في مَعارجِ الحضارة وفي المدارِك العَقْلية . ولقدْ تنبّه الفيلسوفُ العظيمُ آبْنُ رُشْدٍ لهذه الحقيقة ولِصِلَتِها الوثيقةِ بالدين . وإذا نحن قُلْنا : « آبْنُ رُشْدٍ » ، فإنّنا نَعْني ذلك الأسم الذي يُطْلَقُ على الفيلسوفِ الأكبرِ في تاريخِ الفكرِ بعدَ أرسطو وعلى أعظمِ الفلاسفة كُلِّهِمُ أثراً في تطوير الفكرِ الإنساني .

قد يبدو هذا الحكمُ الباتُّ لِنَفرٍ من الناس جارفاً ، ولكنّه ليس كذلك .

ذلك لأنَّ التفكيرَ في العصور الوسطى ، في الغَرْب خاصّة ، قد قام على فلسفةِ أرسطو ؛ وكان العقلُ الأوروبّيّ في العصور الوسطى ، قد خَضَع لكتابَيْنِ خُضوعاً تامّاً في كلِّ شيء : للتوراةِ ولفلسفةِ أرسطو . غيرَ أنّ كُتُبَ أرسطو لم تكُنْ تُفْهَمُ في الغَرْب الأوروبّيّ إلاّ من خِلال الشروح التي كان آبْنُ رُشْدٍ العَرَبِيُّ المُسلمُ قد وَضَعها على تلك الكتب . حتّى إن كُلَّ شَرْحٍ على كتابٍ من كُتُبِ آبْنِ رشد كان يُطْبَعُ معَ ذلك الكتابِ في مُجَلّدٍ واحد .

وسادتْ فلسفةُ آبنِ رُشْدٍ في أوروبّةَ سِيادةً مُطلقةً أربعةَ قرونٍ مُتواليةً عُرِفَ التفكيرُ في أثنائها باسم « المذهبِ الرُّشْديّ » : قرنَيْنِ كاملَيْنِ آعْتَنَقَ المفكّرون الغربيّون الفلسفةَ الرشدية ، ثمّ قرنَيْنِ كاملَيْنِ كانتِ الكنيسةُ في أثنائهما تعمَلُ على مُقاومةِ الفلسفةِ الرشديّة لأنّ تلك الفلسفةَ كانتْ قد فكّتْ عِقالَ الفِكرِ الأوروبيّ فأزاحتْ عنه عِبءَ التوراةِ الموجودةِ بأيْدي الناسِ وحَرّرتْه من الطُغيان على الفكرِ الإنسانيّ . ثمّ إنّ فلسفةَ آبنِ رُشْدٍ قد عَلّمتِ الفِكرَ الأوروبيّ أن يُجيلَ الرأي في فلسفةِ أرسطو نفسِها .

* * *

وعُنِيَ آبنُ رُشْدٍ بالصِلَةِ بين العقل والدين وبمكانةِ الإسلام في الأديان الموروثة فقال في كتابه « فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من الاتّصال » :

« إنّ طباعَ الناس متفاوتةٌ في التصديق : فَمِنَ الناسِ من يصدِّقُ بالبُرهان ، ومنهم من يُصدّقُ بالأقاويل الجَدَلية ، ومنهم من يصدّقُ بالأقاويل الخَطابية . ولمّا كانتْ شريعتُنا هذه الإلّهيّةُ قد دَعَتِ الناسَ من هذه الطُّرُقِ الثلاثِ عَمّ التصديقُ بها كُلَّ إنسانٍ إلاّ مَنْ جَحَدها عِناداً بلسانه . وإذْ كانتْ هذه الشريعةُ حقّاً وداعيةً إلى النظر المُؤدّي إلى معرفةِ الحقّ ، فإنّنا ـ معشرَ المسلمين ـ نعلَمُ على القَطْع أنّ النظر البُرهانيّ لا يؤدّي إلى مخالفة ما وَرَدَ في الشرع ، فإنّ الحقَّ لا يُضادُّ الحقَّ بل يُوافِقُه ويشهَد له » .

وبما أنّ الإسلامَ قد قَدَرَ في الإنسانِ إنسانيّتَه حقَّ قَدْرِها فقد خاطبَ العقلَ الإنسانيَّ الذي كان قد بَلَغَ مَعْرَجاً رفيعاً من معارج الرُّقيّ يومَذاك ثمّ حثّه على النظر في كُلِّ شيءٍ في نِطاقِ العالم الطبيعي وفي نِطاق العالم العقليّ . وبهذا النظرِ أصبحَ العقلُ الإنسانيُّ مُكَلَّفاً بمعرفةِ الحقّ . وفي هذا الاُستشراف الساميّ يقولُ ٱبْنُ رُشْدٍ في موقف الإسلام من العقل :

« فأمّا أن الشَّرْعَ قد دعا إلى ٱعتبارِ الموجوداتِ بالعقل وتطلَّبَ معرفتَها به فبَيِّنٌ في غيرِ ما آيةٍ من كتابِ الله تباركَ وتعالى ، مِثْلَ قوله تعالى : ﴿ **فٱعْتَبِروا ، يا أُولي الأبصار** ﴾ . وهذا نصّ على وُجوبِ ٱستعمال القِياس العقليّ أوْ ٱستعمالِ القياسِ العقلي والقياسِ الشرعي معاً .

فلمّا بَلَغَ جانبٌ من البشر هذا المُستوى الرفيعَ من العقل ثمّ حَمّلَ العقلاءَ تَبِعاتِهِمْ كُلَّها نحو أنفُسِهم ونحو الآخرين في جميعِ طَبَقات البشر ٱنْتَقَل قَبَسٌ من نُورِ النُّبُوّة إلى عُقلاءِ النوع الإنساني ، فإذا العُلماءُ وَرَثَةُ الأنبياء ، وإذا هؤلاء العُلماءُ مسؤولون عمّن دونَهم في العلم ؛ ففي الأثر : « إنّ اللّهَ ما أخَذَ على الجُهّالِ أنْ يَتعلّموا حتّى أخذَ على العُلماء أن يعلّموا » .

بهذا المعنى من رُقِيِّ العقل وحَمْلِ عُقلاءِ النوع الإنسانيّ لُلتَّبِعَة كُلِّها في الحياة الإنسانية ومن كَمالِ الشريعة الإسلامية في مُعالجة قضايا الحياةِ بجميعِ وُجوهِها لم يَبْقَ حاجةٌ إلى أن يكونَ بعدَ محمّدٍ ﷺ نبيٌّ آخَرُ ، فكان محمّدٌ خاتَمَ الأنبياءِ والمُرسلين .

غيرَ أنّ العقل الإنسانيَّ لا يستطيعُ أن يَصِلَ إلى الكَمال المُطْلق . من أجلِ ذلك ٱحتاطَ الإسلامُ لِمَا يُمْكن أن ينشأ في فَتَراتِ التاريخ التالية للدعوة الإسلامية فجعلَ على العلماء رقيباً من أنفُسِهم على أنفُسِهم بينَ الحينِ والحين ؛ ففي الحديث الشريف : « إنّ اللّهَ يبعَثُ لهذه الأُمّةِ على رأسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يجدّدُ لها دينَها » .

ولقد مرّ أربعةَ عَشَرَ قرناً أو تزيدُ من التاريخ نهض في أثنائها مُجدّدون

كثيرون ومُجتهدون أكثرُ عدداً يقومون بالإصلاح في شُعوبهم وأقطارهم وأزمانهم كيلا يُتْرَكَ البشرُ بلا راعٍ في أمورِ دينهم وأمورِ دُنياهم . ولقد فرّقَ الإمامُ الغزّاليّ بين الهُداة مِنَ الأنبياء والهداةِ من العُلماء حينما تكلّم على الفَرْقِ بين الوحْيِ والإلهام .

* * *

إنّ الأنبياءَ قبلَ مُحمّدٍ ﷺ كانوا مُعَلِّمينَ للناس فقط يأخُذون بأيدي أتْباعهم في طريقِ الحياة من غيرِ أن يستطيعَ أولئك الأتباعُ أن يهتدوا بأنفُسِهم سبيلاً . وهذا بيّنٌ في آياتٍ كثيرة من كتابِ الله نقتصر منها على آيةٍ واحدة . ففي القرآن الكريم (٥ : ١٧٧ ، المائدة) : ﴿ **وإذْ قالَ الله : يا عيسى بْنَ مريَمَ ، أأنت قلتَ للناس : اتّخِذوني وأمِّيَ إلَهَيْنِ من دونِ الله ؟ قال : سُبحانَكَ ، ما يكونُ لي أنْ أقولَ ما ليس لي بحقّ . إنْ كُنْتُ قُلتُه فقد عَلِمْتَهُ : تعلَمُ ما في نفسي ، ولا أعلَمُ ما في نَفْسِكَ ؛ إنّك أنتَ علاّمُ الغُيوب * ما قُلتُ لهم إلاّ ما أمَرْتَنِي به : أنِ اعْبُدوا اللّهَ ربّي وربّكم . وكنتُ عَلَيْهِمْ شهيداً ما دُمْتُ فيهم . فلمّا تَوَفَّيْتَني كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم . وأنتَ على كُلِّ شيءٍ شهيد** ﴾ .

أمّا محمّدٌ فلم يكن معلّماً فقط ، بل كان مُعلّماً ومُربّياً ومُنْشّئاً . لقد دَفَعَ البشرَ بالإسلام في سبيلِ التطوّرِ الصاعدِ حتّى يستطيعَ البشرُ أنفُسُهم أنْ يسيروا بأنفُسِهم في طريق الحياة والهُدى . لقد وضعَ الإسلامُ في يدِ المسلمين الأُسُسَ الصحيحة والمبادىء الرئيسةَ مقاييسَ لأوجُهِ الحياة الإنسانية ، فعلى الناس أنفُسِهم أن يستخدموا هذه المقاييسَ الموضوعةَ في أيديهم للسلوك في سُبُلِ الحياة بحَسْبِ الأحوالِ المُحيطة بهم والحاجات الطارئة في بِيئاتهم . من أجل ذلك كان الإسلامُ صالحاً لكُلِّ زمانٍ ومكان !

٨ / ٤ / ٧٤

ليوم الجمعة في ١٢ ربيع الأوّل ١٣٩٩
معنى الاحتفال بمولد رسول الله(*)

يبدو أن آلِاحتفال بمولد رسول الله محمّدٍ ﷺ بِدْعةٌ حديثةٌ في الإسلام . ولعلّ الدولةَ الفاطمية بِمِصْرَ كانتْ صاحبةَ هذه البِدْعة في القرنِ الرابع للهِجرة (العاشر للميلاد) . ومعَ أن هذا آلِاحتفال بدعةٌ، فإنّه يمكن أن يكون بدعةً حسنة .

أمّا في بيروتَ فالذي أعلمه أن مثلَ هذا الاحتفال قد بدأ منذ سبعين سَنَةً ، ولكنّه آكتسبَ معنىً سياسيّاً في أثناء الانتدابِ الفرنسيّ على سوريةَ ولبنانَ ، معنىً سياسيّاً غايتُه أن يُوَحِّدَ صفوفَ المسلمين في وَجْهِ عددٍ من المنافسات المحلّية . والذي أعتقده أن مثلَ هذه الحال نشأتْ في العِراق وفي مِصْرَ وفي الهِند أيضاً . ففي البلاد الإسلامية وفي البلاد غيرِ الإسلامية من تلك التي يسكُنُها مسلمون كان المولدُ مناسبةً لِاجتماعات شعبية ، مناسبةً لعلّها لا تختلف كثيراً من الأعياد الدينية والقومية والتي تدور مَعَ الأسف على لُبْسِ الثياب الجديدة وآلتهامِ المآكلِ العديدة وآلِاختيال في الأصواتِ والأضواء والألوان والأزياء .

ولكن منذُ عهدٍ قريبٍ بدأ تنظيمُ آلِاحتفال بالمولد النبويّ الشريف ، ذلك الحادثِ التاريخيّ العظيم في حياة الإنسانية . فأخَذَ عددٌ من المؤسّسات العلمية يُقيم الحَفَلات لذكرى المولد . تلك المؤسّساتُ لم تكُنِ المؤسّساتِ الإسلاميةَ وحدَها ، بل شارَكها في ذلك مؤسّساتٌ غير إسلاميةٍ أيضاً كالجامعة

(*) كتبت هذه الكلمة في تاسع ربيع الأوّل ١٣٩٩ هـ (٨ / ٢ / ١٩٧٩ م) وألقيت في يوم الجمعة في ثاني عشر ربيع الأوّل سنة ١٣٩٩ هـ (١٠ / ٢ / ١٩٧٩ م) .

الأميركية مثلاً فقد عُقد فيها آجتماعاتٌ خاصةٌ قاصرةٌ على جماعةٍ صغيرة ، كما عُقِدَ فيها آجتماعاتٌ عامّةٌ دُعِيَ إليها الناسُ دعوةً واسعة . وكنت قد تكلّمت في هذه النوعين من آلإِجتماعات .

لا أرى أن يَقِفَ أحدٌ منّا موقفاً مُضادّاً للطابعِ الشعبي الذي يسودُ أحياناً عدداً من أوجُهِ آلإِحتفالِ بالمولدِ الشريف ، فإنّ هذا الطابَعَ الشعبيَّ أساسيٌّ وضروريٌّ أيضاً ، ذلك لأنّ جُهودَنا في سبيلِ تثقيف مجموعِ الشعب في بلادِنا الإسلاميةِ المختلفةِ المواقعِ لا يُمْكِنُ أن تُثْمِرَ إلاّ من خِلالِ هذا الطابَعِ الشعبي في كلّ عيد . إنّ مجموعَ الشعب لا يستطيعُ أن يتخيّلُ عيداً ولا آحتفالاً بِعيدٍ إلاّ مُتّصلاً بشيء من الفَرَحِ المادّيّ .

من أجل ذلك كان الواجبَ علينا اليومَ أنْ ننظُرَ في الوسيلة التي نستطيعُ بها أن نرقى بِفَهْمِ الناس من ذلك المستوى الفِطريّ للفَرَح في يومِ العيد إلى مستوى الفهم المثقّف للمَعْنى الصحيح لِلإِحتفالِ بِمَوْلِدِ رسولِ الله . غيرَ أنّني لا أستطيعُ أنْ ألومَ عوامَّ الناسِ إذا هم لم يستطيعوا أن يُدركوا حقيقةَ هذا العيد العظيم ثمّ رأيتُهم يتمسّكون بقُشورٍ من العادات يقومون بها في كلّ عيدٍ آخَرَ : طعاماً وشَراباً وإطلاقاً للنار في الجوّ وتزييناً للجُدرانِ بالأوراق المُلوّنة ، ما دام هذا العيدُ نفسُه مرتبطاً عند رجالِ السِياسية بتلك المظاهرِ السياسية وبتلك المصالحِ السياسيّة في هذا البلدِ وفي كُلِّ بلدٍ آخَرَ . إنّ هذا العيدَ عند جانبٍ من هؤلاء مناسبة للتصريحات السياسيّة وللدِعاية السياسية . ثمّ ليستِ الحالُ عند جانبٍ من القادة الدينيّين بأحسنَ منها عند أولئك النفَرِ من رجال السياسة . فحينما تُتلى سِيرةُ الرسولِ ﷺ أو حينما يُذْكَرُ آسمُ الرسولِ في عدد من المحافل الخاصّة وفي المحافل العامّة ، فإنّ هؤلاء يَنْسِبون إلى الرسولِ من الصِفات ومن الأعمال ما لم يَرِدْ له ذِكْرٌ في القرآن الكريم ولا في الحديث الصحيح . إنّ هؤلاء قد غفَلوا عن أنّ محمّداً قد فضّله اللّهُ تعالى على جميع البشر بالرسالة وبالخُلُق العظيم وبطاعة الله . من أجل ذلك جاء في القرآنِ الكريم عن رسول الله : ﴿ **قل : إنّما أنا بشرٌ مِثْلُكم يُوحى إليَّ أنّما إلَهُكُمْ إلَهٌ**

واحدٌ . **فَمَنْ كان يرجو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بِعِبادةِ ربِّهِ أحداً** ﴾ . وجاء في القرآن الكريم أيضاً : ﴿ **وإنَّك لَعَلى خُلُقٍ عظيم** ﴾ .

أمّا في الخصائص الإنسانية فإنّ محمّداً ﷺ لم يكُنْ يختَلِفُ من كُلِّ إنسانٍ آخَرَ في وِلادته وفي حياتِه وفي موتِه . فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ **وما مُحمّدٌ إلاّ رسولٌ قد خَلَتْ من قبلهِ الرسل . أفإنْ ماتَ أوْ قُتِلَ انقلَبْتُمْ على أعقابِكُم ؟ ومَنْ يَنْقلِبْ على عَقِبَيْهِ فلن يَضُرَّ اللَّهَ شيئاً ، وسَيَجْزي اللَّهُ الشاكرين** ﴾ .

ويبدو أيضاً أن نفراً من الذين كانوا صحابةً لمحمّد ﷺ قد مالوا إلى شيء من نِسبةِ الأعمالِ العظيمة للفرد لا للإرادة الإلّهية فأوْحى الله تعالى إلى نَبِيِّه ما يُصَحِّحُ لهم رأيَهم .

في السَّنَةِ الثانيةِ للهجرة (٦٢٤ م) خاض المسلمون معركَةَ بَدْرٍ وانتصروا فيها انتصاراً باهراً لم يكُنْ مُنتَظراً في ذلك الزمن من فِئَةٍ قليلةٍ محصورةٍ في مدينةٍ واحدةٍ وهي تَقِفُ في وجهِ فِئاتٍ كثيرةٍ غنيّة تناصرها دُوَلٌ قويّةٌ من بلاد الروم وبلادِ فارسَ وبلادِ الحَبَشة .

ودخل إلى نفوسِ المجاهدين المسلمين شيءٌ من الإعجاب بالنَفْس بما فعلوا هُم وبما قام به رسولُ الله . فخاطَب الله تعالى أولئك المسلمين المجاهدين ثمّ التفتَ إلى خِطاب رسولِهِ، إذْ أراد اللَّهُ أن يعلّمَ المسلمين المَنْصورين درساً في معاني الظَّفَر ، فجاء في القرآنِ الكريم :

﴿ **فلمْ تقتُلوهم ، ولكنّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ . وما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ، ولكنّ اللَّهَ رمى . ولِيَبْلُوَ المؤمنين منه بلاءً حسناً** ﴾ .

تفسير الآية الكريمة : إنّ هذا الظفرَ الذي جرى في تلك المعركةِ على أيديكم لم يكن بفَضْلِ تدبيرِكم ولا بِعِظَمِ قُوّتكم أنتُمْ ، ولكنّ اللَّهَ مَكّنَكُمْ منه حتّى يكونَ ذلك لكم درساً من الله في قواعدِ الحربِ وحتّى تَعْلَموا أنّ للَّهِ عليكُم فضلاً في ذلك .

غيرَ أنّه كان لظهورِ الإسلامِ مُعجِزاتٌ كِبارٌ خارقةٌ للعادة في المجتمع الإنساني، منها القرآنُ الكريم.

القرآن الكريم كلامُ الله، وهو مجموع ما نَزَلَ على محمّدٍ رسول الله من الوَحْي. كانت آياتُ القرآن تُدَوَّنُ ساعةَ نُزولِها على رسول الله، ولكنّها جُمعت كُلُّها في مُصْحَفٍ واحدٍ في أيامِ الخليفة أبي بكرٍ بعدَ وفاةِ الرسول بعامٍ أو بعض عامٍ. ولقد بَقِيَ القرآنُ الكريم محفوظاً إلى اليومِ سُورةً سورةً وآيةً آية وكَلِمةً كلِمةً وحَرْفاً حَرْفاً. فنحن نقرَأ آياتِ القرآن اليومَ كما كان يتلوها رسولُ الله على صحابتِهِ بلا آختلافٍ ولا خَلَلٍ لَفْظاً وأداءً وأحكاماً. ووقفَ المستشرقون مشدوهين أمامَ هذه الحقيقة ـ وكان نفرٌ كثيرون منهم يقولون في الإسلام وفي رسولِ الإسلام بأهوائهم وأحقادِهم، فقال كبيرُهم تيودور نولدكه: «لا مَعْدىً لنا عنِ القول بأن القرآنَ قد وَصَلَ إلينا كما كان في أيامِ محمّدٍ نفسهِ». تلك بلا ريبٍ مُعجِزةٌ. إنّنا اليومَ ـ في مَجالِ العِلم ـ لا نَعْرِفُ كِتاباً دينيّاً سوى القرآنِ الكريم بَقِيَ على الدهر كما جاء يومَ جاء.

وهنالك في الإسلام مُعجِزةٌ ثانيةٌ عاشتْ على الدهر بفَضْلِ القرآنِ الكريم هي اللغةُ العربية. نَزَلَ القرآن باللغةِ العربية، واللغةُ العربيةُ يومَذاك لغةُ قومٍ من البَدْوِ في بُقعةٍ معزولةٍ عنِ العالم المتحضرِ تُحيطُ بها الصحارى فلم تستطعْ جُيوشُ الفاتحين أن تنفُذَ إليها. ومعَ ذلك فإنّ اللغةَ العربية بفضل القرآن أصبحتْ لغةً عالَميةً لا تزالُ تعيشُ إلى اليوم يقرأ بها أهلُها كما كانَ العرب الأوّلونَ يقرأون بها. ونحنُ إذا قرأنا اليومَ قولَ عنترةَ يُخاطِبُ عبلةَ:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهلٌ منّي، وبيضُ الهندِ تقطُرُ من دمي،
فوَدِدتُ تقبيلَ السيوفِ لأنّها لَمعتْ كبارقِ ثَغْرِكِ المُتَبَسّم.

لم نَجِدْهُ يختلفُ في ألفاظِهِ وتراكيبه وقُرْبِ معناه ممّا نألَفُهُ اليومَ في كلامنا معَ أنه يَرْجِعُ في التاريخ خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْناً. إنّ القرآنَ الكريم كان حافظاً للغة العربية. ولم تكنِ التوراةُ ولا كانَ الإنجيل حافظَيْنِ لِلّغاتِ العِبْرية واليونانية والآراميّة

واللاتينية ، معَ أن اليونانية واللاتينية والآرامية كانتْ لُغاتِ حضاراتٍ آمتدّتْ في أرجاء العالم . وكانتِ اللغةُ الآراميةُ مثلاً ـ في شكلٍ من أشكالها ـ مُمتدّةَ النُّفُوذِ من شواطىء البحر الأبيضِ المتوسّط إلى أطرافِ الهِند . أمّا اللُّغتانِ اليونانيةُ واللاتينيةُ فكان آنتشارُهما وأثرُهما أوسعَ وأعمقَ .

واللغةُ العربيةُ لم تُصْبحْ لغةً للمسلمين فقط ، بل كانت ولا تزال أيضاً لغةً لمَلايينَ كثيرةٍ من غير المسلمين .

والمُعْجِزةُ الثالثة كانت في آنتشارِ الحضارة الإسلامية آنتشاراً عظيماً . كانت الدولةُ الإسلامية تمتدُّ من أطراف الصين إلى شواطىء المحيط الأطلسيّ . وقد زال هذا الحُكْمُ عن بلادٍ كثيرةٍ منها جَنوبيّ إيطاليةَ ومنها إسبانيا ومنها بلادُ اليونان وبلادُ الهند وسِواها ، ولكنّنا لا نزال إلى اليوم نرى آثارَ الحضارةِ الإسلامية في هذه البلاد واضحةً في البناء وفي أحوال المعيشة وفي اللّغة . ومعَ أنّ الحضارةَ اليونانية والحضارةَ الرومانية قد سَبَقَتا الحضارةَ العربيةَ الإسلامية في تلك البلاد وكانتا حَضارتَيْنِ راقيتينِ ، فإنّهما لم تُخَلّفَا في بلادِ آستعمارهـما آثاراً حيّة . إذا كان في بعلبك مثلاً قلعةٌ بعضُها رومانيّ ، فإنّ في إسبانية مثلاً قُصوراً حَيّةً عامرةً يزورها الناسُ من جميع أقطار العالم ، والإسبان اليومَ يَعيشون على تلك الآثارِ الإسلامية في طُليطلة وإشبيلية وغَرْناطةَ أكثرَ ممّا يعيشون على نِتاج الزيتون ، معَ أن الزيتونَ في إسبانية أيضاً من حضارةِ العرب وزراعة العرب .

ولا بُدَّ في بابِ الحضارة من ذكر الأحوال الآجتماعية وأبرزُها اليومَ « الطَّلاقُ » . إنّ الطلاقَ في الإسلام حالٌ بغيضة . وفي الحديث الشريف « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . ولكنّ الطلاقَ في الإسلام ضرورةٌ مُؤلمة فَلْسَفَتُها أنّ الزَّواج وسيلةٌ إلى بناء أُسرةٍ صحيحة سليمةٍ . فإذا لم يستطعِ الزَّواجُ أن يَبْنِيَ مثلَ هذه الأُسرة لم يكُنْ له مُسَوِّغٌ .

ولقد وقف الغَرْب ـ وأعني بالغرب هنا النصرانيةَ ـ قُروناً طويلةً مَوْقِفاً شديدَ

العِداء من الإسلام بأسبابٍ كثيرة منها الطلاقُ . ولكنّ الغَرْبَ كُلَّهُ يعمَلُ بالطّلاقِ اليومَ أكثرَ ممّا يُعمَلَ به في الإسلام . وكان آخِرَ البلادِ التي أقرّتِ الطلاقَ رسْمِيّاً روما مركزُ النصرانية في العالم . لقد أوْرَدتُ هذا المثلَ شاهداً على أمرٍ واحدٍ هو أنّ الإسلامَ ليس ديناً ، أي عِبادةً ، فَحَسْبُ . إنّ الإسلامَ دينٌ ودولةٌ ونِظام اُجتماعيّ ودستور أخلاقيّ معاً . وبهذا النظر كان الجانبُ الاُجتماعيّ جُزءاً مُهِمّاً من الإسلام ، بخِلاف ما يُعْهَدُ في غيره من الأديان .

فالمعنى الذي يجب علينا أن نراه في مَوْلِدِ محمّدٍ رسول الله ﷺ ليس معنى الاُحتفالِ بِمَوْلِدِ رَجُلٍ عظيم فحَسْبُ ، بل العملُ بما حَقّقتْه دعوةُ ذلك الرجُلِ العظيم ، بما حقّقه الإسلامُ الذي لم يأتِ ديناً مفروضاً - ففي القرآن الكريم : ﴿ **لا إكراهَ في الدين ، قد تبيّنَ الرُّشْدُ من الغيّ** ﴾ . - ولكنّه جاء لِيُخْرِجَ الناسَ من الظُّلُماتِ إلى النورِ ، من الوثنيّة إلى الإيمان ، من الجاهلية إلى العِلم والحِلم ، ومن العَداوة إلى الأُلفة ، ومن الفُرقة إلى الاتّحاد .

إنّ المعنى الحقيقيَّ لمولدِ الرسول ﷺ أنْ يُدْرِكَ المسلمون اليومَ أنّهم أمّةٌ واحدة . وإذا كانتِ الأحوالُ الإداريّة وأشكالُ الحكم اليومَ لا تُساعِدُ على أن يجتمعَ المسلمون في دولةٍ سياسيّةٍ واحدةٍ ، فيجب عليهم أن يجتمعوا على اتّجاهٍ واحدٍ في السياسة وفي الاُقتصاد وفي العلم والأدب والفلسفة وعلى ألّا يكون لغيرِهم - في دُوَلِهِم السياسيّة المختلفة - يدٌ في سِياستِهم الخارجيّةِ وفي سياسَتِهِم الداخلية . إنّ المسلمين إذا فَهِموا هذا المعنى هانتْ عليهم معانٍ كثيرةٌ في جميع ميادينِ الحياة .

تابع من ص ٦٦

منذ ١٣٥٠ عاماً

قِصة الهِجرة وأهميتها في تاريخ الإسلام(*)

كانت هِجرة النبي ﷺ في ربيعٍ الأول ، فأصبح العيد في المحرم

يُطِلّ العامُ الهِجريّ الواحد والخمسون بعد الألف والثَلاثِمِائة فيعيّد المسلمون لذكرى القافلة الأولى التي هاجرت من مكةَ إلى المدينة وكان ذلك في المُحَرّم . أمّا النبيُّ ﷺ فلم يذهبْ إلى المدينة إلا في ربيعٍ الأول .

أهمية الهجرة

تُعَدّ هِجرةُ المسلمين الكبرى(١) من مكّةَ إلى المدينة حادثاً مُهمّاً في تاريخ الدعوة الإسلامية . ولو لم يهاجرِ المسلمون إلى المدينة لكانت بقيّةُ أيامِ الرّسول في مكةَ أيامَ كفاحٍ لا يتمكن في أثنائها من نشر الإسلام ، ولَكان المؤرخون اليومَ يمرّون بذِكر محمدٍ وأصحابه ولا يُشيرون إليهم إلا كأولئك العُصاة الذين ينتقضون على أولياء أمورهم ، أو يثورون على عاداتِهِمُ القديمةِ وتقاليدهم . ولا أكون مبالغاً أبداً إذا قلت إنّ الهِجرة هي التي جعلتِ الإسلامَ ديناً ينتشرُ من أقصى العالم المعروف يومذاك إلى أقصاه ، ثم جعلتْ تعاليمَه تسودُ في البلاد التي آحتك سُكّانُها بالعرب والمسلمين أو تؤثر فيها .

موقف قريش تجاه الدعوة

سكتتْ قريشُ في أول الأمر عنِ الرسول ﷺ حينما كانتِ الدعوة سِرّيّـةً ، وحينما كان أتباعه نفراً لا يُعتَدّ بهم . أما الآنَ ، وقد كثُرَ المسلمون وجهر النبي

(*) نشرت هذه الكلمة في جريدة « الأحرار » (بيروت) ، يوم السبت في ٧ /٥ /١٩٣٢ م (أوّل المحرّم ١٣٥١ هـ) .

(١) الهجرة الكبرى ، من مكّة إلى المدينة (لجميع المسلمين) ، بالإضافة إلى هجرتين سابقتين (لعدد من ضعاف المسلمين) إلى الحبشة هرباً من الاضطهاد في مكّة .

بأركانِ الدعوة لِلإيمان بوحدانية الله ، وباليوم ِ الآخر ، ولِهدم الأصنام - جعلت تضطهده ، لأنَّ أكثرَ ثروةِ قريش كانتْ من مواردِ الكعبة حينما كان العرب يزورون أصنامَهم في المواسم . فهدمُ الأصنام ِ يعني ذهابَ ثروتهم وجاهِهم . ويجب أن نذكُرَ دائماً أن الأصنام ، وإن كانت دخيلةً على بلاد العرب ، فإنّ الوثنية كانت دينَ العرب القومي قد وجدوا آباءَهم عليها من قبلهم ؛ ولذلك لم يشاءوا أنْ يتنازلوا عنها بسهولة عند دعوتهم إلى دين جديد ؛ ولمّا زادَ الخطر على المسلمين في مكّة أمَرَهُمُ النبيُّ بالهِجرة الكُبرى من مكة إلى المدينة .

الهجرة أوّلا إلى الحبشة .

في السَّنة الخامسة للدعوة (قبلَ الهِجرة من مكّةَ إلى المدينة بسبع ِ سَنَوات) كان المسلمون لا يزالون قليلين جِدّاً ، وكان أهلُ مكّةَ المشركون يَضْطَهِدونهم ويُعذّبونهم عذاباً شديداً . فأمرَ الرسولُ ﷺ جانباً من المسلمين بالذّهاب إلى الحَبَشة ، وبَقِيَ جانبٌ منهم معَهُ في مكّة .

ولقدِ آختار رسولُ الله أرضَ الحَبَشة دارَ هِجْرة مُوقّتةً لِنَفرٍ من المسلمين لأنّ مَلِكَ الحبشة في ذلك الحين كانَ رجلاً عادلاً ، فإنّ رسولَ الله لمّا أمرَ أولئك النَفر من المسلمين أن يذهبوا إلى الحَبَشة قال لهم : « لو خَرَجْتُمْ إلى أرض ِ الحَبَشةِ ، فإنّ فيها مَلِكاً لا يُظْلَمُ أحدٌ عِندَه ، حتّى يجعَلَ اللّهُ لكم فَرَجاً ومخرَجاً ممّا أنتم فيه (الكامل في التاريخ لابن الأثير - بيروت ٢ : ٧٦) . ويبدو أن ذلك النجاشيَّ (والنجاشيُّ لقبٌ لملوكِ الحبشة) كان على مذهبٍ من النَّصرانيةِ قريبٍ من الإسلام يرى أن عيسى المسيحَ عليه السلامُ كان رسولاً ولم يكُنْ إلّهاً .

وأرسلتْ قُريشٌ إلى النجاشيِّ وفْداً يَحْمِلُ له هدايا كثيرةً وطلبتْ منه أن يُسلِّمَها من قِبَلَهُ من مهاجري المسلمين فأبى ذلك سياسة منه على الأرجح . فلمّا فقدتْ قريشُ كلَّ أملٍ لها بالوصول إلى هؤلاء عَمَدت إلى

حِصار البقيةِ الباقية منهم في مكّةَ : لا تُعاملهم ولا تَدَعْ أحداً يعاملهم ، فكاد المسلمون يَهْلِكون في عُزلتهم هذه لولا ما كان يَصِلُ إليهم من حاجاتهم سِرّاً . وطالَ هذا الحصارُ على المسلمين ، إلا أنّ قريشَ ملّتْ هذا الحِصار الذي لم يعُدْ عليها بفائدة محسوسة فطلبت من النبيّ أن يكُفّ عن شتم آلهتها فتكُفَّ عن حِصاره ؛ فأبى محمدٌ ﷺ هذه التسوية . ومعَ كل هذا الاضطهادِ فإنّ قريشَ لم تكُنْ تتعمّد الشِدّة في أذى النبي لمكانةِ عمّهِ أبي طالبٍ (والد الإمام علي كرّم الله وجهَه) ، وقد كان رأسَ آلِ هاشمٍ يومذاك . ولكنْ في السَّنَة الثالثة قبلَ الهِجرة تُوُفّيَ أبو طالبٍ فصارتْ قريشُ لا تترُكُ وسيلةَ تنالَ بها من محمدٍ وأتباعه إلّا ٱستخدمتها . أضِفْ إلى ذلك موتَ ٱمرأته خديجةَ وقد كانت من أكبرِ المؤاسين لزوجِها في ليالي ٱضطهاده .

انتشار الدعوة خارجَ مكة

لم ينتشرِ الإسلامُ في مكةَ ولا في ضواحيها كثيراً . فمنذ البِعثة إلى الهِجرة ـ أي نحوَ عَشْرةِ أعوام ـ ما زادَ عددُ المُسلمين على مِائَتَيْ شخصٍ . ولكنّ يثربَ ـ ٱسمُ المدينةِ قبلَ الهِجرة ـ كانتْ كما يظهر أكثرَ ٱستعداداً لقَبول الإسلام ، لأن أكثرَ أهلِها كانوا من أهلِ الكِتاب يكرَهونَ عِبادةَ الأصنام التي جاء الإسلام بمَحْوِها ، ولم تكنِ الأصنامُ لذلك لهم موردَ رِزق كما كانت لأهلِ مكةَ . ورأى اليثربيون أن ٱنتشارَ الإسلام بينَهم يزيدُ في قوتِهم تجاه المكيين ؛ ثم إن أهلَ يثربَ لم يكونوا موحَّدينَ سياسيّاً وٱجتماعيّاً فرأوْا أن زعيماً كمحمد ﷺ يتمكن من توحيد قُواهم . أمّا المؤرخون فيُخْبروننا أن الأوْسَ والخزرجَ ، وهم وثنيّو يثربَ وأسيادَ اليهودِ فيها ، كانوا يسمَعون من مواليهم اليهودِ بقُربِ ظهورِ نبيٍّ عظيمٍ . فلما ظهر محمد ﷺ ما كان منهم إلا أنِ ٱتّبعوه .

كيف ٱنتشر الإسلام في يثربَ

كان النبيُّ ﷺ يَعْرِضُ الدعوةَ في المواسم ـ أيامَ اجتماعِ العرب المختلفة حينما تَكونُ وفودُ البُلدان مجتمعةً بمكةَ ، وكان كلّما سَمِعَ بشريفٍ أمّ مكة

أسرع إليه وعرض الإسلام عليه . ولكنّ النتيجةَ كانتْ قليلةً بالنِسبة إلى حركةٍ أُريدُ منها أنْ تعُمَّ العالمَ .

أخيراً ٱلتقى النبيّ ﷺ ستةَ نفرٍ من اليثربيين فدَعاهُمْ إلى ٱتّباعه فآمنوا به ورجَعوا إلى قومِهم يتحدّثون عن الإسلام . وفي العام التالي ، سَنَةَ ٦٢١ م (أي قبلَ الهِجرة بعامٍ واحدٍ) ٱجتمع النبيّ بٱثْنَيْ عَشَرَ شخصاً من أهل يثربَ في العَقَبة على طريقِ الحاجّ فبايَعوه فأرسل مَعَهم من يُعَلِّمُهُم الدينَ ويبعَثُ إليه بأخبارِ الدعوةِ في يثربَ .

كانتِ الدعوةُ تنتشر سِرّاً ، ولكنْ بسُرعة . فبلـغ المسلمون في يثربَ سبعينَ شخصاً في عامٍ واحدٍ ، أي نصفَ العددِ الذي تمكنَ النبيُّ ﷺ نفسُه مِن ٱستمالته في عَشْرِ سَنَواتٍ . بعدئذٍ لم يَوَدَّ اليثربيون أن يظَلّوا شيعةً سِرّيةً ، بل أرادوا أنْ يَعْرِفوا موقفَهم من الإسلام ، فٱتفقوا على أنْ يجتمعوا بالنّبيّ عليه السلام في المكانِ الذي ٱجتمعوا فيه في العامِ السابق ، وذلك بعدَ ٱنتهاء الموسم : ٱنفضاض الحجّاج عن مكّةَ حتى لا يَلْفِتوا بٱجتماعهم هذا أنظارَ أعداءِ الإسلام .

البَيْعة عند العقبة

هبط الليلُ وكان القمر قد بَزَغَ فخرج محمدٌ ﷺ ومعَه عمُّه العباسُ . لم يكن العباسُ يومذاك قد أسْلَم ، ولكنّ قرابتَه من محمدٍ وحُبَّه له وإعجابَه العظيمَ به وبالمسلمين جعلته يَعْطِفُ عليه وعلى دعوته . ولم يطُلْ بمحمدٍ والعباسِ الموقفُ حتى بدا لهُم اليثربيون يقتربون في جَوْفِ الليل على ضوء القمر فُرادى ومَثْنى وثُلاثَ يسيرون فوق أرض صخريةٍ قاحلة . وكانوا في مسيرهم هذا يُحاولون أن يستتروا عنِ الأبصار .

وصَلَ المبايعون وعَدَدُهم ثلاثةٌ وسبعونَ بينَهم ٱمرأتانِ . . . فكان أوّلَ مَنْ تكلمَ العباسُ فقال : « لقد علمتُم أن محمداً في عِزّةٍ ومَنَعَةٍ من قومِه ، ولكنّه أبى إلا ٱلِانْحيازَ لكم . فإنْ كنتُمْ تَرَوْنَ بإمكانِكم حمايتَه فأنتُمْ وشأنَكم . وأمّا إذا

كنتم تَرَوْنَ أنكم ستَخْذِلونه فدَعُوه فنحنُ أوْلى الناس بالدفاع عنه. وتلاه محمدٌ ﷺ فقرأ ما تَيَسّر من القُرآن الكريم وطلب منهم أنْ يُبايعوه على الدفاعِ عنه ليستوثِقَ منهم. ويظهَرُ أنهم هم أيضاً أرادوا أن يستوثقوا منه فقالوا له: لِنَفْرِضْ أنّك ظفِرْتَ، أتترُكنا وتَرْجِعُ إلى قَوْمِك؟ فقال لهم: كلّا، أنا منكُمْ وأنتم مِني أحارب مَنْ حاربتم وأُسالم مَنْ سالمتم. ولما آطمأنّ الجميعُ وأُخِذتِ البَيْعة، رأى النبيُّ ضَماناً للعهد أن يتعهدَ له قِسمٌ منهم بالوفاء، فلا تكونُ البَيْعةُ مُوزَّعةً بين سبعينَ رجلاً وامرأتين فآنتخَب الأوسُ والخزرجُ منهمُ آثنَيْ عَشَرَ نقيباً.

العودة للاضطهاد

أخذ الإسلامُ ينتشرُ فيهدّدُ آنتشارُه مركزَ المكّيين التجاريَّ والحربيَّ فأحبّوا أن يُطالبوا زعماءَ يثربَ بتسليم المُسلمين عمَلاً بنصوصِ مُعاهداتٍ بينَ المكيين واليثربيين، ولكنّ الدعوةَ كانتْ تنتشِرُ سِرّاً فلم يعلَمْ هؤلاء الزعماءُ من أمرِها شيئاً يُذْكَرُ فَنَفَوْا أن يكونَ في مدينتهم أتباعٌ للإسلام ذَوُو خطر. ودَهِشَ اليهودُ حينما رأَوُا الأوسَ والخزرجَ يُقبلون على الإسلام من تِلقاءِ أنفُسِهم بينما لم تنفَعْ فيهم دعوةُ أربعةِ قرونٍ إلى الديانة اليهودية. ولا عجبَ فاليهودية دينٌ غَريب واليثربيون أسيادُ اليهود. فهل يتبعُ السيدُ آراءَ تابعهِ؟ أمّا الإسلامُ فكان وَفقَ أخلاقِ العرب وعاداتهم يدعو إلى وَحْدَتِهم ويسعى لرفعِ شأنِهم.

آنتشر الإسلامُ فلم يعُدِ النبيّ ﷺ لكتم دعوته وكتم أمر أتباعه فوقفت قريش على الحقيقة وأخذت بآضطهاد المسلمين من جديد، وكثيراً ما كانت تجبر بعضهم على الرجوع إلى الوثنية. ففي أوائل المُحرّم (أي بعدَ بَيْعةِ العقبة بأسبوعينِ أو ثلاثةٍ) أمَرَ النبيّ أتباعَه بالهِجرة إلى يثربَ فأخذوا يترُكون مكة تِباعاً. فلم يمضِ شهرانِ على ذلك حتى أصبح كثيرٌ من أحياء مكة مُقفراً، ولم يبقَ فيها من المسلمين إلا محمدٌ ﷺ وأبو بكرٍ وعليّ رضي الله عنهما وأُسَرُهُم فأيْقَنَ أهلُ مكة أن النبي ﷺ لم يأمُرْ أتباعَه بالهِجرة إلا ليتّخذَ من يثربَ مركزاً لنشر الإسلام ونقطة حربيةً لمقاومتهم. فآجتمعوا في دار الندوة ـ مجلس قريش

في الكعبة - يتشاورون فيما يفعلون فٱقترحَ أحدُهُمُ السَّجْن ، فقيل « قد يأتي أصحابه لإنقاذه » . وٱقترح آخَرُ النفيَ فقيل : إن ذلك يزيدُ في شأنه . ثم ٱقترح قومٌ القتلَ فقيل : إن لمحمدٍ ﷺ أقاربَ لن يسكُتوا عن الطلب بدمِه . ولكنْ بما أن القتلَ كان أحسنَ حلّ وصلوا إليه ، قرّروا أن ينتخبوا من كُلّ قبيلةٍ رجلاً فيهاجِمَه هؤلاء معاً ويقتلوه فلا يُعْرَفُ القاتلُ الحقيقيّ . فإذا أحبَّ آلُ هاشمٍ المطالبةَ بدمِ قريبِهم فليسألوا القبائِلَ أجمعَ ولن يُطيقوا حربها . أما إذا طلبوا الدِيَةَ فقريشٌ مستعدةٌ لدفعها .

علم محمدٌ بالمكيدة فعَزَمَ على الهِجرة في اليوم نفسِه ، وٱتفق وأبا بكر على الخروج معاً (في حديثٍ طويلٍ) وتركا عليَّ بنَ أبي طالبٍ مَعَ آلِ البيت ، وأسرة أبي بكرٍ ، لِيَرُدَّ ودائعَ الناسِ - وكانوا يأتمنون عليها محمداً ﷺ . فإذا حان الوقتُ لَحِقَ الجميعُ بيثربَ .

تسلل النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه وٱتجها جَنوباً إلى جبل ثورٍ ونزلا في غارٍ عند أعلاه.وقدِ ٱختار النبيُّ هذا الغارَ لأنه جَنوب مكة . فإذا علم المكيون ذهابَه إلى يثربَ تتبّعوا الطريقَ الشَّمالية المؤدية إلى يثربَ ولم يخطُرْ ببالِهم أنه سيذهبُ إلى مدينةٍ في الشَّمال من الجهة الجَنوبية . مكثَ النبيُّ وأبو بكر في الغارِ ثلاثةَ أيامٍ كان في أثنائها عبدالله بنُ أبي بكرٍ يأتيهما بالطعام ، وكانَ عامرُ بنُ فُهيرةَ ، خادِمُ أبي بكرٍ ، يأتيهما كُلَّ مساءٍ باللبن . فإذا ٱنصرفَ رَجَعَ إلى قطيعه وساقه على آثارِه يُعفّيها كيلا تَلْفِتَ أنظارَ أحدِ المكيين إذا مر ٱتفاقاً من ذلك المكان . ولحسنِ حظّ الدعوةِ الإسلامية لم يهتدِ المكيون إلى مكانِ النبي مَعَ أنهم جعلوا لمن يردُّه عليهم مِائةَ ناقةٍ ؛ وهنا نُشير إلى مُعجزةِ نسجِ العنكبوتِ على بابِ الغار وبَيْضِ الحمام في قولِ البوصيريّ :

فالصِدقُ في الغارِ والصِّديق لم يَرِما ، وهُمْ يقولون ما بالغارِ من إرَمِ[(١)] .
ظنوا الحمامَ وظنوا العنكبوتَ على خيرِ البرية لم تنسِجْ ولم تَحُمِ[(٢)]

(١) الصدق (محمّد رسول الله) . الصّديق : أبو بكر . رام ، يريم : انتقل .
(٢) خير البريّة : محمّد رسول الله . حام : طاف .

وِقـايةُ اللَّهِ أغنتْ عن مُضـاعَفـةٍ   من الدروع وعن عالٍ مِنَ الأُطُمِ (٣)

أما القرآنُ الكريم فقال في ذلك : ﴿ .. **إذ هما في الغار ؛ إذ يقولُ لصاحبِهِ لا تحزَنْ ، إن اللَّهَ مَعَنا** ... ﴾ .

كفَّتْ قريشُ الآنَ عن البحث ، فعزم النبيُّ وأبو بكرٍ على تركِ الغار وآلاتّجاه إلى يثربَ فإن قريشَ إذا علمت أنهما لم يصلا إلى يثربَ بعدُ استأنفتِ البحثَ من جديد . فتركا الغارَ في اليومِ الرابع من دخولهم إياه ، وذلك في الرابعِ من ربيعٍ الأول (أيلول سنة ٦٢٢ م) فلم يذهبا في الطريق العامة ، بل عكَفَ بهما الدليلُ عبدُ الله بن أرقَطَ (أو الأُريقِط) إلى شَماليّ الطريقِ غرباً حتّى وصلَ بِهِما إلى الساحل . وبعدَ أنْ سارَ بجانبِ الساحلِ مسافةً طويلةً رَجَع إلى الطريق الأصلية ، ولم يعترضْهم في أثناء سَفَرهم خطرٌ إلّا وصولُ خبرهما إلى مكةَ بعدَ تركِهِمُ الغارَ بثلاثةِ أيامً . ولكنْ كانتِ القافلةُ قد أصبحتْ في مأمنٍ من كل آقتفاءٍ . وكان عليٌّ قدِ آنتهى من ردّ الودائع فتوجّه إلى يثربَ ، إلاّ أنّه تَرَكَ الأُسَرَ الثلاثَ في مكة . وبرُغمِ حِقدِ المكيين على النبي وآلِ بيته فإنهم لم يتعرّضوا لمن بقي منهم في مكة بسوءٍ إلاّ كَفّاً واحدةً نالتْها أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ حينما جاء أبو جهلٍ وسألَها عن مكانِ أبيها ، فقالت : « لا أدري » .

بقي النبيّ ثمانيةَ أيامٍ حتى أقبل على قِباءَ مِنْ ضواحي يثربَ .

في قُباء

في يومِ الاثْنين في ثاني عَشَرَ ربيعٍ الأوّلِ ، اقْتربَ النبيّ وأبو بكرٍ من يثربَ فقطعا واديَ العقيق ، الذي كان يعترضُ طريقَهما على بعدُ خمسةِ أميالٍ جَنوباً في غربٍ ، وتسلّقا التلالَ . وبعدَ قليلٍ أطلّا على يثربَ وهي متوسطةٌ الجنائنَ الخضراءَ وغاباتِ النخيلِ المتمايلة ، يمتَدّ عن جَنوبها الشرقيّ سهلُ نجدٍ إلى أبعدِ ما تُبصِر العينُ ، ويعترضُ أُفُقَها الشرقيَّ سلاسلُ التلالِ

(١) المضاعفة : (الدرعِ المنسوجة نسجاً كثيفاً) . أطم : (بضمّة أو بضمّتين : مفرد) : حصن ، قلعة .

المنخفضة . أما عن شَمالها فتقومُ على بضعةِ أميالٍ منها قِممُ جبلِ أُحُدٍ الصوانيةُ في وَسَطِ السلسلة الشرقية . ثم ترى عدداً من الجداول تسيلُ منسابةً من الجَنوب الشرقيّ حتى تضيعَ بينَ التِلال في الجِهة الشَّمالية الشرقية .

في تلك الملاءةِ الزَبَرْجَديّة الخضراءِ يُبصر المُشرفُ بقعةً زاهيةً مُتموّجةً على مسافةِ ميلينِ من مدينةِ قُباء ، فتكادُ تكونُ وما حولَها بساطاً أخضرَ لولا ما يقومُ فيها هنا وهناك من مزارعِ اليهود المُحصّنة وبيوتِ الأوس والخزرج الريفية . فكان أولَ ما تبادر إلى ذهن الرسول في تلك الدقيقة ذِكرى زيارةِ يثربَ للمرةِ الأولى معَ أُمه يومَ كان طفلاً ، وها هو الآنَ يزورُها ولكنْ لمثل أعلى وغايةٍ أسمى .

لم يتّبع النبيّ وأبو بكرٍ طريقَ يثربَ ، بل أشارا على الدليل بأن ينحدرَ بهما إلى قُباءَ وينْزِلَ عند بني عمرو (من قبائلِ الأوس) فوصلا بعدَ أنِ اشتدَّ حَرُّ الشمسِ من زوالها[1] ودخل الذين تعوّدوا أن ينتظروا النبيّ كلّ يومٍ على الطريق العامة إلى بيوتهم . ولكنّ رجلاً يهودياً أبصر محمداً ﷺ مُقبلاً فصرَخَ بأهل قُباء: يا بَنـي قَـيْلَـةَ ، هـذا جَـدُّكم قد جاء » . فخرج الناسُ إليه وامتلأتِ المدينةُ فرحاً ، حتى أن الأولادَ الصِغار كانوا يسيرون في الأسواق فرِحينَ يَصيحون : « قد جاءَ محمدٌ ، قد جاء » .

بَقِيَ النبيّ في قُباءَ أيامَ الإثنينِ والثُلاثاء والأربُعاءِ والخميسِ نزيلاً عند كُلثومٍ أحدِ الرؤساء . وكان يقضي بعضَ أوقاته أيضاً في بيتِ سعدِ بن خَيثمةَ أحدِ زعماءِ الأوْس . ثم بنى في قباءَ مسجداً . وفي صباح الجُمُعة توجّه إلى المدينة وحولَه جمعٌ من المهاجرين والأنصار فأدركتِ المسلمين صلاةُ الجمعة في بني سالمٍ (إحدى قبائلِ الخزرج) فصلَّوْها في بطن الوادي ،وكانوا نحو مئةِ شخصٍ . فكانتْ تلك أوَّلَ جُمُعة صلّاها المسلمون . ولا يزال المارُّ حتى اليومِ يرى في ذلك المكان بِناءً يُسمى مسجدَ الجُمُعة تخليداً لِذكرى نزولِ

(١) الزوال : اجتياز الشمس خطّ الهاجرة (نصف النهار) ، وقت الظهر .

الرسولِ في ذلك المحلّ . ومن ذلك الحينِ أصبحتْ صلاةُ الجُمُعة فريضةً على المسلمين .

الدخول إلى يثرب

بعدَ انتهاءِ الصلاةِ سارَ النبي راكباً ناقتَه قاصداً يثربَ ، وقد خرجتْ إليه الأسَرُ والقبائل تُلاقيه فَرِحةً مسرورةً . فالْتفَّ حولَه الزعماءُ في أفخرِ ثِيابهم حاملين أسلحتهم التي كانتْ تتألقُ في شمس الخريف ، وكان حولَ الجميعِ جموعُ اليثربيين يُهَلّلون ويتنافسون في الاحتفاء بالنبيّ الكريم . وكان كلما مرّ النبيّ ببيتٍ من بيوتِ الأنصار - سُكان يثرب - دُعِيَ إلى النزولِ فيه فيتلطَّفُ في الاعتذار بقوله لهم : إن الناقةَ مأمورةٌ تبرُكُ حيثُ شاءتْ ، وذلك حكمةٌ منه ، فقد أرادَ أنْ يكون اختيارُ منزله - وكلُّ بيوتِ الأنصار منزلٌ له - ببراءة فيكونَ ذلك أوقعَ في النفوس . أما في الدرجة الثانية فلم يَر أنْ يُثيرَ الغَيْرة في نفوسِ أنصاره بأن يقبَلَ دعوةَ أحدِهم مُتَعَمِّداً ويترُكَ دعوةَ الآخرين . ولذلك تَرَكَ حبلَ الناقةِ على غاربِها كما أخبرنا ابنُ هشامٍ فبرَكَتْ ، بعدَ مسيرِ مسافةٍ في بني النجارِ حيثُ اتّخذ النبيُّ ﷺ فيما بعدُ مسجدَه . فاحتمَلَ أبو أيوبَ الأنصاريُّ رَحْلَ الناقةِ ونَزل النبيُّ ضيفاً على أبي أيوبَ واحتل الطَبَقة السُّفلى من المنزِلِ لاعتقاده أنها أسهلُ على الزّوار مَعَ أنّ أبا أيوبَ عَرَض عليه الطَبَقة العُليا . وبعد مُدة لَحِقَتْ بالنبيّ عليه السلام أُسْرته وأتتْ معَها أيضاً أُسْرَةُ أبي بكرٍ .

لقد كان لِقاءُ النبيّ حَماسيّاً جِدّاً حتى أن الأنصار غيّروا اسْمَ يثربَ فجعلوه « مدينةَ الرسول » ثم اختصروا هذا الاسمَ فيما بعدُ فأصبحَ « المدينةَ » .

* * *

حينما كان محمدٌ ﷺ في مكة كان رئيسَ شيعةٍ دينيةٍ عِرضةٍ للاضطهاد تخافُ أن تقومَ بشعائرها . أما في المدينة فقد أصبح رئيساً دينياً بين قومٍ يتفانَوْنَ في سبيلهِ ، وحاكماً دُنْيَوِيًّا له حكومةٌ ورعيةٌ ، فكان عليه حفظُ الأمنِ وإدارةُ البلاد ، فصار يُصْدِرُ الصحائف - وَهِيَ مُعاهداتٌ بين المسلمين وسُكانِ المدينة

من اليهودِ والوثنيين تُبيّن موقفَ المسلمين تِجاهَهم . وفي المدينةِ بدأ الجهاد لمقاومة أهلِ مكةَ وحُلفائهم . وهكذا تمكّن الرسولُ في السنوات العشْرِ التي عاشَها في المدينة من أن يجعلَ من جزيرةِ العرب حكومةً واحدةً ، وقوماً موحَّدين ديناً وسِياسةً ، وآزداد نفوذُه حتى أن أتباعه كانوا ، فيما بعد ، يدعونه ـ كما يُخبرنا آبنُ هشامٍ « مَلِكَ الحِجاز » .

كيف ربّى رسول الله أصحابه(*)

منذ بِضعة أيامٍ كنت في بلاد الخليج فخطر لي خاطرٌ أحببتُ أن أعرِفَ مدى صِحّته ومبلغ قيمته . كنت أخرج بالسيّارة إلى ظاهر البلد الذي أنا فيه حتّى أصِلَ إلى مِنطقة الرمال وراء العمران ، فأترُكُ السيّارة ثمّ أسيرُ على ذلك الرمل الأبيض الناعم . وتعترضني أحياناً تِلالٌ من الرمْل فأتسلّقها ، فإذا السيرُ على الرمل صعبٌ وإذا تسلُّقُ تِلالِ الرمل أكثرُ صعوبةً . وحاولتُ السير مراراً على الرمل بالسيّارة ، فسارت على وجه الرمل بصعوبة : تغوص فيه كثيراً أو قليلاً . وفي مرّة رستِ السيّارة في الرمل فآحتجنا إلى بِضعة رجالٍ يدفعونها حتّى تخلّصت من الرمل وما كادت .

وذهب بي الفكر إلى صدر الدعوة الإسلامية : كيف حمل المسلمون الأوّلون الإسلام إلى تلك البلاد الموغلة في البوادي والقِفار يسيرون فيها على الرمل بأرجلهم أياماً وشهوراً لا يشكون تعباً ولا يدخل على نفوسهم وأجسامهم شيء من الوهْن أو الملل . ثمّ أن أهل تلك البلاد لمّا دخلوا في الإسلام خرجوا معَ أخوانهم مجاهدين في سبيل الله يفتحون أقطار العالم بالإسلام وللإسلام . ولم تَقُمِ الرِمالُ ولا الجبالُ ولا البحار عائقاً في وجوههم ، تلك الوجوهِ التي وجّهوها للذي فَطَرَ السمواتِ والأرضَ وأنْعَمَ عليهم بالإسلام .

ولم يصعَبْ عليّ الجوابُ : إنّ رسول الله ﷺ قد ربّى المسلمين الأوّلين

(*) كتب هذا الحديث في ٥ / ٤ / ١٩٧٤ وألقي لمناسبة المولد النبوي الشريف في بلدة برجا (لبنان) في رابع عشر ربيع الأوّل ١٣٩٤ هـ (٦ / ٤ / ١٩٧٤) .

على تحمُّلِ المَشاقّ لأنّ الحياةَ ليست كُلُّها هَوْناً . لقد مدح الله تعالى الصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس لأنّ مُعاناة المَشاقّ هي التي تصنع الرجال .

ونلتفت اليومَ فنرى المسلمين عامّةً يشكون ألواناً من الظلم والفقر والقهر ، وهم يعجبون كيف لا ينصُرُهم اللَّهُ على أعدائهم من عوامل الطبيعة وعلى خصومهم من البشر . والجواب هنا ليس صعباً أيضاً . إنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل لكلّ شيء قانوناً ومِقداراً ، فإذا أردنا ظفراً في الكِفاح أو نجاحاً في الحياة فعلينا أن نُطيع الله تعالى بإطاعة القوانين التي جعلها لنا وبالقيام بالأمور التي فرضها علينا . إنّ الإسلام هو الحياةُ كلُّها .والحياة ليست بالأقوالِ والأمانيّ ، بل بالقلب وبالسعي . ألم نسمعْ قولَ الله تعالى في عِتاب المسلمين الأوّلين وتوبيخِهم لمّا انهزموا في أُحُد (٣ : ١٦٥ ـ ١٦٦) : ﴿ **وما أصابَكم يومَ ٱلْتقى الجَمْعانِ فبإذْنِ الله ولِيَعْلَمَ المؤمنين * ولِيَعْلَمَ الذين نافقوا ، وقيلَ لهم تعالَوْا قاتِلوا في سبيلِ الله أوِ ٱدْفَعوا . قالوا : لو كنّا نعلَمُ قِتالاً لَاتّبعناكُم . هم للكُفْرِ يومَئذٍ أقربُ منهم للإيمان . يقولون بأفْواهِهم ما ليس في قلوبهم . والله أعلمُ بما يكتُمون** ﴾ .

فالإسلام ليس قولاً باللسان فقط . والنصْرُ من عندِ الله ، ولكنّه لا يكونُ بالتواكل والأمانيّ . وأغربُ ما أصابَ المسلمين أنّهم يترُكون التربيةَ التي ربّى رسولُ الله ﷺ أصحابَه عليها فجَعَلَ منهم قادةَ الأمم ثمّ يأتون إلى مَناهجَ في التربية مُتنافرةٍ ناقصةٍ يريدون أن ينجحوا بها في الحياة . وهَيْهاتِ أن يشفى الإنسان من مرضٍ وهو لا يتداوى بالدواء المجرَّب الموثوق ، بل بما تَصِفُه العجائزُ والجهّال .

ولعلّ نفراً لا يقنعون بهذا المثل الذي قدّمَته لأنّه مثلٌ بعيد عنهم غائبٌ عن عيونهم إذ هو مثلٌ كان في أيامِ رسول الله قبل نحو خمسةَ عَشَرَ قرناً . من أجل ذلك سآتي بمثل من حياة المسلمين اليوم .

كلّما دخلتُ المسجدَ ثمّ أُقِيمَتِ الصلاةُ فوقفَ المسلمون صفوفاً مستقيمةً

متراصّةً وهم ساكتونَ خاشعون حريصون على النظام والهدوء ، كِباراً وصِغاراً ، أغنياءَ وفُقراء ، أقوياءَ وضِعافاً ، دخل على نفسي ٱلإِطمئنانُ من هذه التربية السليمة الصحيحة ومن هذا السلوك الراقي النبيل . ثمّ يدخُلون في الصلاة جماعةً فيركَعون برُكوعِ الإمام ويسجُدون بسجوده وينهَضون بنهوضه كأنّهم رجلٌ واحدٌ أو نفْسٌ واحدةٌ : متّحدون متحابّون متعاونون ، فيزدادُ آطمئناني في الحياة وأملي في الفوز .

ولكنْ ما إنْ ينفلتُ هؤلاء المسلمون المصلّون من صَلاتهم ويخرُجونَ من المسجد حتّى يبدوا مُتنافرين متشاكسين مُنفلتين من كلِّ نِظامٍ مُعادين لكلّ ترتيبٍ وتخطيط . حينئذ يأخذُني العَجَبُ : أهؤلاءِ المسلمون الذي أراهم في خارجِ المسجد هُمُ المسلمون الذين كانوا منذُ دقائقَ في المسجد ؟ لماذا أصبحَ آتّحادُهم تنافُراً ؟ ولماذا صار نِظامهم إلى الفوضى ؟ ولماذا حال تعاونهم جِدالاً وقتالاً ؟

إنّ تعليلَ هذه الظاهرة في المسلمين اليوم أيضاً ليس صعباً . إنّ الكثيرين من المسلمين اليومَ يَحْمِلون إسلامهم على ألسنتهم ، أمّا الذين وَجَدَ إسلامهُم سبيلاً إلى قلوبهم فقليلٌ ما هم . فما يمنَعُ أولئك الذين يَنْصُرون الإسلامَ بأفواهِهم أن ينصُروه أيضاً بقلوبهم ؟

إنّهم إذا فعلوا ذلك كانوا مسلمين حقّاً وكانوا خَليقين بنصرِ الله إياهم في كل موقفٍ من مواقفهم .

نحن اليومَ نحتفل بمولدِ سيّدِ البشر محمّدٍ ﷺ . وهذا الاُحتفال في نفسِه بِدْعة لم يكن في عَهْدِ الصحابة أو عهدِ التابعين . ولكنّه يُمْكِنُ أن يكونَ بِدعةً حسنةً إذا نحن آتّعظنا به وآتّخذنا رسول الله ﷺ أُسوةً حَسَنَةً لنا . أمّا إذا أعْرَبْنا عن حُبّنا للرسول وتكريمنا لمولده بالمُفَرقعات وبمَعالمِ الزينة بالورق الملوّنِ والأنوار والأصوات ، فإنّنا نكون بعيدين عن رسول الله وعن الإسلام جُملة . لا بأسَ في أن نرفعَ معالمَ الزينة تعبيراً عن سُرورنا الظاهر بالعيد إذا نحن عَمِلنا

بسُنّةِ رسول الله وبما أمرنا به رسولُ الله . ومعَ ذلك فإنّ من الأحسن أن نُنْفِقَ أثمانَ معالمِ الزينة وأثمانِ المفرقعات الذاهبة في الهواء على الفقراء من المسلمين وعلى تشييد بيوتِ العلم التي ينتفعُ بها أبناءُ المسلمين وفي الرِباط في سبيل الإسلام .

إنّ الإسلام دينُ العلم ، وأرى أن كثيراً ممّا نفعَلُه بعيدٌ عن العلم قريبٌ من الجهل . ومن أجل ذلك سَمّى الإسلام أهلَ بلاد العرب السابقين أهلَ جاهليةٍ ، لا لأنّهم كانوا لا يَعْرِفُون شيئاً من العلم . إنّهم كانوا يَعْرِفون وُجوهاً كثيرةً من وجوه العلم ، ولكنّهم لم يكونوا حُلماءَ : كانوا يَسْلُكون ، إلى جانب العلم الذي كان لهم ، سلوكاً بعيداً عن المَنطِق والعقل جُملة : يتنازعون ويتقاتلون ويأكُلُ القويُّ منهمُ الضعيفَ ويَئِدون أحياناً أولادَهم أحياءً ويشرَبون الخمرَ ويلعبون المَيْسِرَ أو القِمار . من أجل ذلك كانوا أهلَ جاهليةٍ . فإذا نحن اليومَ فعلنا فِعلَهم وسَلَكْنا سلوكَهم كنّا مِثلَهم أهلَ جاهليةٍ جديدةٍ .

إنّ الأمَم كالأفراد تكونُ صغيرةً ثمّ تكبَرُ ، وتكون جاهلةً ثمّ تتعلّم ، وتكون قليلةَ الثقافة متقهقرةً في الحضارة ثمّ تتّسعُ ثقافتها وتترقّى حضارتها . وللطفولة والجهل والتقهقر علاماتٌ هي ٱلِٱهتمام بالمظاهر والغَفْلة عن حقائقِ الأمور . لمّا ٱكتشفَ الإسبان أميركة الجَنوبية وجدوا فيها أُمَماً غَنيّةً جاهلةً . كانت تلك الأمم قبائلَ تستخدمُ في حياتها اليوْميةِ أوانيَ من الذهب أو الفِضّة لكَثْرة ما كان في أرض تلك القبائلِ من مَعْدِنِ الذهب والفِضّة . فلمّا رأى الإسبان تلك الأوانيَ جاءوا إلى تلك القبائِل بأوانٍ من النحاس والحديد وبعقود من الخَرزِ الملوّن وبِقطَعٍ من النسيج المصبّغ فكانتْ تلك القبائلُ الفِطريّة تفرح بالعقود من الزجاج الملوّن وبالثياب من النسيج المصبّغ وتتخلّى ، في سبيلِ الحصولِ عليها ، عن أوانيها الثمينة المصنوعة من الذهب والفِضّة .

نحن المسلمين اليومَ يجب أن نفرّقَ بين مظاهرِ المَدنيّة التي لا قيمةَ لها وبين حقائقِ الحضارة المفيدة . إنّ المسلمين اليومَ أغنياءُ جدّاً حتّى في البلاد

التي ليس فيها بترول . إذا جاء عيدٌ آشتعلت البلاد بالرصاص الذي يُطلقُ في الفضاء وثمنه كبيرٌ جدّاً ، ولا فائدة من إطلاقه البتّة . ثمّ هو جاهليةٌ لا يرضى عنها الإسلامُ . فلو أنّ المسلمين حزموا أمرَهم وملكوا نفوسَهم ثمّ جمعوا هذه المبالغ التي يُنفقونها سُدًى فوضعوها في تأسيس مدرسةٍ أو مشروعٍ خيريّ أو مشروعٍ آقتصاديٍّ أو أرسلوا هذا السلاحِ المهدورَ إلى إخوان لهم في بِقاعٍ يَئِنّون فيها من الآستعمار والظلم لَكانَ خيراً لهم .

أراني قد أطلتُ في الحديث في أمورٍ قد يظنُّ نفرٌ منّا أنّها خارجةٌ عن مجرى الآحتفال بمولدِ سيّدِ الأنام . ولكنْ دعوني أسألْ هذا السؤالَ :

هل يظُنُّ أحدٌ منّا أنّ رسولَ الله ﷺ يرضى عن هذا السلوكِ الجاهليّ الذي نسلُكه ؟ هل يظُنُّ أحدٌ منّا أن الآحتفالَ بمولدِ سيّدِ الأنام هو كالآحتفال بمَقْدَمِ رجلٍ من سفرٍ أو بإعذارِ طِفلٍ أو بحَفْلة عُرسٍ أو بتنصيب مَلِكٍ حتّى نحتفلَ بمولدِ رسولِ الله كما نحتفلُ بتلك المناسبات ؟

إنّ الذي يُرضي رسولَ الله في كلِّ يومٍ أن نَسيرَ بسيرتِه ونهتديَ بهَدْيِهِ ونعملَ بسُنّته ونقومَ بما فَرَضَ اللّهُ علينا نحوَ أنفُسِنا ونحو إخواننا . حينئذٍ نكونُ مسلمين حقّاً ، وحينئذٍ يكونُ آحتفالُنا بمولِدِ سيّدِ الأنامِ آحتفالاً ينطوي على مَعْنىً وتُنْتَجُ منه فوائدُ في أنفُسِنا وفي أمّتنا !

١٢ ربيع الأوّل ، سنة ١١ للهجرة

كيف توفّي النبيّ ﷺ*

وُلِدَ رسولُ الله محمّدٌ ﷺ في الثاني عَشَرَ من ربيعٍ الأوّلِ . فإذا جاء هذا اليومُ ـ من كلِّ سَنَةٍ ـ ومُنذُ عهدٍ بعيدٍ في تاريخنا[١] ، آحتفَلَ المسلمون به في جميعِ أقطارهم . والمألوفُ أن المسلمين إذا أرادوا آلاِحتفالَ بيومٍ من أيامِ الرسولِ فإنّما يحتفلون بيومِ مَوْلده (في الثاني عَشَرَ من ربيعٍ الأوّل) وبيومِ هجرته (في أوّلِ المُحَرَّم)[٢] وبيومِ إسرائه (في السابعِ والعشرين من شَهْرِ رَجَبَ) . وقلّما خَطَرَ لأحدٍ أن يقولَ شيئاً في يومِ وَفاتِهِ (هذا ، ولقدِ آتّفق ـ وهذا من غَرائبِ الاتّفاق في مَوْكِبِ التاريخ ـ أنْ كانَ مولِدُ رسولِ الله وهِجرتُه ووفاتُه في يومٍ واحدٍ مِنْ أيامِ التقويم القَمَريّ) .

العُظماءُ عظماءُ في جميعِ أدوارِ حياتهم : هم عُظماءُ في موالِدِهِم وعظماءُ في أعمالِهِم وعظماءُ يومَ مَوْتِهم وبعدَ يومِ مَوْتِهم .

لا أُريدُ هنا أن أتكلّمَ على الأثرِ الذي تركَتْهُ وفاةُ رسولِ اللّهِ يومَ موتِه : لا خَبَرَ الاختلاف في يومِ السَّقيفةِ[٣] ، ولا مَعْنى آرتدادِ قبائلَ من الأعرابِ ولا خُطْبَةِ

(*) نشر هذا المقال في جريدة « الأحرار » (بيروت) ، في الثاني عشر من ربيع الأوّل من سنة ١٣٥١ (٣ / ٧ / ١٩٣٢ م) .

(١) منذ أيام الفاطميّين ، في القرن الرابع الهجري (العاشر للميلاد) .

(٢) كانت الهجرة في الثاني عشر من ربيع الأوّل . ولكنّ عمر بن الخطّاب (لمّا وضع التقويم الإسلامي ، سنة ١٧ للهجرة) ترك بدء السنة الهجرية (القمرية) على ما كان عليه بدؤها من قبل (بالمحرّم) . ولذلك جرت العادة على الاحتفال بالهجرة في المحرّم .

(٣) لمّا توفّي الرسول ﷺ ـ وقبل أن يدفن ـ اجتمع نفر من كبار الصحابة في سقيفة بني ساعدة السقيفة : بناء له سقف وفيه صُفّة (مكان مرتفع قليلاً عن الأرض) . والسقيفة أيضاً العريشة

أبي بكرٍ (رضي الله عنه) ولا صدودِ عُمَرَ بنِ الخطّابِ عن تَصْدِيقِ نَعْيِ الرسول[٣] ، فإنَّ ذلك كلَّه معروفٌ في الكُتُبِ التي بينَ أيدينا ، وفي أماكنَ مُتقاربةٍ في صَفَحاتِ تلك الكتبِ . ولكنّي أُريدُ أنْ أرْسِمَ بالكَلِماتِ صورةً تُمَثِّلُ شُعورَ أهلِ المدينة[٤] يومَ تُوُفِّيَ رسولُ اللّهِ ﷺ وتنقُلُ إليك طَرَفاً من ذلك الجوِّ الذي ساد على مدينةِ الرسولِ في ذلك اليومِ التاريخيِّ . ولَقَدِ آعتمدْتُ في ذلك قِطْعَةً للمستشرقِ الألماني فونِ كريمر[٥] وَرَدَتْ في كتابه القَيِّمِ « تاريخ الثقافة في الإسلام »[٦] . أقولُ ذلك حُبّاً مِنّي بأنْ يكونَ الإنسانُ أميناً في ردِّ الفضلِ إلى أهلِهِ، وكُرهاً لأنْ يستحلَّ لنفسهِ ثَمَرَةَ ما جَهِدَ الآخرون في إنشائه أو في توجيهِ النظرِ إليه .

* * *

في يوم آلاِثْنَيْنِ الذي يَقَعُ فيه الثامنُ من شَهْرِ حزيرانَ[٧] من عامِ ٦٣٢

(أرض يخيّم عليها دالية عنب أو نحوه) . والمقصود هنا البناء . وبنو ساعدة : قوم من الأنصار (أهل المدينة من بني كعب بن الخزرج بن ساعدة)، كان سيّدهم سعد بن عبادة (بضمّ العين) ، وكان يطلب الخلافة لنفسه . طال الجدال في سقيفة بني ساعدة بين الطامحين إلى الخلافة . ولكنّ عمر بن الخطّاب حسم الموقف بأن قدّم للخلافة أبا بكر عبدالله بن أبي قحافة (ولم يكن أبو بكر من المطالبين بها) .

(١) ارتدّت قبائل من العرب في شرقيّ بلاد العرب وجنوبيّها ومنعوا إرسال الزكاة إلى المدينة ، وطلبوا أن يستوفوا حاجة مناطقهم منها أوّلاً . ولكن أبا بكر لم يقبل بذلك وأصرّ على أن تبقى العادة كما كانت في أيام الرسول (تأتي الزكاة من جميع الأقطار إلى المدينة تامّة ثمّ يرسل إلى كلّ قطر ما يحتاج إليه من المال) . وحارب أبو بكر أولئك المرتدّين (الثائرين على السلطة المركزية للمدينة) وأخضعهم .

(٢) خطبة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة (الكامل في التاريخ لابن الأثير - بيروت ٢ : ٣٢٧) ، وقد قال فيها إنّه يفضّل أن يكون الخليفة من قريش لقوّة قريش وتعوّد العرب أن يقرّوا لها بالتقدّم .

(٣) عمر بن الخطّاب لم يرد أن يصدّق أن رسول الله قد مات حتّى تلا أبو بكر عليه الآية التي ترد في نهاية هذا المقال .

(٤) لا شكّ في أنّ العاطفة ذات تأثير في البشر في كلّ زمان ومكان . وكذلك كان شأن أهل المدينة لمّا مرض رسول الله ثمّ توفّي .

(٥) ألفرد فون كريمر (ت ١٨٨٩ م) مستشرق نمساوي تطوّف في الشرق ، ومن كتبه : « تاريخ الثقافة في الشرق (المسلم) :

(٦) Kulturgeschichte des Orients

(٧) الشهر السادس في التقويم الشمسي (يونيو) .

للميلاد (والذي يُوافِقُه الثاني عَشَرَ من رَبيعٍ الأوّل من سَنَة إحْدى عَشْرَة للهجرة) ـ وحينما كانتِ الشمسُ في الزَّوال[1] ـ كان الناظرُ يرى في المدينة أمامَ مَسْجِدها جمْعاً مُحْتَشِداً ، وكنتَ ترى نفراً من الناس قد آوَوْا ، مِنْ شِدّةِ حرّ الشمس ، إلى جوانبِ البيوت يَتّقون ذلك الحرَّ عند جُدرانها الطينية . وكان جماعاتٌ آخرون من الناس يَتفيّأون الظِلال التي كانتْ شَجَراتُ النخيلِ المتفرّقةُ هنا وهناك تُلقيها على ذلك الصعيدِ[2] الطيّب . وكذلك كان هنالك قومٌ من البَدْوِ السُّمْرِ الوجوهِ أنصافَ عُراةٍ يَتّخذون وإبِلَهُمْ بينَ تلك الأشجارِ أمكِنَةً متفاوِتَةً في القُرْب والبُعد عن مسجدِ المدينة . أمّا النساءُ والأطفالُ فكانوا يَتنقّلون من مكانٍ إلى آخَرَ حَيارى أو كالحيارى ، لا يَدْرون أينَ يذهَبون ولا لِماذا يَتنقّلون .

لقد كان كلُّ شيءٍ في ذلك المشهَدِ الحائرِ يبدو وكأنّه مُنْتَظِرٌ شيئاً ما على وَشْكِ الحدوث فيَعْمَلُ على حَبْسِ الأنفاس في الصدور مرّةً ثمّ يُطْلِقها زفرةً بعدَ زفرةٍ مرّةً أُخرى . غيرَ أنّ ذلك التأوّهَ الخَفِيَّ ـ وَهُوَ يُسمَعُ حيناً بعدَ حينٍ من عَدَدٍ من البيوتِ المجاوِرَةِ ـ كان يُنْذِرُ بشُؤْمِ ذلك الحادثِ المُنْتَظَرِ ويُشَوِّهُ ، بينَ الفَيْنَةِ والفينةِ ، ذلك السكونَ الساجيَ على أفْنِيَةِ المدينة ومُنعَرَجاتِها[3] .

ذلك يومٌ لم تشهَدِ المدينةُ مثلَهُ قطُّ ، فالهدوءُ كان مُخيِّماً على كلِّ شيءٍ فيها ، حتّى على النباتِ والهواء . ولو أنّ رجلاً غريباً دَخَلَ في ذلك اليومِ إليها لَما سَمِعَ غَيْرَ خَفقانِ القلوب وتردُّدِ الأنفاسِ يَقْطَعُهما تارةً إثْرَ تارةٍ نُوَاحُ امرأةٍ تَتَفَجّعُ أو تشكو حُزْناً إلى الله وبَثّاً[4] . كلُّ هذا كان يجري على مقرُبَةٍ من مسجد المدينة .

لم يكن مسجدُ المدينة مُخْتَلِفاً في مَظْهَرِه الخارجيّ مِمّا يُجاوِرُه من البيوت : لقد كانت جُدرانُه كجُدرانِها لا تعلو عن قامةِ الرجلِ كثيراً . أمّا سقفُه

---

(١) الزوال : اجتياز الشمس خطّ نصف النهار (كبد السماء) : الظهر .
(٢) الصعيد : التراب ، الأرض .
(٣) الفناء (بالكسر) : الأرض الواسعة . المنعرج : الطريق ، والمنعطف في الطريق .
(٤) البثّ : الحزن الشديد الذي لا يطاق ولا يمكن الصبر عليه .

فكان من جريدِ النخلِ وأغصانِ القَتاد المَضْروبةِ بالطين[1] والكِلْس لِتَصُدَّ ما أمكن أنْ تصُدَّهُ من هُبوبِ الزوابعِ النَّزْرةِ[2] في أيام الشتاء وتَرُدَّ - في أيامِ الصيف - أذى الحرّ عنِ المُصَلّينَ . أمّا في المسجدِ نفسِه فكان نَفَرٌ من الرجال جلوساً قَلِقِينَ يَنْتَظِرون أذانَ الظُّهْرِ ولا يَدْرون مَنْ سَيَؤُمُّهم[3] في صَلاتِهم المُقْبلة .

بعد ساعة ، وقف بِلالٌ[4] مُؤَذّنُ الرسولِ على مِنَصّةٍ عادِيّةٍ صُنِعَتْ من جُذوعِ النخيل وسُوِّيَتْ بالطين - على مقرُبَةٍ من باب المسجد الوحيد - يدعو المُؤمنين إلى الصلاة المكتوبة بصوتِه الشَّجيِّ[5] الذي يَبْعَثُ الخشوعَ في النفوس ويملأ القلوبَ آطمئناناً من الإيمان والتقوى . وبدأ الناسُ يتقاطَرون إلى المسجد لأداء الصلاة جماعةً في وَقْتها ، ثمّ تقدّم إلى جانبِ المحراب رجُلٌ قد ناهزَ السِّتين من عُمَرِه أو زادَ عليها قليلاً ، أسمرُ اللونِ حادُّ الوِسام[6] بارِزُ تقاطيعِ الوجه قد خَضَبَ لِحْيَته بالحِنّاء لَيُخْفي ما فيها من شَعْرٍ أبيضَ جَرْياً على سُنّة العرب يومَذاك . أمّا جَبْهَتُه البارزةُ تحت عِمامته فما آختلفَ آثنانِ في أنّ تلك الجَبْهة كانتْ تَنِمُّ عن ذكاءٍ نادرٍ وتدُلّ على حكمة وأَناةٍ[7] واسعتين . غيرَ أنّه كان يبدو أكبرَ مِمّا يَعْرِفُ الناسُ من مِقدارِ عُمُرِه . ولم يكُنْ في الحاضرين أعظمُ منه جلالاً وهيبةً .

ذلك الرجُل كان أبا بكرٍ عبدَ اللهِ بنَ أبي قُحافةَ والِدَ السيّدة عائشةَ زوجِ الرسولِ ﷺ ، ألقى على الجَمْعِ الغفير في المسجد التحيّةَ :

---

(١) القتاد : شجر ذو أوراق إبريّة كالشوك . المضروب بالطين : الممزوج بالطين حتّى يتماسك ويؤلّف سطحاً أو نحو ذلك .

(٢) النزر : القليل .

(٣) أمّ الرجل أصحابه في الصلاة : قادهم فتبعوه (كان إماماً لهم) .

(٤) أبو عبدالله بلال بن رباح (ت ٢٠ هـ) كان عبدا حبشيّا اعتنق الإسلام باكراً ولقي في سبيل ذلك تعذيباً شديداً .

(٥) الشجيّ : الحزين والمطرب . والصوت الشجيّ ما كان فيه شبه بحّة (بالضمّ) ، وهو مستحب في الإنشاد .

(٦) حادّ الوسام (مستقيم تقاطيع الوجه : ظاهر خطوط الوجه) .

(٧) الأناة : التأنّي والحلم واللين .

- السلامُ عليكم .

فردّ الجميعُ :

- وعليكُمُ السلامُ ورحمةُ الله وبَرَكاتُه .

ثمّ تقدّم أبو بكر إلى المِحراب لِيَؤُمَّ الناسَ في صَلاتِهم ، فقد عَهِدَ محمدٌ رَسولُ اللَّهِ ﷺ إلى أبي بكرٍ (رضي الله عنه) بالصلاة بالناس .

تلك الحادثةُ - العهدُ بالصلاة إلى أبي بكرٍ - أثارتْ ضجّةً في المدينة وحَيْرةً ، ذلك لأنّ النبيَّ كان ، بِرُغْمِ مرضهِ في الأيام السابقة المُتواليةِ ، يُصلّي بالناس بنفسِه ، حتّى أنّه جاء إلى المسجد في صَباحِ ذلك اليوم عينهِ (لصلاةِ الفَجْرِ) ، فرآه الناسُ وآستبشروا بقُربِ شِفائه . . . ولكنّ الرسول لم يتمكّنْ في تلك الساعةِ من المجيء إلى المسجد (لصلاة الظُّهر) ، فقد كان على فراشِ المرض في غُرفة زَوْجِهِ عائشةَ .

هنالك كان يرقُدُ الرجلُ الذي أيّده الله في نَشْرِ دينٍ هو التوحيدُ المطلَقُ ، بعدَ أن مرّ على الناس مئاتٌ من القرون لم يَدْروا فيها ما التوحيدُ ولا ما الإيمانُ . هنالك كان الرجلُ الذي فتح مكّةَ - مَعْقِلَ الوثنية في بلاد العرب - وجعل منها قِبلةً للتوحيدِ يتوجّه إليها المؤمنون في صَلاتِهم في جميعِ أقطارِ الأرضِ ويحُجّ إليها المؤمنون من جميعِ أقطار الأرض . هنالك كان على فراشِ المرض ذلك الرجلُ الذي هَدَمَ الأصنام وكَسَرَ شوكةَ الوَثنية فجَمَعَ العربَ على دينٍ واحدٍ ورأيٍ واحدٍ وجعل جميعَ البشرِ في الدين سواءً : أبيضَهم وأسودَهم وأحمرَهم[1] وأسمرَهم وأشقرَهم وسيِّدَهم وعبدَهم وغَنِيَّهم وفقيرَهم وقويَّهم وضعيفَهم . هنالك كان ذلك الرجلُ مُسْتَلْقِياً على فراشه الخَشِنِ يكافِحُ نَوْباتِ الحُمّى التي عادت إلى آلإشتداد في جِسمه بينَ الصُّبْح والظُّهر آشتداداً عظيماً .

أخذتْ قُوّتُه تفترُ رُوَيْداً رويداً ، وكانتْ من قبلُ تَقْبِضُ على جميعِ بلاد العرب بيدٍ بعضُها من عَزْمٍ وقُوّةٍ وبعضُها الآخَرُ من لِينٍ ورحمةٍ . ثمّ أخذَ نَفَسُه

---

(١) الأحمر : العجم (الفرس) .

الطاهرُ يتردَّدُ في صَدْرِه بِبُطْءٍ وعُسْرٍ ، بينَما أنفاسُ النساء حولَه تخبو لِخُبُوِّ ذلك النَّفَسِ الطاهرِ وتَقْوى لِقُوَّته . وأمّا الناسُ في الخارجِ ، حولَ البيوت وقُرْبَ المسجدِ ، فكانتْ تَمرُّ بِهِمُ الساعاتُ العصيبةُ وهم لا يَدْرون ما تُخَبِّىء لَهُمُ الساعاتُ التي تَلِيها . كانوا كُلُّهم يَنتظرون ، ولكن لا يَدْرون ما الذي يَنْتَظِرونَه .

أخذت عائشة يدَ رسولِ الله ، وَهِيَ تُرَدِّدُ قولَها : « آللّهُمَّ ، آصْرِفْ عنه ما به من الشرّ » . وكان النساءُ حولَها يُؤَمِّنَّ[1] على دُعائها هذا ويُلْقِينَ بدُموعِهِنَّ على الجوّ كُلِّهِ مسحةً من الحُزْنِ صادِقَةً .

وفَتَرتْ سَوْرةُ[2] الحُمّى عنه قليلاً ففتَحَ عَيْنَيْهِ ، وكان قُرِبَهُ قَدَحٌ فيه ماءٌ ، فكان يُدْخِلُ يدَه في القدحِ ثمّ يمسَحُ وجهَه بالماء ويقول : « آللّهُمَّ ، أعِنّي على سَكَراتِ الموت » . ثمّ أشار إشارةً عَرَفَتْ عائشةُ منها أنّه يُريدُ سِواكَه[3] . فأخذتِ السِّواكَ ولَيَّنَتْهُ ثمّ ناوَلَتْهُ إيّاه .

بعدَئذٍ نَظَرَتْ عائشةُ إلى وَجْهِهِ وإذا بَصَرُهُ قد شَخَصَ[4] وَهُوَ يقولُ : « بلِ الرفيقُ الأعلى »[5] . وعاد فأغْمَضَ عَيْنَيْهِ . فعادتْ عائشةُ إلى دُعائها الأوّلِ . ثمّ إنّ عائشةَ رفعَتْ يَدَه ثانيةً ، فإذا هِيَ تَتَصَلَّبُ شيئاً فشيئاً . ولمّا تَرَكَتْها سَقَطَتْ لا حِراكَ بها ، وإذا مُحَمّدٌ قد مات .

« وما مُحَمَّدٌ إلاّ رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أفإنْ ماتَ أوْ قُتِلَ آنْقَلَبْتُم على أعْقَابِكُمْ . ومَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً . وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ »[6] . ـ صدق الله العظيم .

٢٧ / ٢ / ١٤٠١   ١ / ٥ / ٨١ .

---

(١) أمّن على الدعاء : قال آمين (استجب ، يا ربّ) . يدعو الإمام على المنبر بخير فيؤمّن الناس (يقولون : آمين) .
(٢) سورة : شدّة .
(٣) السواك : قطعة من غصن شجر الأراك (يتألّف لبّه من ألياف مغلّفة بلحاء ـ بالكسر ـ بقشرة تنفصل بسهولة) ويستخدم السواك في تنظيف الأسنان من بقايا الطعام .
(٤) شخص بصره : فتح عينيه ولم يحرّكهما عجزاً أو دهشة .
(٥) الرفيق الأعلى : (الله تعالى) .
(٦) القرآن الكريم ٣ : ١٤٤ ، سورة آل عمران .

الجانب الاجتماعي من العبادة

هنالك أشخاصٌ إذا أنتَ نبّهت على شيء من تهاوُنِهم بأمرِ الشَّرع ، أو إذا قرّعتَهم على إهمالهم لشأنِ إخوانهم باسْمِ الدّين ، اعتذروا عن تهاوُنِهم أو عن إهمالهم بقولِهم لك : يا أخي ، الدينُ شيءٌ بينَ الإنسان وربّه .

والحقُّ أنّ الصِلةَ بينَ المرء وربّه جانبٌ من الدين ، ولكنها ليستِ الدينَ كلَّه . فهنالك أيضاً الصِّلةُ بين الإنسانِ والإنسان ، وهي جانبٌ آخرُ مُهِمٌّ من الدين لا يَتِمُّ الإسلامُ إلّا بهِ . بل لعلّ الصلةَ التي بينَ الإنسانِ وأخيه الإنسان أعظمُ أهَميّةً في الإسلام من الصلة التي بين المرء وربّه . ولعلّي لا أُثير استغرابَ أحدٍ منكم إذا رَددتُ الآنَ أمامَكم الحديثَ الشريفَ : « الخَلْقُ كُلّهُمْ عِيَالُ الله ، فأحبُّهم إليه أنفعُهم لعِياله » . فأنتم قد رأيتم هذا الحديثَ مرقوماً بخطّ جميل في قِطَعٍ يُحيطُ بها إطارات مُذْهَبَةٌ ، في أماكنَ كثيرةٍ : في المساجدِ والنوادي والمنازل . بل لقد كثرتْ رؤيتُكم لهذا الحديث الشريفُ مُعَلّقاً في تلك الأماكنِ حتى فَقَدَ كلَّ معنىً في نفوس نفرٍ منكم . ولكنني قد أُثيرُ استغرابَ بعضِكم إذا أنا استشهدتُ بالحديث الشريف الذي يقول : « ما آمَنَ من باتَ شَبْعَانَ وجارُه جائعٌ إلى جَنْبِه وهو يعلم » . أليسَ غريباً ، في رأي بعضِكم ، أنّ إيمانَ شخصٍ من الناس باللّهِ وبرسوله وباليومِ الآخر ، وأنّ صلاتَه وصِيامه وحَجّه أمورٌ كُلُّها لا قيمةَ لها إذا كان ذلك الشخصُ يتغافلُ عن جاره الجائع وهو يستطيعُ أن يسُدَّ له جَوْعته بكِسْرةِ خُبزٍ ؟ . لا ، يا سادتي ، ليس ذلك غريباً ، ويَجِبُ ألاّ

(*) كتبت هذه المحاضرة في عاشر رمضان ١٣٧٥ هـ (٢٠ / ٤ / ١٩٥٦ م) .

يكونَ غريباً . إن تلك العبادةَ الشكليةَ التي يظُنّ نفرٌ مِنّا إنها الصِلةُ التي تَرْبِطهم بالله لا تنفَعُ اللّهَ في شيء ؛ فاللّهُ غنيٌّ عن عباده . واللّهُ سبحانه وتعالى لم يبعَثْ رُسُلَه إلى البشر إلاّ لِيَهْدِيَ البشرَ أنفُسَهم ويهذّبَ نفوسَهم وينفَعَ بعضَهم ببعضٍ ويرُدَّ أذى بعضِهم عن بعضٍ .

لا ريب في أن الله تعالى قد أوجب على الناسِ عبادةً هي صلةٌ بينَهم وبينَه ، ولا ريبَ أيضاً في أن الإنسانَ لا يستطيعُ أن يسمُوَ إلى الآفاقِ الروحية العُلى إلا بتلك العِبادة التي يخلو فيها المخلوقُ بخالقهِ مرةً بعدَ مرةٍ ، ولكنّ تفكيرَ الإنسان بأخيهِ الإنسانِ ، وبالمجموعِ الذي هو جزءٌ منه ، عبادةٌ أيضاً . ولن يَتِمَّ إيمانُ أحدٍ ـ وخصوصاً في الإسلام ـ إلاّ إذا جمعَ من عِبادتِه طرفَيْها : آتصالَه الروحيَّ بالله وصِلتَه آلاِجتماعية بأخيهِ الإنسانِ .

بعد هذه المقدمة العامة المُجرّدة أوَدّ أن أخلُصَ إلى عددٍ من الأمثلة تصف بعض العِبادات في أشكالها التي ألِفَها مُعظمُ المسلمين ثم أَصِفَها على الشكل الذي ورد لها في الشرع . وسأبدأُ بالحجّ ، لأن الحجَّ عبادةٌ يَغْلِبُ فيها الجانبُ آلاِجتماعي غَلَبَةً ظاهرةً .

للحجِّ اليومَ صورتانِ عامّتانِ يعمَلُ بهما مُعظَمُ المسلمين : فالصورة الأُولى هي الطريقةُ التي يحُجُّ بها الفقراء ، والصورة الثانية تمثّلُ الطريقةَ التي يحُجُّ بها الأغنياء . وسأكتفي أنا بوصف الطريقتين وصفاً لا أتكلف فيه شيئاً ، وسأجعله وصفاً قَصَصِيّاً أسرُده سرداً فأتتبّع خُطُواتِه على ما يُعْلَنُ في الجرائد . أما حجُّ الفقراء فيجري على المِنهاج التالي :

تُنْشَرُ الإعلانات في الجرائد وعلى الجُدران عن حجّ بيتِ الله الحرام ، فيقرأُها عددٌ من الذين أرادوا الحجَّ أو تُقرأ لهم . ويدفع هؤلاء مبالغ كانوا قَدْ جمعوها إلى أشخاصٍ تنتدِبُهم شَركاتُ النقل . وفي موعدٍ ما تنطلقُ سيّاراتٌ كبيرةٌ إلى المدن تجمَعُ عدداً من هؤلاء وتأتي بهم إلى مرفأٍ كبير . ويبقى هؤلاء في ذلك المرفأ الكبيرِ ريثما تُنْهي شَركاتُ النقل لهم

أوراقَهُمُ القانونيةَ وريثما تحضُرُ الباخرةُ التي ستنقلُهم إلى الحجّ . وحينما تصلُ الباخرةُ ينقلِ هؤلاء إليها مَعَ أمتِعَتِهم ، وتسيرُ بهم الباخرة إلى جُدّةَ . ويَنْزِلُ هؤلاء في جُدّةَ ثم ينتظرون دَوْرَهُم حتى تنقُلَهُمُ السياراتُ الكبيرةُ إلى مكّةَ المُكرمة . وفي مكّة يُعطى كل فريقٍ منهم إلى مُطَوِّفٍ مخصوصٍ فينقُلُهم ذلك المُطوّفُ إلى بيوت أعدّها لأمثالهم في كُلّ عامٍ . والغالبُ أَنّ قِسماً كبيراً من الحجاج لا يَعْرِفُون المشاعِرَ (الأماكنَ المقدّسة) بأنفسِهم ولا يحفَظون ما يُقال عادةً عند كُلّ مشعَرٍ ، أو لا يستطيعون حِفْظه . من أجلِ ذلك يَنْطَلِقُ جماعاتٌ من هؤلاء وراءَ المُطوّفِ في هذه المشاعرِ وهم يُردّدون الأدْعِيَةَ التي يجهَرُ لهم بها كَلِمَةً كلمة . ومن الغنيّ عن البيان أن نقولَ إن قِسماً من هؤلاء لا يحفظون ما يَقولُه المُطوِّفُ ، ولعلّ بعضَهم لا يُحْسِنُ أداءه أيضاً . وهكذا يدور المُطوّفُ بهؤلاء فَيطوفُ بهم حولَ الكعبة سبعَ مراتٍ طَوافَهُمُ الأوّلَ ثم يصلّي بهم عند مقام إبراهيم ، ثم يسعى بهم بينَ الصفا والمروة . وفي اليوم التاسع من ذِي الحِجّة يصعَدُ بهم إلى جبل عَرَفاتٍ لِيَقِفوا ولو لحظةً ، ثم يَنْزِلُ بهم من جبل عَرَفاتٍ لِيَبيتوا ليلةَ عندَ مِنَى . وفي صبيحةِ يومِ عيدِ الأضحى ، في العاشرِ من ذي الحِجّة يذهبُ بهم إلى مِنى ، وهنالك يُكلِّفُ كُلُّ حاجٍّ منهم شخصاً من القصّابين لِيَذْبَحَ له ذبيحةً بأجْرٍ معيّن . وينتقل المُطَوّفُ بمن معه إلى العَقَبة في أولِ يومٍ من العيد فيرمون جَمْرَةَ العَقَبة ثم يعودُ بهم إلى مكة ويطوف بهم حولَ الكعبة سَبْعَ مراتٍ مِنْ جديد . وفي اليومِ الثاني والثالثِ من العيد يذهبُ بِهِمُ المُطوفُ إلى مِنى لرمي بقيةِ الجَمَرات هناك . وينتهي بذلك الحجُّ . بعدَئذٍ يُنقَلُ هؤلاء إلى بلادِهم بالطريقة التي نُقلوا بها إلى الحجّ . ويقضي الحاجُّ من هؤلاء نحوَ شَهْرٍ أو شهرينِ أو ثلاثةِ أشهُرٍ بينَ تركهِ لبلاده وبينَ عودته إليها ، يقضي خمسةَ أيامٍ منها في مشاعرِ الحجّ ، ثم يقضي ما تبقّى في السفرِ وانتظار دَوْره في السياراتِ والبواخرِ ، حَسْبَ قُربِ بلادِه أَوْ بُعْدِهَا من الحِجاز .

أما الأغنياء من التجار الكِبار وأرباب المعامل والمناصب الرفيعة أو من الملاّكين العِظام والوارثين المُترَفين فلا يختلفُ حَجّهم من حجِّ أولئك الفقراءِ إلا

في ٱختصار الزمن : فإنّ أحدَهم قد يُغادر بلده بالطائرة في اليومِ السابعِ من ذي الحِجّة ، ثم يقومُ مَعَ مُطوفهِ بجميع المناسك في الأيامِ الثلاثةِ التالية : في الثامنِ والتاسع والعاشر من ذي الحِجّة ، لأنه إذا وقف في عَرَفةَ ثم توجّه في صبيحةِ العيد - أي في العاشرِ من ذي الحِجّة - إلى مِنى ليقدِّم أضحِيَتَهُ تَمّ حَجُّه شرْعاً . ثم إن هذا الغنيَّ قد يعود إلى بلده في الطائرةِ أيضاً فلا يكونُ حينئذٍ قد قضى في حَجّه أكثر من أربعةِ أيامٍ .

ومع ذلك كله فحجُّ هؤلاء الفقراءِ والأغنياءِ صحيحٌ شَرْعاً ، لأن هؤلاء كُلَّهم قاموا بحَجِّهِم هذا طائعين مُختارين مُخْلصين . ولكنّ حجَّهم ليس الحجَّ الأمثلَ في الإسلام . يحسُنُ بالحاجِّ المسلم إذا عزم على الحجّ أن يرتِّبَ أعمالَه في بلدِه وأن يؤمِّن سَيْرها في غِيابه حتى يستطيعَ أن يتفرّغَ للواجبات ٱلإِجْتماعية التي يلقيها مَوْسِمُ الحجّ على أمثاله . ثم عليه أن يُغادرَ بلدَه باكراً حتى يستطيعَ أن يَصِلَ إلى الحِجاز قبلَ بدء المناسك بشهرٍ أو نحوه ، فيجتمعَ في أثناء تلك المُدة بإخوتِه المسلمين الذين جاءوا من أقطار الأرض لِمِثل غايته . حينئذٍ يتداولُ هؤلاء جميعاً الأحاديثَ في حال العالم الإسلامي ويتعرّف بعضُهم وُجوهَ بعضٍ ويفتَحُ بعضُهم قلوبَهم لِبعضٍ ويَعْرِفون جميعُهم من هذا ٱلإِحْتكاكِ الشخصيِّ أحوالَ العالمِ الإسلاميِّ معرفةً صحيحة . ولا نَزالُ نحن إلى اليومِ في حاجةٍ إلى هذه المعرفة ، لأن كُتُبَ الأغيارِ وجرائدَ ٱلإِسْتعمارِ ومحطاتِ الإذاعة التي يسيطر عليها أعداؤ نا وخصومُنا تشوّه أخبارَ المُسلمين الذين يَرْزَحون في الحكم الأجنبي ، أو تُغْفِلُ أخبارَهم مرةً واحدة . من منكم يعلَمُ أن الحبشة اليومَ تحكُمُ تسعةَ ملايينَ من المسلمين يُشَكّلونَ خمسةً وأربعينَ بالمائة من سُكانها على ما تُخْبِرنا مصادرُ التبشير وٱلإِسْتعمار نفسُها ؟ وقد تكونُ هذه النسبةُ أكبرَ ، ومعَ ذلك فإن المسلمين يعيشون في تلك البلادِ في ظُلم وضِيق كبيرين . إن المسلم في مملكةِ هيلاسيلاسي لا يستطيع أن ينالَ جوازَ سفر حتى يستطيعَ الخروجَ لطلبِ العلم أوِ السياحة ، وهو بطبيعةِ الحال لا يتمتعُ بحقوقِه الكاملة . أما ٱلأمْتيازات فليس له منها شيءٌ . من منكم يعلَمُ أنّ خمسةَ ملايينَ من

المسلمين يعيشون في شرقيّ إفريقية البريطانية ، المستعمرة البريطانية التي نشأت فيها حركة الماوماو ؟ وليس المسلمون في تلك المستعمرة أقليةً صغيرةً ، بل هم يزيدون على رُبعِ السكان ، ثم هم بلا ريبٍ في الطبقة المثقفة الراقية .

في هذه الأثناء يحُلُّ مَوْسِمُ الحجّ فيبدأُ هؤلاء الحجّاج المثقّفون الواعون الذين وصفتُهم قبلَ بضعة أسطرٍ بالقيام بمناسكهم بأنفسِهم . إنهم لا يَتْبعون المُطَوِّفَ ، ولا يُردِّدون بعدَه ما يُلقيهِ عليهم ، ولا يحتاجون إلى من يشرَحُ لهم معانيَ تلك المشاعرِ ، لأن ثقافَتَهمْ الأولى وبقاءَهم الطويلَ قد جَعَلاهم على علمٍ بكل ما حَوْلَهم . بعدَئذٍ يَعْقِدُ هؤلاء مؤتمراً لهم ـ لأن الحَجَّ نفسَه مؤتمرٌ كبير ـ ويتداولون في أحوالِ بلادِ الإسلام وفي ما يجب عملُه في تلك البلاد حتى يرتفعَ ما فيها من شرّ ويزيدَ ما فيها من خير ، وحتى تتوحّد أهدافُها ومَناهِجُها وخُطَطُها ، وحتى ينتفعَ بعضُها بفضلِ بعضِها الآخَرِ من العِلم أوِ المال أوِ الحضارة أوِ التجارة . ثم يتفرّقُ هؤلاء إلى بلادِهم ليقومَ كُلُّ واحدٍ منهم في بلدِهِ بما ٱتفقوا كُلُّهم عليه ، على أنْ يعودوا كُلُّهم ، أو يعودَ بعضُهم في عامٍ تالٍ قريب ، أو يجيءَ نفرٌ ٱتصلَ بِهِمْ هؤلاء ، فيتداولوا مَعَ إخوانِهِمُ الآتين من سائرِ أقطارِ الأرض في ما كان الذين سَبَقوهم قد تداولوا فيه . وهكذا يكونُ الحجُّ في الحقيقة مؤتمراً إسلاميّاً عامّاً دائماً ، وهكذا يكونُ الحجُّ في الإسلام قد أدّى رِسالَتَه الاُجتماعيةَ . أمّا الجانبُ الدينيّ منه من طَوافٍ ووُقوفٍ بعَرَفَةَ وسَعْيٍ بين الصفا والمروة وذبحٍ فإنه يَتِمّ في ثلاثةِ أيامٍ ، بنصّ القرآنِ الكريم . ثم إنّ الحاجَّ إذا اضْطُرَّ إلى أنْ يتأخّرَ في مناسكهِ يوماً أو يَوْمَيْنِ أو أن يتقدّمَ يوماً أوْ يومَيْنِ فإنّ حجّه يَصِحُّ أيضاً . وفي ما يلي آياتُ الحجّ المتعلقةُ بهذا المَنْهج :

ـ قال الله تعالى في الآية السابعة والتسعين من السورة الثالثة ، سورةِ آلِ عِمرانَ : ﴿ **وللّهِ على الناسِ حِجُّ البيتِ مَنِ ٱستطاعَ إليه سبيلاً** ﴾ . فالحجُّ ليس واجباً على كُلّ مُسلم ، بل هو واجبٌ فقط على المستطيع . والمستطيعُ هو الذي ٱجتمعتْ فيهِ شُروطٌ تجعَلُ الحجَّ فرضاً عليه . من هذه الشروط الثروةُ والصِحة والعقل وأمْن الطريق . ولا شكَّ في أن الذي يجعَلُ للحجِّ معنىً

آجتماعيّاً أنْ يكون الحاجُّ من الذين يُحسنون الخِدْمة العامّة لِقَوْمِهِمْ أو يَقْدِرون عليها . فالفقيرُ الذي يستدين لِيَحُجَّ ، أوِ الذي يَحُجُّ بمالٍ يحتاجُ إليه أولادُه لِمَعاشهم أو لِعِلْمهم ، أوِ الذي يُقَتِّرُ على نفسِه وأهلِهِ لِيجمَعَ دَراهِمَ تُمكّنه من قطعِ المسافة بين بلدِهِ وبين مكّة ، فهؤلاء لا يجوزُ حجُّهم . وكذلك المريضُ والعليلُ والذي به عاهةٌ في جسدِه تقتضي أن يُساعِدَهُ الناسُ على التنقّل أو على القيامِ بمناسكه لا يَجوزُ لهم أن يَحُجّوا . ثم إن الصغيرَ والمعتوه والمجنونَ لا يجوزُ لهم أن يحُجّوا ، لا لأنهم لا يستطيعون أن يركَبوا في الباخرة والطائرةِ ولا لأنّهم لا يَعْرِفون أن يطوفوا حولَ الكعبة أو لا يقدرون أن يقفوا على جبل عَرَفاتٍ معَ الناس ، ولكنْ لأن حجَّهم لا يُؤدّي الغايةَ الاْجتماعية من هذا الرُّكْنِ الإسلاميّ .

- وقال الله تعالى (٢٢ : ٢٧ - ٢٨ ، سورة الحجّ) :

﴿ **وأذِّنْ في النـاس بالحـجِّ يأتـوكَ رِجـالاً** (أي مُشـاةً ، على أرجُلهم)**وعلى كلِّ ضامرٍ** (أي جَمَلٍ مهزولٍ نحيفٍ لِطولِ المسافةِ التي قَطَعها) **يأْتِينَ من كلِّ فَجٍّ عميقٍ** (طريق بعيدة) **لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لهم ويذكُروا آسْمَ الله في أيّامٍ مَعْدوداتٍ على ما رَزَقَهُمْ من بَهيمةِ الأنعام . فكُلوا منها وأطْعِموا البائسَ الفقير . ثُمَّ لْيَقْضوا تفَثَهم** (أي يُزيلوا أوْساخَهم بعدَ آنْتهائهم من مناسكِ الحجّ) **ولْيُوفُوا نُذورَهم ولْيَطَّوَّفُوا بالبيتِ العَتيق** ﴾ .

- ويتعلق بهاتين الآيتين ما جاء في سورة البقرة (٢ : ١٩٦) :

﴿ **الحجُّ أشْهُرٌ معلوماتٌ ، فَمَنْ فَرَضَ فيهِنَّ الحجَّ فلا رَفَثَ** (تكلُّمٌ بكلامٍ قبيح) **ولا فُسوقَ** (عِصيانٌ لأوامرِ الله) **ولا جِدَالَ في الحجّ . . .** ﴾ .

من كل ما تقدّمَ نرى أن الإسلامَ فرض الحجَّ أشهُراً ، ثلاثةَ أشْهُرٍ مثلاً ، ولكنه جعل مَناسِكَ الحجِّ الدينيةَ تَتِمّ في ثلاثةِ أيامٍ فقط . أما الأيامُ الباقيةُ من الأشهُر الثلاثةِ فيجب أنْ يَقْضِيَها الحُجّاجُ في الجانبِ الاْجتماعي من هذا الركن العظيم يَتَدَاولونَ في شُؤون البلادِ الإسلامية وفي ما يُؤدّي إلى توثيقِ الصِلاتِ

بينَ الأقطارِ الإسلامية وفي ما يرفَعُ من شأنِها في كُلِّ مَيْدانٍ من مَيادينِ الحياة .

وكذلك الزكاةُ عِبادةٌ آجتماعية في المَقام الأوّل . والزكاة مِقدارٌ من المال (أو من البضائع العَيْنيةِ : غنمٌ ، بقر ، قمحٌ ، عسل ، نسيجٌ ، الخ) يُخرجُه المُسلمُ مرّةً في السنة عمّا يَمْلِكُ من مال ومتاع ونتاجٍ نباتيٍّ وحيوانيّ . أمّا مِقدار الزكاة فهو آثنانِ ونصفٌ بالمائة ممّا يَمْلِكُه الفردُ من أولئك الذين يبلُغ ما يَمْلِكون مائةَ دِرْهم وَزْناً من الذهب (أو ثلاثِمائةٍ وخمسةً وعِشرين غِراماً : نحو آثْنَيْ عَشَرَ جُنيهاً انكليزيّاً ذهباً) . ويُشترط أيضاً أنْ يكونَ قد مرّ على هذا المَبْلغ (من النقد) أو على ما يُمَثِّلُه هذا المبلغُ (من أشكالِ الثروة) حولٌ (عامٌ) كاملٌ . إنّ إحدى غاياتِ الزكاة أنْ تكون ضَريبةً على المالِ المُدّخر (الكَسْلانِ) الذي لا يُؤدّي خِدمةً آقتصاديةً في المجتمع .

وللزكاةِ على الأبنيةِ والأراضي خاصّةً بحثٌ يأتي في مكانِهِ من هذا المجموع من البحوث .

إنّ مبلغَ آثنينِ ونصفٍ بالمائة مبلغٌ ضئيلٌ في الحُسبان ، ولكنّه كبيرٌ في النتيجة . إنّ في كلِّ ألفِ ليرةٍ خمساً وعشرينَ ليرةٍ . وفي كلِّ مِليونِ ليرةٍ خمسةً وعشرينَ ألْفاً . والمسلمونُ الذين يَمْلِكُ أحدُهم مائةَ مِليونٍ (اليومَ ، ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م) كثيرون ، وخصوصاً في بلاد النفط . إذا فَرَضْنا أنّ أرصدة جانبٍ من المسلمين في المصارف العالمية خمسةُ آلافِ مِليونِ دولارٍ ، فإنّ الزكاة على هذا المبلغ : ١٢٥,٠٠٠,٠٠٠ دولار (ففي هذا المبلغ ما يحلّ مشاكلَ آقتصاديةً وآجتماعيةً في العالم الإسلاميّ لا عددَ لها) . ويبدو أن أرصدةَ الأغنياء من المسلمين أكبرُ من ذلك كثيراً ، عشرةُ أضعافٍ أو مائةُ ضَعْفٍ .

ولكن ممّا يؤسف له أن مُعْظَمَ أصحابِ الثّرَوات الكبيرة يتبرّعون في كلّ عامٍ ـ على عيونِ الناس ـ بمبالغَ رمزيّةٍ . توفّي في هذا العام الجاري رجلٌ في بيروت كان يَمْلِكُ ثروة (مُعْظمها من الأراضي في أحسنِ بِقاع البلد) ، وكان مجموعُ هذه الثروةِ نحوَ أربعةِ مِلياراتٍ من الدولاراتِ . فإذا نحن عَلِمْنا أن والدَ

هذا الرجل قد تُوُفِّيَ عام ١٩٤٨ (منذ ثلاثةٍ وثلاثينَ عاماً) ، فإنّ المبلغ الذي وَجَبَ عليه على ثروتهِ في هذه المدّة كان مليارينِ ونصفَ مليارٍ من الدولارات (إنّ الحساب يدُلّ على أنّ كلّ ثروةٍ مُدَّخرة كسلانة لا تُسْتَغَلُّ وتدفعُ الزكاةَ - ٢,٥ ٪ - تخسَرُ نصفَ مجموعِها في سَبْعةٍ وعشرينَ عاماً) . ولا أعلم أن هذا الرجلَ كانَ يدفَعُ زكاةً أو يدفَعُ المقدارَ الواجبَ عليه من الزكاة .

وبعدُ ، فماذا يفعل المسلمون بزكاتهم ؟

إن نفراً كثيرين من أغنياء المسلمين قد نَسُوا أن الزكاةَ ركنٌ من أركان الإسلام . ثم إن نفراً منهم لا يزالون يذكُرون أن الزكاة من أركانِ الإسلام ، ولكنهم يُخرجون جزءاً مما يتوجبُ عليهم من الزكاة من طريق التبرع العَلني للجمعيات الخيرية ليصيرَ نشرُه في الجرائد وفي البيانات التي تنشُرها تلك الجمعيات . إن هؤلاء مشكورون على كل حال - وإن كانوا لا يُخرجون الزكاة المتوجبة عليهم كاملةً - لأنهم يُحافظون على ركنٍ من أركانِ الإسلام بعضَ المحافظةِ ولأنهم يقومون نحوَ بلادِهم وأُمّتهم بشيءٍ مما يجب عليهم . ثم هنالك المسلمون الذين يحتالون على الشرع ، هؤلاء الذين يَحْسَبون ما يتصدقون به طَوْعاً من قروشٍ وليرات طَوالَ العامِ وما يُضْطَرّون إلى التبرُّعِ به ، ويحسبُون كذلك ما هَلَكَ من دُيونِهم المختلفة - على أن المَدين الذي لا يستطيع وفاءَ دينِه فقيرٌ - ويحسبُون أيضاً ما يلزمُهم من النفقة على خَدَمِهم وعلى أقارِبهم الذين لا يعيشون مَعَهم ، ثم يطرَحون ذلك كلَّه من أصلِ الزكاة المتوجبةِ عليهم . وهؤلاء أيضاً مشكورون لأنهم يُؤَدّونَ واجباً آجتماعياً على كل حال . ثم هنالك جماعةٌ آخَرون يُقدّرون ما عليهم من الزكاة تقديراً ، فيُخمّنون زكاتَهم بعشرةِ آلافِ ليرةٍ مثلاً . ولكن هذا المبلغ : عشرةَ آلافِ ليرةٍ يعظُمُ في خَيالهم شيئاً فشيئاً فيَعزُمون بعدَ يومٍ أو يومين من التردُّد ومن تنازُعِ النفس بين حُبِّ المال ورَهْبةِ الدِينِ على التبرُّعِ بسبعةِ آلافِ ليرة - وفي رأيهم أن سبعةَ آلافٍ مبلغٌ ضخمٌ . ثم يتناقص هذا المبلغُ في مُناسباتٍ أُخْرى مرةً أو مرتين ، فإذا أخرج أحدُ هؤلاء زكاتَه في آخِرِ الأمر لم يَزِد ما

يتصدّقَ به على ألفين أو ثلاثةِ آلافٍ ، وهؤلاء أيضاً مشكورون لأنهم أفضلُ من الذين لا يُخرجون زكاةً البتّةَ . أما المُسلمون الذين يَجْلِسُ أحدهم في مطلع شهرِ رمضانَ إلى دفاترِه وإلى ضَميرِه ثم يأخذ القلمَ ويُدوّن به على الورقةِ ما يتوجّبُ عليه من زكاةٍ على أموالِهِ المجموعةِ في جميع أشكالِها من رصيدٍ في المصارف ومن مالٍ في صُندوقه وحُليٍّ كثيرةٍ عند أهلِهِ وديونٍ ثابتةٍ له عند الناس ، ثم يستخرجُ الزكاةَ الصحيحةَ عليها ويتصدقُ بجميعِ ما يَجِبُ عليه ، فهؤلاء قليلون جِدّاً .

وبعدُ ، فإن قيمةَ الزكاةِ الشرعية تكون بإخراجها ، أيْ بأنْ يتقيَّدَ المسلمُ بأمرِ الله فيدفعَ منَ مالِهِ في كُلِّ عامٍ ما يَجِبُ عليه للفقراء . أما قيمةُ الزكاة الاجتماعيةِ ففي حُسن إنفاقها . وخلاصةُ القول في ذلك أن الزكاةَ يجبُ أن توزَّعَ بمبالغَ كبيرةٍ كافيةٍ لسدِّ حاجاتِ الذين تُدفَعُ إليهم . إن تجزئةَ الزكاةِ قِطَعاً من فئةِ رُبعِ الليرة ونصفِ الليرة والليرةِ ثم توزيعها على مِائَةِ شخصٍ أو مائتينِ أو ثَلاثِمائةٍ ينطبقُ على لفظِ الشرع الذي يقضي بتوزيع الزكاةِ على الفقراء والمَساكين ، ولكنه لا ينطبقُ على رُوح الشرع ، ذلك الشرعِ الذي أراد بالزكاة أن يَنْتفيَ الفقرُ من المجتمع الإسلامي لا أن يتحولَ المجتمعُ الإسلامي طَبقَتَيْنِ : طبقةً غنيةً تتصدقُ ، وطبقةً فقيرةً يتصدَّقُ الأغنياءُ عليها .

من أجل ذلك كُلِّه يجب أنِ تُنَظَّمَ الزكاةُ في الإسلام على أحدِ الأسسِ التالية :

١) أن يكونَ للمسلمين في كُلِّ بَلَدٍ بيتُ مالٍ واحدٍ تنصَبُّ فيه الزكاةُ ثم تخرُجُ منه في وجوهِها المشروعةِ فتُنْفَقَ على المشاريعِ الإسلامية التي تتّفِقَ مَعَ الغاية الشرعية من الزكاة .

٢) أن يتفقَ كِبارُ الأغنياء من المسلمين فيما بينَهم على تبنّي مشروعاتٍ خيريةٍ مخصوصة : يتبنّى كل غَنِيّ من هؤلاء مشروعاً يُنْفِقُ عليه من زكاتِه أو ينفق عليه زكاتَه كُلَّها ، فلا تتضارَبُ الصدقاتُ فتتوزَّعُ على عددٍ كبير من المشاريع لا يَتِمُّ واحدٌ منها .

٣) يتولى الأغنياء الكِبارُ من المسلمين المشاريعَ الخيرية المُختلفةَ . أما المحتاجون من أفراد المسلمين فيتولّى أمرَهم الجمعياتُ التي يُغذّيها الأغنياءُ . وحينئذٍ يَقِلُّ عِنْدَنا سوء التوزيع ، لأن الجمعياتِ الإقليمية تكونُ أعلمَ بالمحتاجين في بِيئتها من الأفراد الذين يأتي إليهم في كل حينٍ أشخاصٌ كثيرون من كُلِّ مِنطقة ، وكُلّهم يقولون عن أنفُسِهم حقّاً أو باطلاً إنهم محتاجون .

٤) أن يتكَفّلَ أغنياءُ كل مِنطقةٍ بفقراءِ مِنطقتهم ، فإنْ زادَ من زكاتِهم شيءٌ ردّوه على فقراءِ المناطق القريبةِ منهم ،على المِنْهاج الإسلامي الذي آقترحه الفُقهاء .

* * *

ولَمَحَ الإسلام في الصلاة نفسِها جانباً آجتماعياً مُهِمّاً لَمّا فضّل صلاةَ الجماعةِ على صلاةِ الفرد . جاء في الإسلام أن صلاةَ الجماعة تفضُلُ صلاةَ الفردِ سبعاً وعِشرين ضَعْفاً . ولم يكنْ ذلك إلا لِفَضْلِ ما بينَ الصلاتين من القِيمة آلاجتماعية . إن المسلمين في كلِ بلدٍ أوْ حَيّ إذا آجتمعوا في كُلِّ يومٍ خمس مراتٍ أو أربعاً ، أو مرةً واحدةً ، فإنهم يتعارَفون ويتفاهَمون ويكونُ بعضُهم عَوْناً لبعضٍ ثم يكونون كُلُّهم عَوْناً لِمَحَلّتِهِم ثم لِقَوْمِهم ثمّ لأُمّتهم . إنّ الصلواتِ التي تُؤدّى جماعةً هي في الحقيقةِ مؤتمراتٌ يوميةٌ أو أسبوعيةٌ غايتُها أن تتوثّقَ عُرى الأُلفة والمحبّة بينَ المسلمين وأن يتعاوَنَ المسلمون على نَفْعِ أُمّتهم . أما خُطْبَةُ الجُمُعة خاصةً فقد جُعلتْ لِعَرْضِ أحوال المسلمين مرةً في الأسبوع . ويحسُنُ أنْ نعلَمَ أنّ الخُطَبَ التي تقتصرُ على الحثّ على تقوى الله وعلى الدُعاءِ للمسلمين لا تُحقّقُ إلّا الجانبَ الفِقهي من هذه الصلاة . إن على خطيبِ الجُمُعة أن يستعرضَ أمامَ المُصلين من على مِنْبَره أحوالَ المسلمين في مِنطقته وفي المناطق الإسلامية الأُخرى ، وأن يقترحَ على المُصلين الحلولَ للمشاكلِ الناشبةِ والخُطَطَ للعملِ في التيارات المستجدّة . والخُطْبةُ جزءٌ من صلاةِ الجُمُعة ، لأن الإسلام جعَلَ صلاةَ الجُمعة رَكْعَتَيْنِ فقط ـ مَعَ أن صلاةَ الظُهر أربعُ رَكعاتٍ ـ وجعلَ الخُطبةَ فيها مكانَ الرَكْعتينِ اللتين تُرِكَتا . فالمُصلّي الذي يتأخّرُ فتَضيعُ عليه الخُطْبة تَصِحُّ صلاتُه شَرْعاً ولكنها لا تكون تامّة كصلاةِ

الذي آستمع إلى الخُطبة وآنتفع بها . ولولا أن الإسلامَ يُسْرٌ لَوَجَبَ أن تكونَ صلاةُ من لا يُدْرِكُ خُطبةَ الجُمُعَةِ فاسدةً .

ولا يجوزُ أن نَمُرَّ بمثلِ الموضوعِ الذي أُعالِجُه الآنَ ونحنُ في رَمَضَانَ من غيرِ أن آتِيَ على ذِكْرِ الصِيام . إن الجانبَ آلإجتماعي في الصِيام هو شعورُ كُلِّ مِسلمٍ صائمٍ أن مِئاتِ الملايينِ يصومون مِثلَه وفي وقتٍ واحدٍ في جميعِ أقطار الأرض . إن هذا الشعورَ يُوحِّدُ قلوبَ المسلمين ويُوثِّقُ الصِلةَ بينَهم . ثم إن الصيام من ناحيةٍ ثانيةٍ جُوعٌ آختياري وحِرمانٌ مُوقّتٌ يجعلُ القادرين مِنا يُدْرِكون مَعْنى الجوعِ آلإضطراريّ والحِرمان الدائم . حينئذ تَنْفَعِلُ النفوسُ الخَيِّرةُ وتَميلُ إلى مُؤاساة من عَضَّهُمُ الدهرُ بنابِهِ .

يجب علينا نحنُ المسلمين أن نُؤكِّدَ الجانبَ آلإجتماعيَّ من الإسلام تأكيداً شديداً ، لأنَّ الإسلامَ في الأصل دينٌ شاملٌ للحياة النفْسية والحياة آلإجتماعية . ثم إن بقاءَ المسلمينَ أُمّةً متماسكةً قويةً عزيزةً لا يَتِمُّ إلّا بهذا العُنصُر آلإجتماعي في الإسلام . لقد رأينا في التاريخ أن جميعَ المُستعمرين في ديارِ الإسلام قد حاولوا أن يَقْضوا على الشعورِ آلإجتماعيَّ بينَ المسلمين بينَما كانوا دائماً يحاولون أنْ يشجعوا الناحيةَ الشخصية في العبادة . لقد مَنَعَتْ فرنسةُ في أيامِ الآنتدابِ أنْ يدعُوَ الخطباءُ يومَ الجُمُعة لمُلوكِ المسلمين ، بينما كانَ المُفَوضُ السامي يحضُرُ بنفسِه مَجالسَ الصوفية . إن تشجيع المُتصوفةِ لا يُنْتِجُ منه أكثرُ من عُبّادٍ شَخصِيينَ مُنْطوينَ على أنفُسِهم لا يَلْبَثون أن ينسُوا أن هنالك مسلمين غيرَهم في خارج بلادِهم . ثم هم أيضاً يَغْفُلون عن وُجودِ المُستعمر الذي يَرَوْنَ فيه مُشَجِّعاً لطريقتهم . أما الدعوة لمُلوك المسلمين على جميعِ المنابر في كُلِّ أسبوعٍ فأمرٌ جليل في ظاهره وباطِنه ، إنه يجعَلُ المُسلمين أبداً يشعُرون أنّ بلادهم جُزْءٌ من العالم الإسلامي الفسيح ، وهذا خَطَرٌ على الآستعمار ما بعدَه خطرٌ . وإني لأعْجَبُ كيف أن خُطَباءَ المساجدِ قد قَبِلوا يومَذاكَ أنْ يتقيدوا بهذا الأمر . ثم إن عَجَبي لَيَزْدادُ كُلَّما رأيتُهم لا يزالون يُقيِّدون أنفُسَهم بهذا المَنْعِ مَعَ أن الآنتدابَ الفرنسيَّ قد زال .

حبذا لو يعودُ خطباء الجمعة إلى الدعوة لجميع ملوك المسلمين .

لقد بُني الإسلامُ ، فيما بُنِيَ عليه ، على أن المسلمين أُمّةٌ واحدةٌ . فإذا نحن أغفلْنا الجامعَة الدينية وتمسّكنا بالقومياتِ المُفرّقة فإننا سنَفْقِدُ بلادَنا قُطراً قُطْراً . إن العربَ قد فقدوا فِلَسْطين بمُنازعاتِهِمُ الإقليمةِ ، ولن يُعيدها ، أوْ لن يُعيدَ العَرَبَ إليها، إلا الإسلامُ . منذ نحوِ تِسْعِمِائةِ سَنَةٍ جاء الصليبيون إلى بلادنا واسْتَوْلَوْا عليها بآسم الدين . وأخيراً آستطاع صلاحُ الدين الأيوبي أنْ يُنقِذَها من أيديهم . ولكنّ صلاحَ الدين لم يُنْقِذْ فِلَسْطين لأنه كُرديُّ الأصْل ، ولا لأنه مَلِكُ مِصْرَ ، بل لأنه مُسْلِمٌ . وكذلك فِلَسْطينُ اليومَ ، لم يأتِ إليها اليهودُ لأنهم أميركيون أو ألمانٌ أو بولونيون أو روسٌ أو عَرَبٌ جَزائريون أو عربٌ من اليمن أو عرب من سورية ولُبنان ، بل جاءوا إليها بإسْمِ صهيونَ والصهيونية . وفي صهيونَ معنىً دينيٌ قبلَ كُلِّ شيءٍ . ثم إنّ هؤلاء قد تناسَوْا جميعَ القَوْمياتِ التي يَنْتَمُونَ إليها والتي يتكلمون لُغاتِها لِيَجْتَمعوا باسْم صَهيونَ . وإذا نحنُ راجعنا التوراةَ لم نَجِد لكلمة صهيون معنىً قومياً ولكن وجدنا لها معنىً دينياً . ولا ريبَ أبَداً في أنّ « إسرائيل » دولةٌ دينيةٌ وأن أهلَها أهلُ دينٍ واحد . وإسرائيل حينما صَنّفتْ سكانها وفرّقت حُقوقَهم وآمتيازاتِهم نظرت إلى الدينِ وحدَه . فاليهوديُّ ديناً مواطنٌ سواءٌ أكانَ بُولونيّاً أو عربيّاً مستعرباً من اليمن أو الجزائر أوْ مِصرَ أو لُبنانَ ؛ بينما العربيُّ من أهلِ فِلَسْطينَ إذا لم يكن يهوديَّ الدين فإنه معدودٌ في القِلّةِ المُجَرّدَةِ من جميع آمتيازات المُواطِنِ . أنا لا أدعو إلى التفريق بين أتْباع الدين الواحدِ ، ولا بين المُنْتَسِبينَ إلى عناصِرَ مُختلفةٍ من أبناءِ الدين الواحدِ ، ولكنّني أُريدُ أن أفتَحَ العُيونَ على سِياسةِ الخُصومِ . من شُروطِ الظفر أن تُحارِبَ عدوّكَ بمثلِ سِلاحه على الأقل . إن اليهودَ يستظْهِرون علينا باليهود في كل مكانٍ ولا يقولون هذا اليهوديُّ أميركيٌّ أو فرنسيٌّ لا يجوز لنا آلإسْتعانة به لنظرياتٍ دوليةٍ . إنهم يتخطّوْنَ خطوطَ القوميات بآسْم الدين . ولقد رأينا بأعْيُنِنا أنهم تغلّبوا علينا لأنّنا مزّقنا وحْدَتَنا بآسْمِ القوميات .

١٠ رمضان ١٣٧٥ ٢٠ / ٤ / ٥٦

رمضان في الإسلام(*)

رَمَضانُ شهر الصوم . والصومُ في الأديان قديمٌ ، قال الله تعالى : ﴿ **كُتِبَ عليكُمُ الصِيامُ كما كُتِبَ على الذين من قَبْلِكم** ﴾ . ولا شكَّ في أنَّ الأديانَ أصلُها واحدٌ من عند الله ، وجاء الدينُ صالحاً حكيماً مفيداً . غيرَ أنَّ نفراً من رجال الدين في الأمم القديمة قد بدّلوا كثيراً من أمور الدين ، ذلك الدينِ الأوّلِ الذي أوحاه الله تعالى إلى أنبيائه ورُسُله مرّةً بَعدَ مرّة . ولقد جَرُؤَ نَفَرٌ منهم على أن يُبدّلوا في الكتاب الذي نَزَلَ على رسولِهم . قال الله تعالى : ﴿ **فوَيْلٌ للذينَ يكتبُون الكتابَ بأيْدِيهِم ، ثمّ يقولون هذا مِنْ عِنْدِ الله !** ﴾ .

وبَقِيَ الدينُ في الإسلام دينَ الفِطرة السليمةِ ، دينَ الوَحْيِ الخالص ، دينَ الحنيفيّةِ السَّمْحةِ . ومن هذا الإسلام هذا الصومُ الذي ينعَمُ به المُسلمون في كلِّ عامٍ شَهْراً كاملاً .

ويبدو لي أنّ الذين قالوا في الصوم قد قالوا كثيراً في وُجوهِهِ الدينيةِ والصِحيّة والروحيّةِ والنفسية . وأحسَبُ أنّهم لم يُكْثِروا القولَ بعدُ في الجانبِ الاِجتماعيّ . فأُحِبُّ أنا أن أتناولَ هذا الوجه الاِجتماعيّ بشيءٍ من التفصيل :

وبالإضافة إلى أن الصومَ في الإسلام عِبادةٌ مفروضةٌ وطاعةٌ لله تعالى : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِيامُ كما كُتِبَ على الذين من قَبْلِكُمْ** ﴾ ، فإنّ للصوم في الإسلامِ مظهرَيْنِ اجتماعيّين بارِزَيْنِ لا يزالانِ إلى اليومِ واضحَيْنِ في جميعِ البلاد الإسلامية وفي جميع البِيئات .

(*) في عاشر رجب ١٣٩٤ هـ (٢٨ / ٨ / ١٩٧٤ م) .

ما إنْ يُطِلَّ رَمَضانُ على المسلمين ، وقبلَ أن يُطِلَّ أيضاً ، تتبدّلُ حياةُ المسلمين صِغاراً وكِباراً ، وفُقراءَ وأغنياءَ ، ومُتساهلين ومتشدّدين، ثمّ يبدو الشهر وكأنّه من أوّله إلى آخره عيدٌ يَعُمُّ المسلمين كُلَّهم بالسرور . فهذا أوّلُ مظهرٍ اجتماعيّ لِشَهْرِ رَمَضانَ : شَهْرٍ يَضَعُ المسلمين كُلَّهم في حياةٍ واحدةٍ فيشعُرُ كُلُّ فردٍ فيها أنّه جُزْءٌ مُلازِمٌ من هذا الجِسم الكبيرِ في العالم كُلِّهِ .

في غيرِ رَمَضانَ تُحاولُ الحياةُ القاسية أنْ تُقَطِّعَ الناس طَبَقاتٍ كثيرةً تَنْصَرِفُ كُلُّ طَبَقَةٍ منها إلى العملِ الذي تقوم به في سبيل مَعاشها ، وقلّما يشعُرُ بعضُ الناسِ في أثناء ذلك أنّه مرتبطٌ بسائرِ الناس الذين يعيشون معَه في بلدٍ واحدٍ أو مكانٍ واحد أو حيٍّ واحد . أمّا في رَمَضانَ فإنّ هذه الألفةَ تعود إلى طبيعتها في المجتمع الكبيرِ الذي يَضُمّهم . وبِحَسْبِكَ أن ترى الأسواق في ليلِ رمضان ، في كلّ بُقعةٍ من بقاع العالم الإسلاميّ ، حتّى تِدْرِكَ أن هذا الشهرَ المبارك قد جَمَعَ الناسَ كُلَّهُمَ على مَنْهجٍ واحدٍ في الحياة .

وأعظمُ من تلك الأُلْفةِ العامّة بين عامّة المسلمين في رَمَضانَ تلك الأُلفةُ الخاصّة في كلّ أسرة مُسلمة .

إنّ الحياة الاِقتصاديّـةَ القاسية - وفي أيّامِنا هذه خاصّةً - قد فرّقتْ أفرادَ كُلِّ أُسْرةٍ بحَسْبِ الأعمال المُختلفة التي يقومُ بها أعضاءُ كُلِّ أسْرة . إنّ أعضاءَ الأُسرةِ الواحِدةِ لا يَعْمَلون في العادةِ عملاً واحداً ولا يعملون في مكانٍ واحد . من أجل ذلك يَقِلُّ وُجودُ أعضاءِ الأسرة الواحدةِ في بيتِ الأُسْرَةِ في وقت واحدٍ . وفي العالم أُسَرٌ قَلَّما يجتمعُ أفرادُها في كُلِّ يومٍ أو في كُلِّ أُسبوع . أمّا في رَمَضانَ فإنّ مَناهجَ العمل تتبدّلُ وأنماطَ الحياةِ تتغيّر ، والوقتُ الواحدُ للسُّحور والوقت الواحد للإفطار يَجْمَعانِ أهلَ البيتِ الواحدِ في وقتٍ واحدٍ على طعامٍ واحد . إنّ هذا الكَسْبَ الاِجْتماعيَّ في الأُسْرةِ قلّما يستطيعُ الإنسانُ أن يَقْدُرَهُ قَدْرَهُ . ولا ريب في أن هذه الصِلةَ الوثيقةَ في الأُسرةِ في العالم الإسلامي - وهي صِلةٌ قد فُقِدَتْ فَقْداً تامّاً في العالم الأوروبيّ والأميركيّ - راجعةٌ إلى فَضْلِ شهر رَمَضانَ بالعُنْصر الاِجتماعيّ البارزِ في شهرِ رَمَضانَ .

ومن بَركة شهرِ رَمَضانَ في الجانبِ ٱلاْجتماعيِّ من الحياة وجهٌ يدعو الإنسانَ المُفكِّرَ إلى كثيرٍ من العَجَب والدَّهْشة ثمّ يَكْشِفُ عن قيمةٍ آجتماعيةٍ لا يكادُ المــرءُ يتخيَّلَ مِثْلَها ـ فَضْلاً عن أن يرى مَثيلاً لها ـ في وَجْهٍ آجتماعيّ آخَرَ !

في كلِّ شعبٍ قومٌ متديّنون وقوم مُهْملون غافلون وقوم عاصون . كذلك كان البشر من قبلِ بِعثةِ الأنبياء ، وكذلك هم إلى اليوم . ولعلّهم سيَبْقَوْنَ على ذلك إلى ما شاء الله .

أمّا في الإسلام فإذا جاء رَمَضانُ فإنّ هذه الصورةَ تتبدّلُ تبدُّلاً كبيراً ، فإنّ نفراً كثيرين من المُهملين الغافلين ومن العُصاةِ المُجاهرين يرجِعون إلى الله مولاهُم فيقيمون الصلاةَ ويَعْمَلونَ الصالحاتِ ويَهْجُرون الخَمر والفِسق ويتبدّلون بعادَتِهِمُ الأُولى مِنَ آلاستهتارِ وآلاْنحرافِ سَمْتاً مُعْتَدِلاً من التقوى والخُشوع . ومَعَ أنَّ جانباً من هؤلاء يعودُ بعدَ رَمَضانَ سِيرتَه الأُولى في الحياة ، فإنّ جانباً من هؤلاء تَثْبُتُ قَدَماهُ على الصِراط المُستقيم . إنّ هذه القيمةَ ٱلاْجتماعيةَ تأتي في الواقع من أنّ الإنسان الفَرْدَ قد عانى الخيرَ مُعاناةً شخصيةً فَطَبَعَ ذلك في نفسِه من الأثرِ ما لا تستطيعُ طَبْعَهُ النصائحُ المُختلفةُ ووسائلُ الإقناع مِنْ صِناعة المَنطِق !

ونعودُ إلى الأُسرةِ مَرّةً جديدة .

إنّ ربَّ الأُسرة يشعُرُ في رَمَضانَ شُعوراً جديداً ، سواءٌ أكان أفرادُ أُسْرَتِهِ صِغاراً في السنّ أو كانوا كِباراً . ترى البخيل في رَمَضانَ قد أَصْبَحَ على جانبٍ من الكرم ، ثمّ ترى الكريمَ قدِ آزدادَ كرماً . وأنا لا أَقْصِدُ هنا الكرمَ الماديَّ وحدَه ، ولكنّي أقْصِدُ الكرمَ المَعْنَويّ ، فإنّ الإنسانَ يُصْبِحُ بالصوم في رَمَضانَ أكرمَ خُلُقاً في نفسِه وأحسَنَ سُلوكاً في الناس وأنبلَ عَمَلاً في المجموع .

وفي صوم رَمَضانَ حقيقةٌ قلّما وَفّاها المتكلّمون في رَمَضانَ حَقَّها من الإشارة . إنّ رمضانَ يقطَعُ الإنسانَ عن نفسِه الداخلية ثمّ يُبرِزُه لعالَمِه

الخارجيّ ، ذلك لأنّ حاجاتِ الجسمِ التي ضعُفَتْ نزَغاتها بالصوم تريدُ أنْ تُعبّرَ عن توْقِها إلى العملِ العامّ الصالحِ . إنّ الإنسانَ في العادةِ يقضي وقتاً طويلاً من يومِه في طَعامه وشَرابه ولَهْوه بالمُباحات . فإذا حلّ رَمَضانُ وآستغني الجِسمُ عن هذه كُلِّها أصبحَ مُحتاجاً إلى أنْ يملأَ ما فَرِغَ من وَقته بأعمالٍ جديدة . من أجلِ ذلك نَجِدُ أنّ الصائمَ الحقَّ أحسنُ في رَمَضانَ أعمالاً منه في كثيرٍ من سائرِ أشهُرِ السَّنة .

أمّا أسمى صُوَرِ هذا التحوُّلِ النبيلِ من حياةِ الصائم الداخليةِ إلى حياتِه الخارجيّة فتَتَبدّى في المعارك التي خاضها المُسلمونَ في شَهْر رمضان . ومعَ أنّ هذا موضوعٌ يستحقّ أن يكونَ مستقلاً ، فإنّني سأُشيرُ إلى ثلاثِ مَعاركَ واحدةٍ من تاريخِ الإسلامِ الأوّلِ هي مَعْرَكَةُ بدْرٍ الكُبرى التي أرْسَتْ قواعدَ الدولة الإسلامية ودَلّت على أنّ المُسلمين قد أصبحوا قوّةً عسكريةً مرهوبةَ الجانبِ ثمّ معرَكَةُ عين جالوتَ التي رَدّ فيها المُسلمون عنْ بلادِ الإسلام وعنِ الإسلام جَحافلَ التتارِ التي ما ردّها من قبلُ جيشٌ من جيوشِ الإسلام ولا جيشٌ من غيرِ جيوشِ الإسلام . ثمّ لا يجوزُ أن نَنْسى معرَكَةَ وادي لكُّه ، وهي التي فَتَحَتْ بلادَ الأندَلُسِ للفتحِ الإسلامي وللإسلام زماناً طويلاً وللحَضارةِ الإسلامية إلى اليومِ .

ذلك كانَ المظهرَ آلاِجتماعيَّ الأوّلَ ، المظهرَ آلاِجتماعيَّ الخالصَ ، المظهرَ الذي يَرْبِطُ بعضَ الناسِ ببعضٍ ، سَواءٌ أكانوا أقاربَ أوْ غيرَ أقاربَ ما داموا على مُستوىً واحدٍ في السُّلَّمِ آلاِجتماعيّ أو على دَرجاتٍ مُتقاربةٍ من ذلك السُّلَّم .

أمّا المظهرُ آلاِجتماعيُّ الثاني من صِيامِ رَمَضانَ في الإسلام فهو مظهَرُ النَّفْعِ آلاِجتماعيِّ بينَ أغنياءِ المسلمين وغيرِ الأغنياءِ من المسلمين .

من أعظم فضائلِ رَمَضانَ أنّ الإسلامَ رَبَطَ الصيامَ فيه بصَدَقاتٍ من التطوُّعِ ثمّ بِصَدَقةٍ مفروضةٍ هي صَدَقةُ الفِطْر أو زكاةُ الفُطر . ولقد جعَلَ الإسلامَ

لهذه الصدقةِ خاصّةً وجهاً آجتماعيّاً برّاقاً . إنّ قيمةَ زكاةِ الفِطر عن أهلِ بيتٍ واحدٍ هي مِقْدارُ ما يُنْفِقُه أهلُ ذلك البيتِ على طَعامِهِمْ وشَرابِهم في يومٍ واحدٍ ، بِحَسْبِ دَرَجَتِهِمْ من الثروة ، قلَّ ذلك أو كَثُرَ . ومَنْ أرادَ أنْ يَزيدَ فيها فهو خيرٌ له .

ثمّ إنّ أئِمّةَ المُسلمين آستحسنوا في إخراج هذه الزكاة طريقةً نافعةً . لقد أحبّوا ألاّ تُجزّأَ هذه الزكاةُ بينَ الأفراد كما يجوزُ في صَدَقاتِ التطوّع ، بل آثروا أن تَبْقى زكاةُ الفِطر عنْ أُسرةٍ واحدةٍ مبلغاً واحداً مجموعاً وأن يُعْطى هذا المبلغ الواحد إلى أسرة واحدةٍ حتّى تستطيعَ هذه الأُسرةُ بهذا المبلغِ كُلِّهِ أنْ تُشارِكَ المُسلمين كُلَّهُم في يومِ عيدِ الفِطر في سعادَتِهِم وأفراحهم .

هذانِ الوجهانِ آلِاجتماعيّان من شَهْرِ رمضان : الوجهُ الآجتماعيُّ المَعنويّ والوجهُ آلِاجتماعيّ المادّيّ هما مظهرانِ بارزانِ في الإسلام يَشُدّانِ كُلَّ مُسلمٍ إلى كلِّ مُسلمٍ آخَرَ برِباطٍ من الأُخُوّةِ الصحيحةِ ومن العَطْف المُفيد النافع .

والذي يعجَبُ منه العاقلُ أن العالمَ يسعى إلى أشياءَ من الإصلاح آلِاجتماعيّ في ميادينِ الحياة المُختلفة ثمّ لا نراه يُحَقِّقُ نفعاً صغيراً في جانب من الناس إلاّ بعدَ أن يُحْدِثَ أثراً سَيِّئاً في جانبٍ آخَرَ . ولو أنّ هؤلاءِ المُريدين للإصلاحِ آلْتَفَتوا إلى الإسلامِ آلتفاتاً عاقلاً لوجدوا فيه العِلاج الصالحَ للأدواء التي يشكو منها أقوامُهم . ولَعَلَّهم فاعِلون !

والسلام عليكم ورحمة الله .

من وحي رمضان

معركتان في رمضان(*)

معركتانِ في رَمَضانَ نَشِبَتْ إحداهما في أوّلِ الدعوة الإسلامية وفي قلبِ بلادِ العرب ؛ ودارتِ الثانيةُ عند ذِرْوةِ الفتح العربي وأبعدَ ما يكونُ عن مَصْدرِ الدعوة الإسلامية . أما المعركة الأولى فكانتْ غَزوةَ بدرٍ التي نَشِبَت بين المُسلمين والمُشركين من العرب على مقرُبةٍ من المدينةِ في مثلِ هذا اليوم[1] من شهرِ رَمَضانَ المباركِ في السَّنَةِ الثانيةِ للهجرة . وأما المعرَكَةُ الثانيةُ فكانتْ معرَكةَ بلاطِ الشُّهداء بين العربِ والفِرنْجة وأحلافِهم عند مدينة تور في الأغلب ، على ضِفة نهرِ اللَّوار في قلبِ فَرَنسةَ ، في رَمَضان من سَنَةِ ١١٤ للهِجرة ، في عام ٧٣٢ للميلاد ، مُنذُ آثْنَيْ عَشَرَ قَرْناً أو تزيدُ .

أما غزوةُ بدرٍ فكانت نصراً عظيماً للمسلمين على قومِهم ، فآنتقل بها الإسلامُ بالمُسلمين من جماعةٍ دينيةٍ إلى دولةٍ قائمةٍ . لقد كانتْ معرَكَةُ بدرٍ من أجلِ ذلك أمَّ المعارِك التي حَمَلَتِ الإسلامَ إلى أقطارِ الدُّنيا ونَشَرَتِ الحضارةَ العربيةَ النَّيِّرةَ الخيِّرةَ في العالم . وأما معرَكَةُ بلاط الشهداء فكانتْ هزيمةً للعرب لأن القبائلَ الجِرمانيةَ البرابرةَ ، والتي لم تكُنْ قد أصبحَتْ دُوَلاً بعدُ ، قدِ آجتمعتْ كُلُّها وراءَ الفِرنجة لصدّ الحضارة العربية الزاحفةِ بأعلامِها على الجَهْل والآِستبداد .

ويبدو أن جميعَ المعارِكِ ، سواءٌ أكانتِ آنتصاراتٍ أوْ هزائمَ ، لا تتقرّرُ

(*) حديث (للراديو) ، الأحد ٦ /٤ /١٩٥٨ م (رمضان ١٣٧٧ هـ) ، الساعة ٤٥ : ٥ .

(1) في سابع عشر رمضان .

دائماً في الساعات التي تَنْشَبُ فيها ولا في الساعات التي تنتهي فيها . فلا غزوةُ بدرٍ خُتِمَتْ بالنصر الجُزئي في السَّنةِ الثانية للهجرة ، ولا مَعركَةُ بلاطِ الشهداءِ خُتمت بتلك الهزيمةِ المشهورة في سَنَةِ ١١٤ للهجرة . فقد كان بعدَ معركةِ بدرٍ معاركُ الخَنْدقِ وحُنينٍ وفتحِ مكّة ، ثم معاركُ اليرموكِ والقادسية ونهاوَنْدَ وفتحِ الأندَلُسِ والزلاقةِ وحِطّينَ وعَشَراتُ المعارِكِ الأُخَرُ التي زيّنتْ صَفَحاتِ التاريخ وثبّتتْ أعلامَ الحضارة في العالم .

وكذلك خاضَ العرب في تاريخِهِم ، بعدَ بَلاطِ الشهداء ، معاركَ مختلفةً . فمعرَكةُ العِقاب في الأندَلُسِ ، ومعرَكتا أنطاكيةَ والقُدْسِ في أيام الإفرنْج الصليبيين ، ومعرَكَةُ عكّاءَ على يد نابليونَ ، ومعركة نَوّارينَ في بلادِ اليونان ، ومعركةُ بئرِ السبعِ في الحرب العالمية الأولى ، ومعركة مَيْسلون في عام ١٩٢٠ ، كلها حَلَقات في سِلسلة المعارِك التي خاضها العربُ صُعوداً وهُبوطاً في التاريخ .

غيرَ أن المعارِكَ الحقيقيةَ لا تَنْشَبَ في الواقع على ميادين القتال . إن المعارِكَ التي تَنْشَبُ على ميادينِ القتال ليستْ في الحقيقة سوى مظاهرَ لتلك المعركةِ التي تدورُ في صَدْرِ الأُمّة قبلَ أن يدورَ القِتال بينَ الأُمة وأعدائها في السُّهولِ والجبال .

والصِيامُ نفسُه معرَكَةٌ من أكبرِ المعارِك وجِهادٌ هو أعظمُ الجِهاد . إنه جِهادٌ لنَزَوات النفس وشَهَواتها ،ولمكائِدِ النفسِ وأحقادِها ، ولحاجاتِ الجَسَد ولَذّاته، ولأطماعِ الإنسان وغرائِزِه . فإذا بَلَغَ الإنسان من صِيامه إلى أن يُصْبحَ تَرْكُ الشهواتِ والأطماعِ والأحقادِ عادةً له ، فقد بَلَغَ من تهذيبِ النفس الغاية فأصبَحَ صِيامُه صياماً حقيقيّاً ، صيامَ رجلٍ مؤمنٍ قانت . هذا الجهادُ الذي يدور في نفسِ الصائم المؤمنِ هو التمهيدُ الأوّلُ للمعارك التي سينتصرُ فيها الإنسانُ في خارج نفسِه على ميادِين القتال . ولا ريبَ في أن جميعَ الهزائم في التاريخ آنكشفتْ عن أن الأُمَمَ التي هُزمت كانتْ ضعيفةً ، في عددٍ من جوانبِ حياتِها

الخاصةِ والعامة ، ضَعْفاً ظهرتْ نتائجُه في قِتالها بينما كانتْ أسبابُه خَفيّةً في نفوس أبنائها .

إن العرَبَ ما زالوا ، منذُ معرَكَةِ بلاطِ الشهداء ، في معرَكَةٍ قائمةٍ وعددٌ من أوْجُهِها انتصاراتٌ وعدد من أوجُهِها هزائمُ . ولقد كانتْ هزائِمُهم - في تاريخِهِمُ الحديثِ - مَعَ الأسفِ أكثرَ عدداً وأبعدَ أثراً مِنَ آنتصاراتِهم ، وكان ذلك تابعاً - بلا ريبٍ - لاستعدادِهِمُ النفسيّ قبلَ خَوْضِهِمْ المعاركَ التي آنْتهتْ بهم إلى هزائمَ والمعاركَ التي سَمَتْ بهم إلى النصر .

إن العربَ في هذا الأسبوع الذي نحن فيه[1] يخوضون المرحلة الأخيرة من المعركة التي هُزموا في أوّلها على بَلاط الشهداء ومعَ الأمة التي هَزَمَتْهُمْ . وستكونُ هذه المرحلةُ الحاسمة نصراً لهم بإذن اللّهِ لأنّهمُ آستعدوا لذلك في نفوسِهم قبلَ أن يَبْرُزوا لِعَدُوِّهم على ميدانِ القتال . إنهم سينتصرون لأنهم سيجاهدون عَدُوَّهُمُ الجِهادَ الأصغرَ بعدَ أن جاهدوا نفوسَهم ذلك الجِهادَ الأكبر .

(١) تشرين الثاني ١٩٤٣ - إضراب عامّ ومقاومة سحبت فرنسة بعدهما جيوشها من لبنان .

الزكاة وبيت المال(*)

للصَدَقةِ في الإسلام وجهانِ : صدقةُ التطوُّع وهي ما يجودُ به الفردُ على الذين يقتنعُ بأنّهم محتاجون ، في كُلّ وقتٍ شاءَ وبكُلّ مبلغٍ أرادَ وعلى الصورةِ التي يُحِبّها ؛ ثمّ الصدقةُ المفروضةُ التي تُسمّى عادةً « زكاةً » ، وهي رُكنٌ من أركانِ الإسلام كالصّلاةِ والصيامِ والحجّ .

والزكاةُ تَجِبُ على مجموعٍ أموالِ المسلم إذا بلغت نِصاباً ، أيْ قدراً مُعيّناً(١) . فمن كان عِنده نقدٌ أو حُليٌ تزيد على المقدارِ المألوف في الإِسْتعمال الشخصيّ أو تُحَفٌ ثمينةٌ أو بضائعُ في مَخْزنِهِ أو أراضٍ وأبنيةٌ مُعَدّةٌ لِلإِسْتغلال أو نِتاجُ أرضٍ من حُبوبٍ وثِمار معلومة ثمّ بَلَغَتْ نِصاباً فعليه أن يُزكّيَ عليها . وبما أنّ موضوع الزكاةِ متشعّبٌ ، فسأكتفي هنا بالكلام على النقد وَحْدَه .

تَجبُ الزكاةُ على المالِ المجموع إذا مرّ عليه عام وهو مُدّخَرٌ . فمن كان يَمْلِكُ مقدار مائةِ درهمٍ من ذهب نقداً مُدّخراً عنده أو في مَصْرِف أو أمانةً مَعَ أحدٍ أو دَيْناً مضموناً على أحد ، فعليه أن يُزَكّيَ عليه مبلغَ اثْنَيْنِ ونصفٍ في المائة : ففي الألف خمسة وعشرون ، وفي العشرة آلاف مائتانِ وخمسون وفي المِليون خمسة وعشرون .

ولإخراج الزكاة أحوال تحسُنُ مراعاتها :

يصعب على الإنسان أن يُمْسِكَ حساباً جارياً لأمواله حتّى يعلَمَ أيَّ أقسامِ

---

(١) راجع ، فوق ، ص ٩٠

(*) في ٣٠ / ١٠ / ١٩٦٩ م (١٣٨٩ هـ) - راجع أيضاً ، فوق ، ص ٩٠ - ١٠٢ .

أموالِه قد مرّ عليهِ عامٌ ، في وقتٍ ما ، وأيُّها لم يَمُرَّ عليه عامٌ بعدُ . فيحسُنُ أن يَحْسُبَ المُسلمُ مجموعَ أمواله - في أشكالها المختلفة - في مطلَعِ رمَضانَ مثلاً ، ثمّ يُخْرِجَ عليها زكاتَه . ولا بأسَ إذا غَبَنَ نفسَه قليلاً أو كثيراً ، فإنّ عملَ الخير طيّبٌ لذيذ نافع ، وهو يُدْخِلُ على النفس ٱطمئناناً لا تَعْرِفُه النفسُ في غيرِ عملِ الخير .

ويحسُنُ أن يُخْرِجَ المُسلمُ زكاتَه بطريقةٍ مُفيدة للمجتمع الذي يَعيشُ فيه ، فبعدَ أن يبحَثَ هو عنِ الذين يستحقّون الزكاةَ - من غيرِ أهلِه الذين تَجِبُ عليه إعالتُهم - يدفَعُ إلى كلّ واحدٍ منهم أو إلى نفَرٍ قليلين منهم أو إلى شخصٍ واحدٍ فقط ، بحَسْبِ ٱستطاعتهِ وبحَسْبِ ما يَرى ، مبلغاً وافياً . فإذا عَلِمَ مثلاً أنّ مُسلماً أصابَتْه خَسارةٌ أفْقَدَتْهُ أسبابَ تِجارتِهِ أو صِناعته أو زِراعته ثمّ أخْرَجَتْهُ مِنَ الميدانِ ٱلإقْتصاديّ ، جاز أن يدفَعَ إلى هذا المسلمِ مبلغاً يكفُلُ له العودةَ إلى الميدان ٱلإقْتصاديّ .

وقد رأى سماحةُ مفتي الجُمهورية اللبنانية[1] أن ينشأَ في هذا البلد بيتُ للمال تُجْمَعُ فيه الزكاةُ ثمّ توزَّعُ في وُجوهِها المشروعة . فإذا وُضِعَ لهذا المشروعِ دراسةٌ شاملةٌ وجِهازٌ صحيحٌ مستقلٌّ عن النفوذِ السياسيّ والإداريّ ثم تنظيمٌ دقيقٌ كان مشروعاً نافعاً جِدّاً . أمّا تفصيلُ النُّقاطِ الكفيلةِ بنجاحِ هذا المشروع فيجب أن يكون لها مَقامٌ غير هذا . غيرَ أنّي أرى أنْ يتقدّمَ نفَرٌ من كِبارِ الأغنياء فيُقدّموا لهذا الشمروعِ جانباً من زكاتِهم للقيامِ بِتَجْرِبةٍ عَمَليةٍ ، لأنّ الذين يُزكّون على الألف والألفينِ وعلى المِائةِ ألفاً لا يُمْكِنُ أن يُغذّوا بيتَ المالِ في هذا الطَّوْرِ الأوّليّ بمبالغَ تكفُلُ تَجْرِبةً ناجحةً . حتّى إذا نَجحتِ التّجْرِبةُ - ونحنُ نرجو لها كُلَّ نجاح - تحقّقَ المشروعُ كُلُّهُ كاملاً ، إن شاء الله .

٣٠ - ١٠ - ١٩٦٩ .

---

(١) الشيخ حسن خالد .

زكاة الأبنية(*)

زعَمَ قومٌ أنْ لا زكاةَ في الأبنية ، يَعْنونَ بذلك أنه إذا كان شخصٌ ما يَمْلِكُ دُوراً للسكَن وحوانيتَ ومكاتبَ للتجارة وللأعمال الحُرّة قليلةً كانت أو كثيرةً ، فلا تجب عليها زكاة ـ لزَعْمهم بأنّ القرآنَ الكريمِ والحديثَ الشريفَ لم يذكُرا « الأبنية » صَراحة في الأشياء التي تجب الزكاة عليها .

هذا الاجتهاد خاطىءٌ ، والأبنية تجب الزكاة عليها كالذهبِ والفضة والقمح والزبيب والغنم والحُليّ والمعادن سواءً بسواء . وخطأهم في آجتهادهم هذا يَرْجِعُ إلى أمرين ، أوّلُهما وأهمُّهما أنهم أخطأوا مَقْصِدَ الشارعِ من وَضْعِ الزكاة . وثانيهما أنهم تجاهلوا القِياس والعُرْف وجَهِلوا أن الشارعَ إذا سكت عن أمر ـ إمّا لأنه لا يَستطيعُ أن يُعدِّدَ كلَّ شيء ، أو لأنّ ذلك الأمر نفسَه لم يكن يومَذاك موجوداً أو لم يكن ذا قيمة تشريعية ـ فليس مَعْنى ذلك إخراجَ ذلك الأمرِ من نطاق القانون والتسامُحَ في كل ما يُنْتَجُ منه من عواقِبَ مُجحِفةٍ بحقوقِ العددِ الأكبر من الناس .

* * *

لا ريبَ في أن القرآن الكريم لم يذكُرِ الأبنيةَ حينما تكلّم على الزكاة ؛ ولا ريبَ أيضاً في أن الحديث الشريف لم يتعرّض لها صَراحةً ، معَ أنه ذَكَرَ أحكام الأرضينَ بالتفصيل، ولا شكَّ أيضاً في أن الفقهاء الأوّلين سكتوا عن ذلك . كل

(*) هذا الحديث نشر في جريدة « بيروت » (بيروت) في تاسع عشر رمضان ١٣٦١ هـ (٣٠/٩/١٩٤٢ ، العدد ١٦٥٠ (الصفحة الأولى) .

هذا لأن « الأبنية » لم تكُنْ في البلاد العربية الإسلامية « عُروضاً للتجارة ولا وُجوهاً للكسب » .

إن العربَ في الجاهلية كانوا أهلَ ظَعْنٍ يسكُنون الخِيام ، وكانت كلُّ خيمةٍ مُلْكَ صاحبها لا يأجُرُ ولا يستأجر ، ولا يشتري ولا يبيع.وأما في المدن القليلة فلم تكنِ الأبنية على العموم ذاتَ شأنٍ كبير من الناحية الأقتصادية .

ثم جاء الإسلامُ وبَقِيَتِ الحالُ على ما كانت عليه ولم تُصبحِ الأبنيةُ « موضوعَ تجارةٍ أوِ آستغلالٍ » . وتوسع الناسُ في العصرين الأموي والعباسي في البناء لسُكناهم وكان إذا استأجر أحدُهم « عِمارة » - أيْ مكاناً معموراً فيه دارٌ أو قناةٌ للسقي أو بئرٌ مَشرَعةٌ لشُرب البهائم على النهر أو ما يُشبه ذلك - فإنه كان يستأجرها على أنها أرضٌ مُعدَّةٌ لِلآستغلالِ وعلى أنّ هذه العِمارةَ أو هذا العُمرانَ تابعٌ لها للحاجة إليه . ولقد كانَ على أمثال هذه الأراضي - أوِ الضِياعِ على الأصح - زكاةٌ .

وفي أواخرِ القرن الثالثِ الهجري رأينا أن الشاعرَ إبن الرومي تُوُفِّيَ في بيتٍ للأجرة ، وهذا أمرٌ لم نَعْرِفْه من قبلُ . . . ولو أننا اليومَ في القرن العِشرين ذهبنا إلى القرى والدساكر لَوَجَدْنا أنّ لِكُلّ أُسرةٍ بيتاً تَملِكه وتسكُنه وأن مُشكلةَ « الإجارة » غيرُ موجودةٍ إلا ما نراه في بعض قُرى آلاِصطياف بلُبنان خاصةً مما لم يحدُثْ إلّا منذ عَشْرِ سَنواتٍ أو نحوِها . ولو أننا أتَيْنا أيضاً إلى عدد منَ المدُن كحماةَ وحمصَ ودمشقَ نفسِها وبيروتَ عَيْنِها منذ مائةِ عامٍ فقط لما كنا نرى فيها كُلِّها « أبنيةً » مُعدّة لِلآستغلال على ما نَفْهَمُه من عِلم الآقتصادِ الحديث وعلى ما نراه اليومَ .

* * *

وإليكَ الآنَ هاتَيْنِ القاعدتينِ في الزكاة :

١ - قال الله تعالى : ﴿ **أنفقوا من طيّبات ما كَسَبْتُم ومما أخْرَجْنا لكم من الأرض** ﴾ .

٢ ـ جاء في الحديث الشريف : « إن الله أُفترضَ عليهم صدقةً في اموالِهم تُؤخَذُ من أغنيائهم وتُرَدُّ على فقرائهم » .

فالزكاةُ تجب ، إذَنْ ، على الأغنياء ؛ وهي تجب أيضاً على الذين يَكْسِبون . فما قولُ فقهائنا أثابَهُمُ الله في أُناس يَمْلِكُ كُلُّ واحدٍ منهم بِضعةَ أبنيةٍ اوْ بِضعةَ شَوارعَ يكْسِبُ منها في كلِ عامٍ مبالغَ كبيرةً ، ألا يُعَدّ غنياً ؟ أوَلا يَجِبُ عليه ان يُزكّيَ عن رَيْع هذهِ الأبنية كما يُزكّي عن مالِه المخزونِ سواءً بسواء ؟

وما قول فُقهائنا في رَجُلٍ يعمَلُ عملاً شاقّاً بأجرٍ ضئيلٍ أو أكْثَرَ قليلاً ويدَّخِرُ في كل عامٍ دُريهماتٍ بيضاً للأيام السودِ ، فإذا هو بعدَ بِضعِ سِنينَ يَمْلِكُ عِشرينَ ديناراً ذهباً أو ما يُعادلها ، أفيجبُ على هذا الرجلِ أنْ يُزكّيَ عن دراهمِهِ المدّخرةِ ليومِ الحاجة ويومِ المُصيبة ولا تجبُ الزكاةُ على رجُلٍ يَمْلِكُ عشرةَ أبنية تُغِلّ مائةَ ألفٍ في العام الواحد ؟

إن على الأبنية زكاتَيْنِ :

١ ـ زكاةً على الرَيْع (الأُجرة) يوم قَبْضها قياساً على رَيْعِ الأرضِ لقوله تعالى : ﴿ **وآتوا حقَّه يومَ حَصاده** ﴾ ؛

٢ ـ وزكاةً على هذا الرَّيعِ نَفْسِه إذا خَزَنه أصحابُه وظلّ في خزائنهم عاماً كاملاً .

* * *

هذا آجتهادٌ لهُ أُسُسُهُ فحبّذا أن نرى فيه رأيَ فقهائنا وعُلمائنا ، فإن الله لم يأخذْ على الجُهلاءِ أنْ يتعلموا حتى أخذَ على العُلماء أنْ يُعلِّموا .

حديث رمضان

تعليق

زكاة الأبنية أيضاً(*)

أخي عمر :

قرأت مقالك وأدركت ما ترمي إليه حق الإدراك وإن كان كثيرٌ ممن قرأوه تغابَوْا في فهمه . وأنت ولا شك مدركٌ قصدي وفاهمٌ ما أعني . وإن كنت قد أُعْجِبْتُ بروح الموضوع ، إلّا أنني لا أوافقك على بعض ما ورد فيه ، ولا سيما فيما قلته من أن الفقهاء الأولين سكتوا عن الأبنية أو أحكام الأرضين . ولهذا أرجو أن تفسح لي مجالَ النقد وأن أتولى جلاءَ ما يمكن أن يكون قد خَفِيَ على بعضِ الناس الذين يُريدون أن يَرَوْا ، من وجهة نظرهم ، أن لا زكاةَ على البناء .

أنا معك في أن الأملاك لم تكن في عهد النبي ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين مَثارَ آهتمام لأن الخليفة كان ينهي عن آختزان المال واُقتناءِ الضِياع ولأنه لم تكن ثمّتَ أبنيةٌ كالتي نَعْهَدُها اليومَ . وما أقبل المسلمون على بناء الدور والقصور واُقتناء الضِياع إلّا يوم آلَ الأمر إلى بني أمية فأحبّوا أن يَحْيَوْا حياةً مُترفة كالتي كان يَحياها الروم . فَإذاً لم يوجد يومَئذٍ من يَمْلِكُ أكثرَ من حَوْشٍ واحد ولا كان يفكر يوماً في أنْ يطمعَ في ٱلِاسْتكثار مما نَهى عنه الخلفاء ، ولا كانت لدى أَحَدِهم فِكرةٌ عن بناء دُورٍ ودكاكينَ للأجرة .

على أن هذا لا يَعْني أن الشارعَ لَمْ يحتطْ للأمر . صحيحٌ ، إن لفظَ البناء

(*) مصطفى بن توفيق النصولي ، ولد في بيروت ١٩٠٩ . تخرّج في الجامعة الاميركية في بيروت (برتبة بكالوريوس في التجارة) . بدأ حياته في التعليم (في بيروت وبغداد) . ثمّ أصبح المدير العام لوزارة الإقتصاد في لبنان . نقل عدداً من الكتب عن اللغة الانكليزية .

غيرُ واردٍ في كُتبِ الشرع ولكنّ ثمّتَ ما يدُلّ على أنه كان يُعتبر من جملة العُروض . وكتابُ (فصلُ) الزكاة في كتبِ الفِقهِ يتناول هذه العُروضَ . وهذا الإمامُ ابنُ رشد في كتابهِ « بِدايةُ المجتهد »[1] يقول إن الفقهاء آتفقوا على أن لا زكاةَ في العُروض التي لم يُقصَدْ بها التجارةُ . وهذا قولٌ ينطوي على كثيرٍ من المرونة ، وتستطيعُ أن تُفسِّرَه بأن البناء مثلاً ، وهو من العُروض ، إن كان لسَكَن صاحبهِ فلا زكاةَ فيه . كما أنني أستطيعُ أن أذهبَ في التفسير إلى أن كلّ بناءٍ زادَ عن حاجةِ المرء ـ اللهم إلا إذا كان زوجَ آثنتينِ ـ يخضَعُ لأحكام الزكاةِ ، لأنه يُدِرُّ على صاحبهِ رَيْعاً .

هذا من جهة . ومن جهة ثانية فإنّ هناك حديثاً عن رسول الله ﷺ رواه سمُرةُ بن جُندُبٍ قال : «كان رسولُ الله يأمرُنا أن نُخرجَ الزكاةَ مما نُعِدّه للبيع » . فلما كان في يومنا هذا أفرادٌ يَمْلِكون من الأبنية ما يزيدُ عن حاجتهم الضرورية ، وكانت هذه الأملاك لم تُشيَّدْ بنيّة تحسين منظر المدينة ، أو بقصد الفُرجة بها ، وإنما بُغيةَ ٱلِاسْتثمار ، فإنها تجب الزكاةُ فيها .

ومن جهةٍ ثالثة ، هناك قولُ الله تعالى : ﴿ **وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشاتٍ** ﴾[2] . وعلى هذا الأساس تكونُ الزكاة واجبةً في كلِ ما تُخرجه الأرض . بهذا قضى الإمام أبو حنيفةَ بآستثناء العُشب والحطَب والقصَب . أما الإمامانِ مالكٌ والشافعيُّ فقد قالا إن الزكاةَ في جميع المُدَّخرات المُقتاتة من النبات . « وأما القياس فهو أن الزكاةَ إنّما يقصد منها سد الخَلَّة ، وذلك لا يكونُ غالباً إلاّ فيما هو قوت . فمن خصّص العمومَ بهذا القياس أسقط الزكاة ممّا عدا المُقتاتَ ؛ ومن غلّب العمومَ أوْجَبها فيما عدا ذلك » .

ولا تخلو كُتُبُ الفِقه من إظهار الفرق بين ما تُخرجُ الأرضُ وبين ما لا

---

(١) « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » كتاب في الفقه المالكيّ للفيلسوف ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م) .

(٢) القرآن الكريم ٦ : ١٤١ ، سورة الأنعام .

تخرجه وأن ما تُخرجه فعليه الزكاةُ . فالمسألة واضحةٌ لا لَبْسَ فيها . إن على الأرض زكاةً . والزكاةُ على الرَّيْع . ولكنْ إذا كانتْ هناك أراضٍ آشتراها مقتدرٌ في المدينة أو في الجبل مثلاً ولم يُعَمِّرْها وإنما هو مُهْمِلُها فهذه تُؤخذ الزكاةُ عن قيمتها يوم إخراج الزكاة ، ولا يمكن أن تُعفى بحال من الأحوال لأن حُكمها حكمُ العُروض وهي كالذهب والفِضة سواءً بسواء . وإن كان يطيبُ لبعضهم أن يُكابِرَ بأنْ ليس فيها زكاةٌ فهذه حيلة مفضوحةٌ يُراد منها التهربُ من الأداء .

وأنا يا أخي ، لا أرى فرقاً كبيراً بين الأرض المستأجرة التي ذكرها الشارع ، من جانبٍ ، والأبنيةِ المستأجَرَةِ ، من جانبٍ آخَرَ ، أيضاً . وحُكمُ الأرض المستأجرة أنّ قوماً قالوا : الزكاةُ على صاحب الزرع (على المستأجر) وبه قال مالكٌ والشافعي والثوريُّ وآبنُ المبارك وأبو ثَورٍ وجماعتُه . وقال أبو حنيفةَ وأصحابُه : الزكاةُ على ربِّ الأرض (المؤجر) باعتبارِ أنّ الشيء الذي تجب فيه الزكاةُ هو أصلُ الوجوبِ ، وهو الأرض وليسَ الحبَّ . ولهذا أُريد أنْ أقولَ إن الأبنيةُ يمكن أن تُقاسَ بالأرضِ المستأجرة أو بالعُروض أو بكلِّ شيءٍ يُعَدّ للبيع .

ومن ثَمّ يجب أن نخرُجَ من هذا البحثِ الموجز بأربعِ قواعدَ أساسيةٍ :

الأولى ـ إن الأبنية والأرضين (ما عدا ما يُستخدم لحاجةِ الإنسان الضرورية) هي من العُروض .

الثانية ـ إنه بهذا الاعتبار تجب فيها الزكاةُ .

الثالثة ـ إن الزكاة على الرَّيْع إذا كانتْ تُعطي رَيْعاً أيْ إيجاراً .

الرابعة ـ إن الزكاة على قيمتها يومَ إخراج الزكاةِ (عند بَيْعِها) إذا كانت لا تستثمر .

هذا ما عنّ لي فعسى أن تلقى فيه بعضَ الفائدةِ وأن يلقى فيه مَنْ يبغي التهرُّبَ من الزكاةِ كلَّ الفائدة .

حديث رمضان
في الزكاة(*)

اخي سِهاماً :

قرأت حديثَك في العدد ١٦٤٢ وسرني أنّ أحاديثَ رَمَضانَ التي ينشُرُها الشُبَّانِ أحاديثُ مَبنيةٌ على روح الإسلام الحقيقي ومن أنه دينٌ إلَهيّ وشريعةٌ عملية ونظامٌ آجتماعيّ ومِنهاج آقتصادي ، وأنه ليس كما يظُنّه غيرُنا ناحيةً محدودةً من العِبادة الشكلية . لقد سرّني أنك لم تنظُرْ إلى الزكاة على أنها واجبٌ ثقيلٌ يتحرَّر المزكّي منه بأدنى مبلغٍ يُرضي به ضميره ، بل على أنها فِكرة آقتصاديةً تقومُ على قُدرة المزكّي وحاجةِ المستحق ، وأنها فِكرة آجتماعية هي عنوانٌ للتضامُن والتآزُر .

وأجِبَ هنا أن أجْلُوَ نقطتين تَخْفَيانِ في أكثرِ الأحيان على الناس . إن الإسلامُ جعل الزكاةَ حَقّاً في أموالِ الأغنياء والمُقتدرين ، وأخْرَجَ مِنها نِظاماً آقتصادياً حَكيماً شاملاً ، وفرّق بينَها وبين الصدَقَة أوِ التبرُّعِ على ما نفهَمُ اليومَ لأنه أراد منها بِناء أُسُسٍ آقتصادية ثابتةٍ لرَفاهية المجتمع الإسلامي . ولكنّ المسلمين عادةً يُخطئون سُبُلَ الزكاة ويُخطئون مواضِعَها .

إن أكْثر المزكّين يدفعون زكاتَهم إلى « المتسولين » بمبالغَ تُعَدُّ بآحادِ القروش أو لبعض الأسرِ المستورة بمبالغ تعد بعَشَراتِ القروش وآحادِ الليرات ، ويكون المبلغُ عادة ضئيلاً إلى درجةِ أنّ المتسولَ أوِ الأسرة المستورة لا تستفيدُ منه إلا فائدة وَقْتية ثم تعودُ فقيرةً مستورةً من جديد . فالواجبُ ، إذَنْ ،

(*) نشر في جريدة « بيروت » ، الخميس ثالث عشر رمضان ١٣٦١ هـ (٢٤/٩/١٩٤٢ م) .

ان يدفَع المزكّي مبلغاً كبيراً إلى شخص ٍ واحدٍ أو رب أسرةٍ واحدةٍ تعينه على آستئناف عمله أو تُصْلِحُ أمره لمدة طويلة وهدف مضمون . فما الذي يمنعُ فلاناً مثلاً - وزكاتُه يجبُ ألاّ تقلّ في العام عن ألف ليرةٍ ذهبيةٍ - وأمثاله كُثُرٌ - أن يدفع زكاتَه إلى خمسةِ عائلين فقط في كل عام ، فيستطيعَ كُلّ عائل ٍ من هؤلاء أنْ يشتريَ بيتاً بسيطاً يسكُنه هو وأُسرتُه ، فيُنقِذَ ذلك المزكّي في كل ِ عام ٍ خمسَ أُسَرٍ مُسلمةً من عواقبِ الطرد من بيوت لا يَمْلِكون أُجرتها ؟

أما الأمرُ الثاني فهو الفوضى في توزيع ِ الزكاةِ والجهلُ بسبيلها وآلاِعتقاد أنها عملٌ فردي حُرّ . والواقعُ أنها عملٌ آجتماعي جَماعي له غايةٌ معروفةٌ . وأكثرُ المزكّين مَعَ الأسف يدفعون مبالغَ قليلةً للذين يأتون إليهم ويُزعِجونهم بالمسألةِ والإلحاف ، وقلّ أن تَجِدَ مُزَكّياً يَحْمِلُ زَكاتَه على يده ثم ينطلقُ في الأرض يبحَثُ عن الشخص ِ الذي يجب أن يدفَعَها إليه كما كان المسلمون يفعلون في صدرِ الإسلام وما تلاه .

هذه هي الزكاةُ ، وكلُّ ما عداها فليسَ بشيءٍ ، ولو فَعَله بعضُهم وسكَتَ عنه الفقهاءُ .

الحجّ في الإسلام(*)

أركانُ الإسلامِ خمسةٌ : اربعةٌ منها مفروضةٌ فرضاً باتّاً دائماً على كُلِّ مُسلمٍ ، وواحدٌ منها مفروضٌ مرّةً واحدةً في الحياةِ بشرطِ ٱلِاستطاعة . هذا الركنُ المفروضُ مرّةً واحدةً في الحياة بشرطِ ٱلِاستطاعةِ هو الحَجّ .

والحجّ قديمٌ في حياةِ البشر : كان عندَ غيرِ العربِ وكان موجوداً عندَ العرب في الجاهلية قبلَ الإسلام . والحجّ كالصومِ الذي مرّ كلامنا عليه في الحديثِ السابق(1) ، ركنٌ دِينيّ ٱجتماعيّ نافعٌ للبشر . ولكنّ البشرَ الذين كانوا قد نَسُوا ما في الصوم من منافعَ كثيرةٍ لهم فٱنحرفوا به عمّا أمر الله تعالى ، قد نَسُوا أيضاً ما في الحجّ من منافعَ فضلّوا فيه عنِ الصِراط السَوِيّ .

وأنا هنا أيضاً لا أستطيعُ أن أتكلّمَ على كلِّ ما في الحجّ من مناسكَ وفضائلَ ومنافعَ . من أجلِ ذلك سأقصُرُ كلامِيَ على الناحيةِ ٱلِاجتماعيّة من الحجّ ، تلك الناحيةِ البارزة جدّاً في هذا الرُكْنِ من أركانِ الإسلامِ حتّى إنّ الله تعالى قد أرادَ أن يُنَبِّهَنا إليها وأن يُؤكِّدَها تأكيداً شديداً . قال الله تعالى في سورة الحجّ : (٢٢ : ٢٧ - ٢٨) :

﴿ وأَذِّنْ في الناسِ بالحَجِّ يأتوك رِجالاً (أي سائرينَ على أرْجُلِهِمْ) **وعلى كلِّ ضامرٍ**(2) **يأتِينَ من كلِّ فَجٍّ عميقٍ * لِيَشْهدوا مَنافعَ لهم ويذكُروا اسمَ اللّهِ في**

(*) في عاشر رجب ١٣٩٤ هـ (٢٨ / ٨ / ١٩٧٤ م) .

(1) راجع ، فوق ، ص

(2) ضامر : بعير مهزول (نحيل) لطول السفر ومشقته .

أيامٍ معدوداتٍ على ما رَزَقَهُمْ من بَهيمَةِ الأنعام ، فكُلوا منها وأطْعموا البائسَ الفقيرَ ﴾ .

إنّ الله تعالى قد ذَكَر في الآية الكريمةِ المنافعَ التي تكونُ للناس في الحجّ كما أوْجَبَ على الناس أن يذكُروا آسمه في الأيّام المعدوداتِ ، أي الأيام المُعيّنة التي فُرِضتْ للقيام بمناسكِ الحجّ .

أمّا الاستطاعة فتَكادُ تكونُ اليومَ موجودةً في كُلِّ مسلمٍ . إنّ الطريقَ آمنةٌ ووسائلَ السفر كثيرةٌ ، وبعضُ هذه الوسائل رخيصةُ الأجرِ مُريحةٌ .

غيرَ أنّ هذا الحدَّ الأدنى من الاستطاعة كافٍ في أداء مناسكِ الحجّ ، في الجانبِ الفِقهيّ من هذا الركن من أركان الإسلام . ولكنّنا إذا تأمّلنا الجانبَ الاجتماعيَّ المقصودَ من الحجّ وجدنا أنّه كلّما ارتفع حدّ الاستطاعة كانَ الحجّ أنفعَ للمسلمين الذين يأتون إلى هذا الموسمِ العظيم في الحجّ الأكبرِ لِيَشْهَدوا منافعَ لهم ولِيَجتمعوا في هذا المؤتمرِ السَّنوي العامّ لِيَتدارسوا أحوالَ العالم الإسلامي في كُلِّ بُقعةٍ من بِقاعه . فالعالِمُ في هذا الموسمِ أنفعُ لِنفسِه ولإخوانهِ المُسلمين من الجاهلِ ، وكلّما كان عِلمُه أكثرَ كان نفعُه أكبرَ . ثمّ إنّ الوجيهَ في قومه أنفعُ للمسلمين في هذا الموسم من غيرِ ذي الوجاهة . وكذلك الغَنيّ الكريمُ والمُفكّرُ الرصينُ والسياسيّ المُخْلص والتاجرُ الأمين والصِناعيّ البارع ، كلُّ هؤلاء إذا جاءوا إلى الحجّ وعقدوا مَعَ إخوانٍ لهم هذا المؤتمرَ العامّ كانَ نفعُهم أجَلّ لهم وللمسلمين .

إنّ الحجّ في الإسلام ركنٌ ليسَ في جميعِ النظم آلِاجتماعية مثلُه مظهراً وأثراً - هذا إذا جاز في سبيلِ إفهام الناسِ أن نَقيسَ الحجّ بتلك النُظُمِ كُلِّها ، فالحجّ أمرٌ إلَهيّ ، والنُظُم المقصودةُ كلُّها من خَيال البشر !

وأُحِبُّ قبلَ أن آتيَ إلى بسطِ كلامي في بعضِ وجوهِ الحجّ أن أُورِدَ قولاً للدكتور فيليب حتّي ذكره في كتابه الأخير « الإسلامُ مَنْهجُ حياة » ، وقد سَبَقَ لي أن نَقَلْتُ هذا الكتابَ إلى اللغة العربية . قالَ الدكتور حتّي :

« أمّا في أيّامنا هذه فإنّ عددَ الحُجّاج الذين يتدفّقون إلى مكّةَ يبلُغون مِليونَ حاجٍّ يأتي رُبْعُهم من خارجٍ شِبه جزيرة العرب . وأمّا الأثرُ ٱلِاجتماعيُّ وٱلِاقتصاديّ والفِكريّ لمثل هذه ٱلِاجتماعاتِ فمِنْ غيرِ اليسيرِ أن نَفِيَها حَقَّها من الأهمّيّة . فإلى جانبِ الشريعة أوِ القوانينِ الإسلامية ، وإلى جانبِ ٱستعمالِ اللغةِ العربية في الصلاةِ نجدُ الحجّ بعدَهما أعظمَ القُوى الموحّدةِ بينَ الناس في الإسلام . وفيما يقومُ المؤمنون ـ الأسودُ منهم والأبيض ، والغنيّ منهم والفقيرُ ، والرفيعُ منهم والوضيع من العَرَب والتُرك والفُرس والهُنود والسُودان ـ بهذه المنـاسكِ ، فإنّهم يُوسِّعون وَعْيَهم بوَحْدةِ الإسلام المتمثّلة في الأُخُوّةِ الدينية » .

هذه الأُخوّة الإسلامية لم تكن أُخُوّةً نَظريةً قاصرة ، في جانبها المعنويّ ، على الأنداد من المسلمين الأحرار فحَسْبُ ، بل تجاوزتْ ذلك كُلَّه إلى أُخوّةٍ صحيحة في الجانب المادّيّ من الحياةِ حينما عالجتْ مُشكلة الرِّقّ . لقد نَقَلَ الإسلامُ شعورَ المسلمين في أثناء أداءِ مناسكِ الحجّ إلى حياتِهِمُ العَمَلية في كُلّ يومٍ فأصبَحَ العبدُ الرقيقُ أخاً للمُسلم الحُرّ لا يجوزُ في الإسلام أن يبقى رقيقاً . وفيما يلي نصٌّ قصيرٌ آخَرُ من كتاب « الإسلام مَنْهج حياة » يَرْبِطُ بينَ عَتْقِ الرقيق والشعور الأخويّ في الحجّ الإسلاميّ ربْطاً جميلاً . قال :

« لقد كان الرقُّ عميقَ الجذورِ في الحياة ٱلِاجتماعية وٱلِاقتصادية ، في العصور القديمة . غير أنّ الإسلامَ لم يكتفِ بـذمّ الرقّ ، لكنّه وَضَعَ للأرقّاءِ أحكاماً إنسانية . والمسلم لا يَحِلُّ له أن يسترقّ أخاه المُسلمَ . وإذا دخَلَ عبدٌ رقيق في الإسلام ، فإنّ إعتاقه لا يقعُ من تلقاء نفسِه ، ولكنّ الإعتاق الفوريّ أمرٌ يُرْضي الله تعالى . ثمّ إنّ إعتاق الأرِقّاء المُسلمين الذين كانوا في وَلاء المسلمين أنفُسِهم أو عندَ غيرِهـم كان وسيلةً إلى تكفير الذنوب . وفي الحقّ أنّ الإنسان لَيستطيعُ أنْ يقولَ : إنّ الإسلامَ قد حَقّق في مُعالجةِ المشكلة العِرقية قدراً أكبرَ من القدر الذي ٱستطاعت أن تَصِلَ إليه النّصرانية » .

من أجلِ ذلك كُلّهِ نرى أنّ الإسلامَ كان عَمَلِيّاً جِدّاً في جانبهِ

الاجتماعيّ ، فلم يكُنْ كلامُه في الأُخوة وفي العَتْق وفي المَحَبّة نظريّاً ، بل كانتْ كَلِماتُه في ذلك قوانينَ تترُكُ في المجتمع الإنسانيّ أثراً باقياً . إنّ المُخْتلفين في الألوان والطَبَقاتِ الاِجتماعية في الإسلام ليسوا إخْوةً في الحجّ وفي الصلاةِ فقط ، بل هم إخوةٌ في كُلِّ ميدانٍ من ميادينِ الحياة في الإسلام .

* * *

وكثيراً ما نسمَعُ أنّ الحجّ مؤتمرٌ سَنَويّ عامٌّ . ولكن ربّما غامَ المَعْنى المقصودُ في ذهنِ السامعِ إذا سَبَقَ إلى ذهنه صورةٌ من تلك المؤتمرات السياسية التي تُعْقَدَ في العالم اليومَ في الغَرْب وفي الشرق .

إنّ العددَ الأكبر من المؤتمرات السياسية يُعقَدُ للإلهاءِ عن القضايا الثائرة ، ذلك لأنّ أهلَ تلك القضايا يُعلنون عن هذه المؤتمرات ثمّ يُؤجّلونها مرّةً بعدَ مرّةٍ أو يَنْقُلون انعقادَها من مكانٍ إلى مكان أو يُبدّلون في مَوْضوعاتِها ويَعُدّون ذلك بَراعةً في علم السياسة . أمّا المؤتمرُ الذي هو الحجُّ فليس مناسبةً سياسيةً ، بل هو عبادة لله تعالى مثلَ أداءِ المناسك . فكما أنّه لا يجوزُ أن يُخادِعَ الحاجُّ أحداً في أداءِ مَناسكِه ، فكذلك لا يجوزُ له أن يُخادع أحداً في أمورِ المُسلمين التي يبحَثُ فيها . وحينما تِصْبحُ السياسةُ عِبادةً تِصْبحُ سِياسةً إسلامية وتُصْبحُ سياسةً صحيحة .

والسوء في المؤتمرات السياسيةِ التي تَعَلَّمَها المسلمون من الأغيار أنّ لها ظاهراً وباطناً ، وأنّ فيها مُقرّراتٍ تُعْلَنُ ومقرّراتٍ لا تُعلَنُ ، وأنّ هذه المقرّراتِ تُصاغ عادةً صِياغةً تحتملُ التأويلَ فيشُدّ بها كُلُّ فريقٍ إلى جانبه . أمّا حينما يكونُ الحجّ الأكبرُ مؤتمراً فإنّ كُلَّ هذه البَراعاتِ تسقُطُ فلا يبقى في مؤتمرِ الحجّ الأكبرِ ظاهرٌ وباطنٌ ولا سِرٌّ ولا عَلَنٌ ، بل يبقى ثمّةَ عِبادةٌ يُؤدّيها الإنسان في إخْوَتِهِ المُسلمين نحو ربّه .

ثمّ إنّ المؤتمر في الحجّ الأكبرِ مؤتمرٌ بالمعنى الصحيح يحضُره كلُّ المُسلمين في الحجّ على مُستوَى استطاعَتِهِم ولا يكونُ وقْفاً على نفرٍ قليلين دون الجماعة الكبيرةِ . هذا معنى قولِهِ تعالى : ﴿ **لِيَشْهَدوا منافعَ لهم** ﴾ . فإنّ المنافعَ في الدين وفي الدنيا وللخاصّ وللعامّ .

وأحِبّ أنْ أُوَجِّهَ إلى ذوي الاستطاعةِ القُصوى من المسلمين رجاءً هو أن ينظُروا في قولِه تعالى : ﴿ **الحجُّ أشْهُرٌ معلومات** ﴾ ، أي أشهُرٌ معيّنةُ الزمنِ يُؤدّي المسلم مناسكَه في الأيام المَعدوداتِ منها . ولكن لا بأسَ في أن يَعُدَّ ذوُو ٱلإستطاعة القصوى هذه الأشهُرَ كُلَّها حَجّاً ٱجتماعيّاً . فإذا قَضَوْا مناسِكهم في الأيامِ المعدودة ٱنصرفوا في بقيّةِ هذه الأشهُرِ المعلومةِ إلى لقاءِ إخْوَتِهِمُ القادمين إلى الحجّ من جميعِ أنحاء العالم الإسلاميّ للتشاوُرِ في شُؤونِ المسلمين في كُلِّ بُقعة من بِقاعِ الأرض . هذا المؤتمرُ الإسلاميّ العامُّ يحسُنُ أن يستمرَّ كلَّ هذه الأشهُرِ حتّى يُحقّقَ الحجُّ الأكبرُ غايتَيْهِ الدينيّتين : الغايةَ الشخصيةَ الخاصّةَ وهي أداءُ المناسك ثمّ الغايةَ ٱلِاجتماعية العامّة وهي لقاءُ المسلمين والتشاوُرُ في أمورِ البلاد الإسلامية .

وأُولى القضايا التي يحسُنُ دَرْسُها في مثل هذا المؤتمر العامِّ في الحجّ قضيّةُ الذبائح . ولقد سبق أن دَرسَ المسلمون هذه القضيّةَ فلم يَصِلوا إلى نتيجةٍ حاسمةٍ ذلك لأنّ تنظيمَ الذبْحِ يحتاجُ إلى جُهودٍ كبيرة . والذي يشعُرُ به كُلُّ مُسلمٍ أنّ المسلمينَ يذبَحُون كثيراً من غيرِ أنْ تكونَ الفائدةُ ٱلِاقتصاديةُ وٱلِاجتماعية وافيةً بالمقصود . فليس من المعقول أن تكثُرَ الذبائحُ في الحجّ ويذهَبَ قسمٌ غيرُ قليلٍ منها هَدْراً ثمّ يكونَ هنالك في أثناء العامِ بلادٌ إسلامية تَجوعُ . إنّني بالأسطرِ القليلة الباقيةِ لي في هذا الحديثِ لا أُحاولُ حلَّ هذه المشكلةِ ، ولكنّي أُريد توجيهَ النظر إليها للبدْءِ بِدِراستِها دراسةً تخرُجُ بنتيجةٍ حاسمة .

هذه جوانبُ ٱجتماعية من الحجِّ في الإسلام عسى أنْ أكونَ بها قد كشفتُ عن تلك القوّة العظيمةِ الكامنةِ في الجانبِ ٱلِاجتماعي من حيث تطبيقُ ذلك على الحاجات العارضة في أيّامنا . إذا كان العالمُ اليومَ يدعو إلى تعارُفِ البشر في سبيلِ حياةٍ أكثرَ هُدوءاً وأحسَنَ سلاماً وأكبرَ فائدةً للبشر جميعاً ، فإنّ هذا الذي يدعو الأغيارُ إليه قد جاءَ به الإسلامُ مُنذُ أربعةَ عَشَرَ قرناً في كثيرٍ من تعاليمِه ، وخصوصاً في الحجّ .

القرن الخامسَ عَشَرَ للهِجرة(*)

إذا كان الناسُ يعتقدون أن القرنَ الخامسَ عَشَرَ للهِجرة سيبدأُ (الأربعاء أوّلَ المُحرّمِ من سَنَة ١٤٠٠) فحسابُهم خطأ . إنّ السَّنة ١٤٠٠ تابعةٌ للقرنِ الرابعَ عَشَرَ ، والقرنُ الخامسَ عَشَرَ يبدأ في أوّلِ المُحرّم من سَنَةِ ١٤٠١ .

ومعَ ذلك فلا ضَرَرَ من التبكير في آلِاحتفالات وفي إبرازِ معالمِ الذِكرى ، وإن كُنتُ أتمنّى أن يكونَ العرب خاصّةً والمسلمونُ عامّةً أدقَّ في الحُسبان .

آنطوى القرنُ الرابعَ عَشَرَ - أو كاد - وللمسلمين قضايا لا تزال مُعلّقةً : آلِاستعمارُ الظاهرُ والخَفِيّ ، حركةُ التنصير ، الجوعُ ، فِلسطينُ ، الأحزابُ المتصارعةُ ، الحُكُم السياسيّ الضعيفُ ، وغير ذلك .

والخروجُ من هذه القضايا مخرجاً كريماً إنّما يكون بالعِلم :

يحسن أن نتعلّم الأمورَ الضروريّةَ النافعة (متى يبدأ القرنُ ومتى ينتهي : القرن مِائةُ سَنَةَ ، فإذا بدأنا العدّ من الواحد فالانتهاء يكونُ حتماً بالمِائَةِ . . .) .

هنالك جُملةٌ واحدةٌ : إنّ الذين يتولَّوْنَ أمورَ المسلمين يجب أن يكونوا على قَدْرٍ وافرٍ من العلم . وأنا مؤرخٌ أنظُرُ إلى الأحداث من قاعدةِ الأسباب والنتائجِ . والنتائجُ التي آنتهى - أو سينتهي - القرنُ الرابعَ عَشَرَ بها ليستْ كريمةً . فعسى أن يعمَلَ الذين يتولَّوْنَ أُمورَ المسلمين في المَشْرِق والمَغْرب لِتكونَ أحوالُ المسلمين في القرنِ المُقْبِلِ أحسنَ نتائجَ وأقربَ إلى الكرامةِ الإنسانية .

١٩ / ١١ / ٧٩ .

(*) في ١٩ / ١١ / ١٩٧٩ م (أواخر ذي القعدة ١٣٩٩ هـ) .

في استقبال القرن الخامس عشر(*)

لا نزال في القرن الهجريّ الرابعَ عَشَرَ . إنّ القرنَ الهِجريَّ الخامسَ عَشَرَ سيبدأ في غُرّة المُحَرَّمِ من السَّنة الواحدة بعد الأربعِمِائَةِ والألف (١٤٠١) .

وما ذا الذي جَلَبَه الإسلامُ للإنسانية منذُ أربعةَ عَشَرَ قرناً من الزمن ؟

ذلك سؤالٌ لا تصعُبُ الإجابة عليه بل تطول كثيراً . ماذا نقولُ في فضل الإسلام على الإنسانية في الدين والأخلاق والعلم والفلسفة واللغة والأدب والتشريع وغيرِها ؟ لقد عَرَضَ مثلُ هذا السؤالِ لأحمدَ شوقي سيّدِ الشعراء في العصر الحديث فقال :

ولا أزيـدُك بـالإســلامِ معرِفَـةً ؛ كُلُّ المُروءةِ في الإسلامِ والحسبِ .

والحسبُ هو العملُ النبيل .

سأتكلّم على فضلٍ واحدٍ من فضائلِ الإسلام ، على فضلٍ لم نجد مثلَه ولا قريباً منه في الأديان السابقة . إنّ الإسلامَ قد حَفِظَ للإنسان كرامته .

المجوسيّةُ عدّتِ الإنسانَ « غيرَ مُهذّبٍ » وآخترعتِ التناسُخَ (تقلّبَ النفسِ الواحدةِ في أجسادٍ مختلفة من البهائمِ والسِباع والبشر) حتّى تتهذّبَ النفس .

واليهوديّةُ والنَّصرانيةُ عدّتا الإنسان مسؤولاً عمّا فعلَه سابقوه في الحياة ،

(*) يبدو أن هذا الحديث كان في اليوم الذي كتبت فيه الكلمة السابقة (١٩ /١١ /١٩٧٩ م) . - راجع ص

منذُ آدمَ . ففي اليهوديّة أن اللعنة (أو السوءَ أو الخطأ) « يلحَقُ » بالشخص منذُ الجيلِ السابع السابق عليه . والنَّصرانيةُ عدّتِ الإنسانَ قَذِراً مُذْنِباً . إنّ المولودَ يُعمَّدُ في نهر الأُردُنّ (كما كان المجوسيُّ يغتسلُ في نهر الكَنْج - في الهند) لِيَطْهُرَ . والألمان - في حركة الإيمان الجديد ، في أيامِ هتلرَ - رأَوْا أن يستبدلوا بنهر الأُردُنّ (لِبعدِه عنهم) نهرَ الراين . إنّ النصارى عموماً ، في أقطارِهِمُ المختلفة ، آستعاضوا عن النهر بوعاءٍ يُغْمَسُ الطِفل في مائه . وكذلك قالت النصرانيةُ إنّ المسيحَ قد جاء لِيَحْمِلَ عن البشرِ خطيئاتِهم . إنّ الإنسان في النّصرانية مسؤولٌ عن الذنبِ الذي آقترفه آدمُ في الجنّة لِاقترابه من حَوّاءَ . وإنّ الفردَ في النَّصرانية لا يستطيعُ أن ينجُوَ في الآخرة من عذابِ النار إلّا إذا آمَن بالمسيح على الطريقة التي أقرّتْها الكنيسةُ ، ولا يستطيعُ أن ينجُوَ بعملِه هو .

إنّ جميعَ هذه الأديانِ جعلتِ الإنسانَ قَذِراً (يحتاج إلى تطهير) ومُذنباً (يحتاج إلى تعذيب - عن ذنبٍ آقترفه غيرُه) وعاجزاً لا يستطيعُ أن ينجُوَ إلّا بآخَرَ يَحْمِلُ عنه ذنوبَه ، ذنوبَه التي آقترفها هُوَ والذنوبَ التي آقترفها من كان قبلَه .

* * *

أمّا الإسلامُ فقد جَعَلَ للإنسانِ كرامةً : إنّ الإنسانَ يُولَدُ طاهراً بريئاً من الذنوب ولا يُسألُ إلّا عن الذنوبِ التي يَرتكِبُها هو نفسُه . ثمّ إنّ الإنسانَ ينجو في الآخِرةِ بعَمَلِهِ هو . وفي القرآنِ الكريم وفي الحديثِ الشريف شواهدُ كثيرةٌ على ذلك كُلّهِ :

ففي حديثِ رسولِ الله : « كُلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطرة ، فأبَواهُ يُهَوِّدانهِ أو يُنَصّرانِه أو يُمَجّسانهِ » . في هذا الحديث أنّ كُلَّ طِفلٍ (مولودٍ في أُمّةٍ من الأمم) يولد على الفِطرة (على الدين الخالصِ الذي لا شوائبَ فيه) ثمّ إنّ العواملَ آلِاجتماعيةَ من التربيةِ (على يدِ الأبَوَيْنِ والمُعلّمينَ والرِفاقِ) يستقرُّ في الفِطرة السليمةِ أو ينحرفُ إلى الحياة المُشوَّهةِ .

ثمّ إنّ في القرآن الكريم آياتٍ كثاراً تدُلُّ على مكانةِ الإنسان في الكرامة

وفي الحقّ وفي المَسْعى خيراً أو شرّاً . فَلْنُحاوِلْ أنْ نتأمّلَ الآياتِ التاليةَ (بلا تفسيرٍ ، لأنّها هي ظاهرةُ المعنى ، ولأنّ التفسيرَ محتاجٌ هنا إلى صَفَحات كثيرةٍ) :

*** ﴿ ولقد كَرّمنا بني آدمَ وحَمَلْناهُمْ في البرّ والبحر ورَزَقْناهُمْ من الطيّباتِ ، وفضّلْناهم على كثيرٍ ممّن خَلَقْنا تفضيلاً ﴾** (١٧ : ٧٠ ، الإسراء) .

*** ﴿ تلك أُمّةٌ قد خلَتْ، لها ما كَسَبَتْ ولكم ما كسَبْتُمْ . ولا تُسألونَ عمّا كانوا يَعْمَلون ﴾** (٢ : ١٣٤ ، ١٤١ ، البقرة) .

*** ﴿ منِ آهتدى فإنّما يهتدي لِنفسِه . ومن ضلّ فإنّما يَضِلُّ عليها . ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخْرى . وما كُنّا مُعَذِّبينَ حتّى نَبْعَثَ رسولاً ﴾** (١٧ : ١٥ ، الإسراء ؛ راجع ٦ : ١٣٤ ، الأنعام ؛ ٣٥ : ١٨ ، فاطر ؛ ٣٩ : ٧ ، الزمر ؛ ٥٣ : ٣٨ ، النجم) .

***﴿ يا أَيُّها الناسُ ،آتّقوا ربَّكُمْ وآخْشَوْا يوماً لا يَجْزي والدٌ عن وَلَدِه ، ولا مولودٌ هو جازٍ عن والدِه شيئاً . . . ﴾** (٣١ : ٣٣ ، لقمان) .

* * *

إنّ الإسلامَ قد أحلّ الإنسانَ في مقامٍ كريمٍ وأنزلهُ مَنْزِلةً فاضلةً . للإنسانِ في الإسلامِ سعيُه الشخصيُّ : إنّه يُحاسَبُ على ما يَعْمَلُه هُوَ : إذا أحسَنَ عملاً أثابَه اللّهُ على ذلك العَملِ الحَسَنِ خيراً ، وإنْ أساءَ عملاً عاقبه اللّهُ على ذلك العَملِ شَرّاً . ولا يُثابُ أحدٌ في الإسلام ولا يُعاقَبُ على عملٍ عَمِلَه أحدٌ غيرُه ، ولو كان ذلك الشخصُ والدَه أوِ آبنَه . إنّ الأديانَ الأُخرى تجعَلُ الطِفْلَ المولودَ اليومَ مُستَحِقّاً للعقابِ على الخطيئةِ الأصليةِ التي جاء بها آدمُ ، بزعمِهِم . إن آدمَ - عندَنا - قد عَصَى اللّهَ لأنّ آدمَ كان إنساناً يُصيبُ ويُخطىء . ولم يكنْ من العدل عندَ الله أن يُخطىءَ آدمُ فيُعاقِبَ اللّهُ الناسَ

كلّهم بهذه الخطيئة . ومع ذلك فإنّ اللّهَ تعالى قد قضى، في عِصيانِ آدمَ قضاءه ، فقال : (٢٠ : ١٢١ - ١٢٢ ، طه) :

* ﴿ ... وعصى آدمُ ربَّهُ فغوَى . ثمّ اجتباه ربُّه فتابَ عليه وهَدى ﴾ .

فإذا كان اللّهُ قد تابَ على آدمَ وهداه (وغَفر له خطيئته) ، فما المُسَوِّغُ لمُؤاخذةِ نسلِ آدمَ بذلك الذنب .

* * *

إنّ الإسلامَ قد جاء إلى الناس وخاطبهم بالعَقْل والحقّ والعدل والرحمة . أمّا الأديانُ القديمةُ والوثنيةُ وأمّا الأديانُ السماويةُ التي بأيدي الناس والتي قد بدّلها رؤساؤها وجَهْلُ أتباعِها فإنّها لا تقوم حُجّة في الحياة الدنيا ولا في الحياة الأُخرى . أمّا الذي حَمَل رُؤساء الأديانِ الأُخرى على تحميلِ الناسِ ذنوبَ آبائهم وإخوانِهم ومُعاصريهم وسابقيهم في الزمنِ ، فذلك لأنّ تلك الأديانَ المُبَدَّلَة قد جعلتِ الآخرةَ وحدَها هي الغايةَ من الحياة الدنيا . أمّا الإسلامُ فجعل لهذه الحياة الدُنيا قيمتَها وللحياة الأُخرى قيمتَها . قال رسولُ اللّهِ ﷺ :

« اعمَلْ لدُنْياكَ كأنّكَ تعيشُ أبداً ، واعمَلْ لآخِرَتِكَ كأنّك تموتُ غداً » .

ولا حاجةَ إلى الكلام على الفضائلِ الباقية ، فإنّ جميعَ الفضائلِ الدُنيويّةِ مشتقّةٌ من هذه الكرامةِ التي مَنَحها الإسلامُ للإنسانِ .

الأعياد في الإسلام

أعياد توحيدية

كانتِ السَّنة العربية قبلَ الإسلام سَنَةً شمسية أشْهُرُها قمريةٌ : كان الشهر العربيُّ يبدأ معَ الهلال الجديد ، فإذا تم إثنا عَشَرَ شهراً قمرياً نقصتِ السَّنة العربية أحدَ عَشَرَ يوماً عن السنة الشمسية . وحَرَصَ العربُ على ألاّ تختلفَ الأشهرُ القمرية في موقِعها من فصول السَّنة عن الأشهر الشمسية فكانوا يزيدون في كُلِّ ثلاثِ سَنَواتٍ شهراً قمرياً . هذا الشهر الثالثَ عَشَرَ في كل ثلاثِ سنوات كان يسمى النسيء .

ولا ريبَ في أن فِكرة النسِيء كانتْ حيلةً فَلَكيةً حِسابية لها حسناتُها ولها سيئاتها . ولكنها كانت خطراً عظيماً على ٱلإِجتماع وٱلإِقتصاد والدين . من أجلِ ذلك حَرّمه الإسلامُ . ففي القرآن الكريم : ﴿ **إنما النسيءُ زِيادةٌ في الكفر يُضَلّ به الذين كفروا يُحِلّونه عاماً ويُحرّمونه عاماً لِيُواطئوا عِدّة ما حرّم الله** ﴾ .

ولقد كان لتحريم النسيء فوائدُ كثيرةٌ سنأخذ نحن منها واحدةً تتعلّق فيما نحنُ بسبيلهِ اليومَ : في ذِكرى المولدِ النبويّ الشريف . إن تحريمَ النسيء قد جَعَلَ الأعيادَ الإسلامية كُلّها تدورُ معَ فصولِ السَّنة فيأتي المولدُ في الصيف وفي الربيعِ أو في الشتاء أو الخريف . وهكذا ٱنقطع ما بين الأعياد الإسلامية وبين مَظاهرِ الطبيعة التي كان الوثنيون يَحْتَفلون بها . فعيدُ الأضحى لم يبقَ عيدَ

(١) نشر هذا المقال في مجلّة « العرفان » (صيداء « المجلّد ٣٧ : العدد ٣ ») ، جمادي الأولى ١٣٦٩ هـ (آذار - مارس ١٩٥٠ م) . وكانت هذه الكلمة قد ألقيت في الجامع العمريّ الكبير في بيروت .

الربيعِ ، كما كانَ في الجاهلية عند العرب . والمسلمون اليومَ لا يحتفلون بمجيء الربيعِ كما تحتفلُ الأممُ التي وَرِثَتْ أعيادَها من الوثنية . وكذلك المولدُ النبويُّ الشريفُ لا يجيءَ دائماً في فصلِ الشتاء ، كما هي الحالُ في هذا العام . فنحن المسلمينَ لا نحتفلُ بالمولد الكريم على أنه مولدُ خيرِ البشر ورمزٌ للشتاء معاً . ثمّ إنّنا لا نحتفل أيضاً بالمولد نفسِه إذا آتفق أن جاء في فصل الربيع على أنه مولدُ رسولِنا الكريم وذِكرى آستيقاظ الطبيعة بعد فصلَ الشتاء ، كما كان يفعلُ الفينيقيون الوثنيون . لا ، إننا نحتفلُ بمحمدٍ وحدَه ، سواءٌ جاء مولدُه الكريمُ في الصيف أو في الخريف أو في الشتاء أو في الربيع . إن أعيادَنا كَدينِنا أعيادٌ توحيدية لا صِلَة لها بمظاهرِ الطبيعة ولا صِلَة لها بالأعيادِ الوثنية . والإسلامُ في الحقيقة ليس دينَ توحيدٍ فحَسْبُ ، بل هو دينُ التوحيدِ . هو الدينُ الذي أوجبَ عبادةَ اللَّهِ عبادةً مُطلقةً مُجرّدةً من كل تشبيهٍ وتمثيلٍ . ولقدِ آستطاع الإسلامُ أنْ يُفهِمَ الناسَ ، حتى العامةَ منهم ، فِكرةَ التوحيد فهْماً واضحاً بيّناً مُقنعاً ، فآحترمَ بذلك العقلَ الإنسانيَّ وخلَّصَ الإنسانيةَ كُلَّها من شوائبِ الوثنية مرةً واحدة .

ولم تبرُزْ فِكرةُ التوحيدِ في نظامٍ دينيّ ما كبُروزِها في الإسلام . فالإسلامُ لم يتساهلْ في وثَنٍ أو صنمٍ أو صورةٍ ، ولا في تشبيهٍ لله تعالى بشيءٍ مما خَلَق أو ممّا نعلَمُ في عالَمنا : ﴿ **قلْ هُوَ اللّهُ أحدٌ ، اللّهُ الصمَدُ ، لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ، ولم يَكُنْ له كُفُواً أحدٌ** ﴾ .

والتوحيدُ أخصُّ خصائصِ الإسلام :

كان العربُ يعبُدون قبلَ الإسلامِ أوْثاناً مُتعدّدةً مختلفةً حتى آجتمع فوق الكعبة وحدَها ثلاثُمِائَةٍ وسِتّون وثَناً فرّقتِ العربَ قبائلَ وعشائرَ ، لا في النسبِ فحَسْبُ بلْ في العقيدةِ والحياة وآلِاجتماع والتفكير أيضاً ، فتفرّقتْ أهواؤهم وتشتّتت غاياتُهم يُنازِعُ الرجلُ منهم أخاه كما يُنازِعُ خصمَه ويُقاتِلُ أبناءَ عُمومتهِ كما يُقاتلُ الوُحوشَ الضواري . فتحوّلتْ بلادُ العرب كُلُّها ساحةَ حربٍ ومَعْقِلَ

خصام وخضعتْ قبائلُهم للروم والفُرس واللأحباش أيضاً . وإذا هذا الشعبُ العديدُ العظيمُ ضعيفٌ ، لا بل مُستَضْعَفٌ وذليلٌ ، لا بلْ مُذَلَّل ، وإذا آثنا عَشَرَ مِليوناً من البشر في بُقعةٍ من أوْسَعِ بِقاعِ الأرض وأمنعِ بقاعِ الأرض وأغنى بِقاعِ الأرض قد خيّم عليها الجهلُ والضَّعْفُ وفرّقتها الأهواءُ فخضعتْ تلك البقاع للعدُوّ وآستكانتْ للخصوم .

وأشرقَ الإسلامُ على هذه الأرض وأعلـنَ أن تعدّد الأهواء من تعدُّد الأوثان ، وأن تفرُّقَ القلوب من تفرّق الأرباب . فدعانا إلى عِبادة اللّهِ الواحدِ الأحدِ . وما أنِ انتصرَ الإسلامُ ودَخَلَ محمدٌ ﷺ في أصحابه إلى مكّة حتى صَعِدَ الكعبةَ وأخذ بيدِه الكريمةِ قضيباً وجعل ينكُث ما عليها من الأوثان حتى رماها كُلَّها أرضاً وجعل الكعبةَ بيتاً لله وحدَه . حينئذٍ آتّفقتْ أهواء العرب وتوحّدت غاياتُهم وأصبح الضعفاءُ بالأمسِ أقوياءَ ،والأذلاءُ بالأمسِ أعِزةً . وإذا العرب يخرُجون من شِبه الجزيرة بالإسلام وبالفتح فينشُرون التوحيدَ والحضارةَ في أقطار الأرض ويبنون أعظم دولةٍ بُنيت ، ويُنشئون أسمى حضارةٍ أُنشئتْ ، ويعيشون أعزَّ ما عاش قومٌ في بلادِهم وفي بلادِ غيرهم .

ورأى العدُوُّ ذلك رأيَ العين فأجمعَ أمرَه على نَزْعِ التوحيدِ من قلوب المسلمين فلم يستَطِعْ ، لأنَّ من ذاقَ حلاوةَ التوحيدِ لا يَلَذُّ له طعمُ الوثنية ؛ ومن أدركَ قيمةَ الوحْدانية لا يعودُ إلى الشِرْكِ أبداً . وراغ العدُوُّ روغةً فأتى المسلمين من جانبٍ آخَرَ ففرّق أهواءهم في السياسة والتجارة وفي الحياة آلاُجتماعية ، فإذا المسلمون مُوحِّدون في الدين مشركون في الرأيِ . وإذا هم موحدون في عِبادة ربِّهم وثنيون في تفرُّقهم بين زعمائهم . وإذا أولئك الزعماءُ يتخاصمون ويتنازَعون كأشدِّ ما كان يفعَلُ العربُ في الجاهلية ، حتى أذلّوا شعوبَهم ومزّقوا وَحْدَةَ أُمّتِهم .

فيا أيُّها المسلمون ، إن الإسلام دينُ توحيدٍ في العِبادة وفي العِلم وفي الحياةِ ، فوحّدوا إيمانَكم ووحّدوا أعمالكم ووحّدوا جُهودكم ووحّدوا مَسيرَكم

نحو العِزّة ونحو هَدَفِكُمُ الواحدِ تستعيدوا عِزّتكم التي غَبَرَتْ وتُصبحوا أنتُمُ أسيادَ بلادِكم وأسياداً في بلادِكم ، لا لُعَباً تتقاذَفُكم أهواءُ غيرِكم أو خُشُباً تُحرِّككم أيدي سِواكم . كونوا قلباً واحداً ويداً واحدةً وآرفعوا آمالَكم أملاً واحداً وآعملوا عَمَلاً واحداً .

أيها المسلمونُ ، إن لكم نبيّاً واحداً هو محمدٌ ﷺ ، وكتاباً واحداً هو القُرآنُ الكريم ، وإلاهاً واحداً هو اللَّهُ تعالى .

لقد عَلِمتم ماذا حل بنا حينما آختلفت أهواؤ نا وتفرّقت قُلوبنا وتعدّدت أربابنا من دون الله حتى غَلَبَ علينا عدُوُّنا وتمكّن منا خصمُنا . ولن نَرْجِعَ إلى حالِنا الأُولى إلاّ إذا رَجَعنا مُوحِّدين للَّهِ تعالى ، موحَّدةً أهدافُنا موحدةً آمالُنا موحَّدةً قيادتُنا . لقد ذُقنا الذلَّ مِنَ الشِرْك والوثنيةِ فَلْنَرْجِعْ إلى التوحيدِ تَعُدْ إلينا قُوّتنا التي غَبَرَتْ وعِزّتُنا التي آنصرَمَتْ : قل لِلَّهِ العِزّةُ ولرسولهِ وللمؤمنين .

في ذكرى عاشوراء ١٣٩٢ (*)

أفي هذا العام أيضاً؟ أجلْ! وفي كُلِّ عامٍ آخَرَ، إلى أن تكتسبَ الإنسانيةُ جمعاءَ علماً صحيحاً بقيمةِ المثَلِ الأعلى وإلى أن يجدَ الإنسانُ الفردُ حلاوةَ آلإستشهادِ في سبيلِ المبادىء السامية. ويبدو أن بينَ أبناءِ عصرِنا والوصولِ إلى هذه الأُمنيّة دهراً مديداً.

والبشرُ عادةً أكثرُ آحتفالاً واهتماماً بالمآسي مِنهُمْ بسائرِ الذِكْريات، ذلك لأنّ المآسيَ تجعَلُ الأفرادَ والجماعاتِ ضِعافاً فيُحاوِلُ كلُّ فردٍ أنْ يضُمَّ نفسَه إلى كُلِّ فردٍ آخَرَ في جماعته ليستمدَّ منه قوّةً على آحتمالِ المأساةِ الماضيةِ وليتجَنَّبَ مأساةً مُقبلة. من أجل ذلك كانتِ المآسي قادرةً على أن تجمَعَ بينَ طَبَقات الأُمّة أكثرَ ممّا تستطيعُ الأفراح. بعدَئذٍ تشعُرُ الأُمّة أنّها مشدودةٌ إلى ماضيها فتكونُ أكثرَ رَغبةً في الحِفاظ على وَحْدتها ومكانتها وجاهِها.

ثمّ إنّ الأحداثَ الباسمةَ في حياةِ الأُممِ أمورٌ عارضةٌ تمُرُّ مرّاً سريعاً عارضاً ثمّ تُنسى وَشيكاً. إنّ آلإنْتصارِ، مثلاً، عَطِيّةٌ تَهْبِطُ على الأحياء في الأمّة، فيتنَعّمُ بها أولئك الأحياءُ من غيرِ أن يكونوا قد دفعوا في سبيلِ الحصول عليها ثمَناً محسوساً، ذلك لأنّ الذين دفعوا ثمنَ هذا آلإنْتصارِ باهظاً ـ لمّا ضحَّوْا حياتَهم في سبيله ـ يكونون قد ماتوا ثمّ غابتْ أخبارُهم في سَكْرةِ الظفر وفي غَمْرة آلإحتفال بالظفَر.

---

(١) في ١٠ / المحرّم ١٣٩٢ هـ (حديث ألقي في الثانوية العاملية ـ بيروت) ـ كتب في ثامن المحرّم ١٣٩٢ هـ (٢٣ /٢ /١٩٧٢ م)..

إنّ الذين آخترعوا فِكرةَ الجُنديّ المجهول هم الذين أدركوا أنّ الظفَر الذي نالوه والإنتصارِ الذي آقترن بآسمِ أُمّتهم لم يجيئوا هم بهِ ، بل جاء به نفَرٌ ماتوا في سبيله وفي سبيلِهم فأقاموا قبراً واحداً لجميع أولئك المجهولين ثمّ آكتفَوْا بأنْ يزوروا ذلك القبرَ مرّةً واحدةً في العامِ زِيارةً رسميةً رَتيبةً ، وربّما وضعوا على ذلك القبرِ في كُلِّ مرّةٍ شيئاً من الزهْرِ . وكان هذا الزهرُ يذبُلُ وَشيكاً فسَئِموا تبديلَه مرّةً بعدَ مرّةٍ ، فآكتفَوْا بأنْ يصنَعوا إكليلاً من المَعْدَنِ الصُّلْبِ البارِدِ يُشْبِهُ الزهرَ ثمّ يضعوه على ذلك القبر رمزاً دائماً . ويمُرّ أحدُنا بالبناءِ القائمِ على ذلك الرمزِ ـ في غيرِ يومِ الاحتفال ـ كما نَمُرّ كُلُّنا بكلِّ بناءٍ آخَرَ في كُلِّ مكانٍ آخَر .

أمّا المآسي فإنّها من بابٍ آخَرَ : إنّ المأساةَ التي تحدُثُ في يومٍ من تاريخ الأُمّةِ يبقى أثرُها باقياً في حياةِ الأمّة ما بَقِيَ تاريخُ الأُمّة ، ذلك لأنّ الأفرادَ الذين بَقُوا بعدَ المأساةِ هم الذين يدفَعون ثمنَ تلك المأساةِ في كُلِّ يومٍ من أيامِ حياتهم . مِنْ أجلِ ذلك كانَ الأسى في صُدورِ البشر لا يُنسى !

لن أقولَ في آستشهادِ الحسين ، رَضِيَ الله عنه ، شِعراً ولا خَيالاً كالشعر . فمَنْ ذا الذي يستطيعُ أن يسمُوَ بعاطفته وخَياله إلى أن يقول كما قال الشريف الرضيّ في مأتمِ الحسين :

مَـيِّـتٌ تـبـكـي لـه فـاطـمـةٌ وأبـوهـا وعـليٌّ ذو الـعُـلا !

فأيّ بحرٍ من الدموع يُمكِنُ أن توزنَ به دمعةٌ من عينِ رسولِ الله ـ هذا إذا نحن آكتفَيْنا بالوَزْن المألوفِ للأشياءِ .

وكذلك لن أتعرّضَ لقِصّة تلك المأساةِ ، فلقدِ آمتلأتْ بتفاصيلها كُتُبُ التاريخ . إنّ الحسينَ قد كَتَبَ صفحةَ تاريخِه قبلَ أن يكتُبَها المؤرّخون له ويتصرّفوا في حوادِثها كما يشاءون وكما تُزيِّنُ لهم أهواؤهم . كانَ الحُسينُ يعلَمُ ، منذ خُروجه من المدينة ، عاقبةَ خُروجه من المدينة . لقد عَلِمَ أنّه كان مُقْبلاً على معرَكةٍ معروفةِ النتائج . ولكنّ الحسينَ ، رَضِيَ اللّهُ عنه ، كان يُدْرِكُ

أنّ للحياةِ ثمناً تَقْتضيه الحياةُ نفسُها : فالحياةُ ليست قضاءَ أعوامٍ معدودةٍ قليلةٍ أو كثيرةٍ على هذه الأرض ، ولكنّها خُطوةٌ بالجماعة في مَوْكِبِ الحضارة ، أو زِيادةٌ في قوّة الجامع الذي يجمعُ بعضَ أطرافِ الأُمّة إلى بعضٍ ، أو إقامةُ دليلٍ على صِحّة مبدأٍ من المبادىء . ولا يكونُ بعضُ ذلك مُمْكِناً أحياناً إلّا إذا بذَلنا في سبيلِه أثمنَ ما في الحياة - إذا بذَلْنا الحياةَ نفسَها .

ثمّ إنّي لن أُوازِنَ بينَ تَضْحِيَة الحسين وغيرِها من التضحياتِ ، فَمَنْ ذا الذي قال إنّ الموازنةَ في ذلك مُمكنةٌ ؟ إنّنا نَقيس الأمْثِلةَ بقواعِدها ، ولكنّ القواعدَ لا تُقاس إلّا بمنطقِ القواعدِ نفسِها . من أجل ذلك قال سَيّد المُؤرّخين ابنُ خَلْدونٍ : « وأمّا الحُسين فإنّه لمّا ظَهَرَ فِسْقُ يزيدَ عند الكافّة من أهل عَصْرِه بَعَثَتْ شيعةُ أهلِ البيت في الكوفة إلى الحُسينِ أن يأتِيَهم فيقوموا بأمرِه . فرأى الحسينُ أنّ الخُروجَ على يزيدَ مُتَعَيِّنٌ من أجل فِسقه ، ولا سِيّما مِمّن له القُدرةُ على ذلك ، وظنّها الحسينُ من نفسِه بأَهْلِيَّتِه وشَوْكته (قُوّته) . فأمّا الأهليةُ فكانتْ كما ظنّ وزِيادةً . . . وأمّا الحُكم الشرعيُّ فإنّه لم يغلَطْ فيه لأنّه مَنوطٌ بظَنّه ، وكان ظنُّه القدرةَ على ذلك . . . ولأنّه مُجتهدٌ في ذلك **وهو أُسْوَةُ المُجتهدين** ! ولا يجوزُ لِيَزيدَ قِتالُ الحسينِ ، بل هُوَ من فِعْلاتِه المُؤكِّدةِ لِفسقه . والحسينُ فيها شهيدٌ مُثابٌ ، وهو على حقٍّ في اَجتهاده » .

ثمّ إنّني لن أتناولَ المغزى من مأساةِ كربلاءَ بشرحٍ ولا بتلخيصٍ ، فلقد أكثرَ الكُتّاب والخُطباء والشعراء في كُلِّ وجه من وُجوه هذا المغزى . وما عَسى أحدُنا أن يقولَ بالكَلِمات وبالجُمل وبالخُطب والمقالات ما يكون أبينَ وأوجزَ وأوقعَ في النفس وأجلَّ في العقل من عَمَلِ الذي ضحّى نفسَه في السبيلِ الصحيحِ على الوجهِ الصحيح ؟

* * *

ولكنْ هل أستطيعُ أن أستميحَكُمْ جميعاً عُذراً فأنتقلَ من ذلك الماضي النبيلِ الذي طالما كثُرَ كلامُنا فيه من غيرِ أن نستطيعَ أنْ نزيدَ في نُبلِه من عندنا

شيئاً إلى هذا الواقعِ المؤلم الذي لا يُغني فيه كلامُنا عنِ الماضي شيئاً ! ثمّ هل يجوزُ لي ان أتكلّمَ على ما أنا بسبيلهِ بقَدْرٍ قليلٍ من العاطفة وبِمِقْدار أكبرَ من العقل ؟

إذا كانتْ مأساةُ كربلاءَ هي المظهرَ الخارجيَّ لحياةِ الحسينِ ، رَضِيَ الله عنه ، فما الحقيقةُ الدائمةُ آلتي آنْطَوَتْ عليها تلك المأساةُ ؟ دَعْنا ننظُرْ إلى العرب اليومَ - وإلى المُسلمين أيضاً - في جميعِ الأقطارِ من بلادِ العرب والمُسلمين ، ثمّ نقارنْ حالَنا بحالِ البشر الذين يُشاركوننا المعيشةَ على سطح هذا الكوكبِ ، فأينَ نرى أنفُسَنا منهم ؟ ثمّ إذا نحن قارّنا حالَنا اليومَ بحالِ أسلافِنا من قبلُ - حتّى في الأعصرِ التي كان فيها أسلافُنا على حالٍ لا تَسُرّ - فماذا نرى أيضاً ؟ إنّ الناظِرَ البصيرَ يكاد يلمَسُ على كُلِّ جانبٍ مِنّا كربلاءَ جديدةً مُطلّةً ، ولكنّها كربلاءُ بغيرِ حسينٍ !

لا يستطيعُ أحَدٌ أن يُنكِرَ أنّ نفَراً كثيرين من العرب اليومَ - وأن أقواماً كثيرين منهم أيضاً - هُمُ اليومَ أرقى شخصيّاً وعِلميّاً وآجتماعيّاً واقتصاديّاً مِمّا كان بعضُنا عليه منذُ خمسينَ عاماً أو نحوِها ، ولكنّ المجموعَ اليومَ أدنى في سُلّمِ الرقيِّ كثيراً ، لا لأنّ العربَ أنفُسَهم لم يتقدّموا ، بل لأنّ غيرَنا قد تقدّمَ أشواطاً مديدةً حتّى أصبحَ الفرقُ بينَنا وبينَ غيرِنا بُعْدَ المشرقينِ وبئسَ القَرين . والذي أراه لِدَفْعِ هذا السوء وردِّ القوّة إلى أبدانِنا ونفوسِنا ومؤسّساتِنا رأيٌ قديمٌ لعلّي أستطيعُ أن أَعْرِضَه عرضاً جديداً :

إنّ أوّلَ ما يَفْرِضُ علينا آحتفالُنا بذِكرى آستشهادِ الحُسينِ ألاّ يقتَصِرَ هذا آلاِحتفالُ على الجانبِ الأدبيّ من الشعر والنثر ، بل يحسُنُ أن نَضُمَّ إلى هذا آلاِحتفالِ الأدبيّ النَّظَريِّ إصلاحاً آجتماعيّاً عَمَليّاً . وأوّلُ هذا الطريقِ السَويِّ دعوةٌ صالحةٌ إلى الوِفاق . إنّ العربَ اليومَ - والمُسلمين أيضاً - مُمزَّقون بالاتّجاهاتِ المختلفةِ التي تُسمّى حِيناً سياسيّةً وحيناً فِكريّة وحيناً عالميّة . وآختلافُهم هذا في المبادىء قد مزّقَ وَحْدَتَهُمُ آلتي كانتْ سِياجاً حولَهم ثمّ

شتّت قُواهُمُ ٱلتي كانتْ بالأمس تَضَعُهُمْ على رأس مَوْكِبِ الحضارة . وأسوأ ما في الأمر أنّنا نُواجِهُ أعداءً بينَ أنفُسِهم من العِداء شيءٌ كثيرٌ ، ولكنّهم كُلُّهم مُتالِبون مُتّفقون علينا ؛ حتّى الدولُ التي كانتْ قد غَضِبَتْ على اليهودِ وأخرَجَتْهُمْ من دِيارها تَجِدُها اليومَ واقفةً في صفّ اليهودِ تُناصِبُنا العِداءَ . فما الذي يمنَعُ أنْ نقِفَ مُتّفقينَ فيما بيننا عليهم .

إن جميعَ الذين يعْمَلون في الحقلِ الثقافيّ يعْلَمون أن الخِلافَ موجودٌ في كُلِّ مكانٍ وفي كُلِّ حَرَكةٍ . والخلافُ فنّ من فُنون الفِقه في الإسلام : إنّ نفراً من الفقهاء في المذهب الواحدِ يختلفون أحياناً في القضيّة الواحدة آختلافاً كبيراً حتّى لَيَخْرُجُ أحدُهم عن إجماعِ أندادِه ومُناظِريه . ثمّ ها هي ذي المذاهبُ الفلسفية وٱلِاجتماعية وٱلِاقتصاديةُ والأدبية تملأ الكُتُبَ وتحتلّ المنابرَ . وربّما تنازَعَ أصحابُ المذاهب ٱلِاقتصادية في مُستوَى المعيشةِ وفي تأميمِ الإنتاج وفي ٱلِاكتفاء الذاتيّ ، ولكنّ مجموعَ الناسِ في كُلِّ مكان يظَلّون بعيدينَ عن هذا التنازُعِ ثمّ يستفيدون من الرُّقيّ الاقتصاديّ العالميّ .

ونحنُ جميعاً في هذا الزمن ، وفي كُلِّ زمنٍ ، أحوجُ ما نكونُ إلى ٱلِاقتداء بالإمامِ الذي نحتفلُ اليومَ بذكرى آستشهاده : إنّ الحسينَ ـ رَضِيَ الله عنه ـ لمّا غادَر المدينةَ مُتّجهاً إلى الكوفة ، ثمّ غادرَ الكوفةَ وآنتهى به المسيرُ في كربلاءَ ، وقد خَذَلَهُ مَنْ خَذَلَهُ ، لم يُفرّق عندَ الدِفاع عن الحقّ بينَ الذين نَصَروه والذين خَذَلوه ، وليس الحسينُ اليومَ فينا لقومٍ دونَ قومٍ ، ولكنّه منذُ كانَ ، كان ولا يزالُ قُدوةً لَنا جميعاً .

فما أحوجَنا اليومَ إلى رجلٍ منّا يتحلّى بثُقوبِ الذهن وبُعدِ النظر وصِدق التضحية يجمَعُ الشملَ ويسيرُ على الهُدى ويُسَدِّدُ الخُطى فيخرُجُ بهذا العالم الحائرِ مِنَ الضَّياع إلى الحزْمِ ، ومن الشَّتات إلى ٱلِاجتماعِ ومن الضَّعف إلى القوّة . ولَعَلّي لم أُحْسِنِ القولَ في ما قَصَدتُ ولا آستطعتُ التِّبيانَ عمّا يجب أن

يكونَ التِّبيان فيه ، وفي كلام البشر عجزٌ عمّا وراءَ طَوْر البشر . فَلْيَكُنْ لنا في قولِ الله تعالى غُنْيَةٌ عن كلِّ قولٍ . قالَ تعالى :

﴿ واَعتصِموا بحبلِ الله جميعاً ولا تَفرّقوا ؛ واَذكروا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إذ كُنْتُمْ أعداءً فألّفَ بينَ قُلُوبِكُمْ فأصبحتُمْ بِنِعمتهِ إخواناً . وكُنْتُمْ على شَفا حُفْرةٍ من النارِ فأنْقَذَكُمْ منها . كذلك يُبَيِّنُ اللّهُ لكم آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدون . وَلْتَكُنْ مِنكم أُمَّةٌ يَدْعون إلى الخيرِ ويأمُرون بالمعروفِ وينهَوْنَ عن المُنْكَرِ . وأولئكَ هُمُ المُفلحون ﴾ .

صدق الله العظيم .

والسلام عليكم ورحمة الله .

المأساةُ والتأسّي (*)

أفي كُلِّ يومٍ لنا وَقْفَةٌ ... ورَكْبُ الحياة بنا يعبُرُ[1]؛
ونحنُ عنِ الدهرِ في غفلةٍ، ... وللدهرِ مكرٌ بنا مُنْكَرُ؟
بِطاءُ المَسيرِ إلى المُرتجى ... سِراعُ الأماني فما نَصْبِرُ:
وفي كُلِّ حَفْلٍ لنا صائحٌ، ... وفي كُلِّ حِزْبٍ لنا مِنْبَرُ.
نعُدُّ الغِنى نومةً في النعيمِ ... ونُبدي السُّرورَ بما يحضُرُ.
وسَعْيٌ لنا شجرٌ يابسٌ، ... وغُصْنٌ من الجُهْد لا يُثْمِرُ،
ومالٌ يموجُ كموجِ البحور ... وفقرٌ من العلم لا يُعْذَرُ.
وليسَ الثراءُ بجمعِ الحُليِّ، ... ولا العِلمُ ما تجمَعُ الأسْطُر.
حَضاراتُنا وَرَقٌ مُلصَقٌ ... على الجَذْرِ، لا جَذْوى ولا مَظْهَرُ[2].
نَغيظُ الصديقَ بأعمالِنا ... ونرجو العدُوَّ فيستَكْبِرُ.
ذَكَرْنا على الدهر يومَ الحُسينِ، ... ويومُ الحُسينِ هُدىً نَيِّر
لـه زَجَلٌ في ثنايا الزمانِ ... وعَصْفٌ على الظُلم لا يفتُرُ[3]
وعَوْدٌ كعَوْدِ الهِلالِ الجديدِ ... وطيبٌ كعَرْفِ الندى خَيِّرُ[4]

(*) كتبت هذه المحاضرة في ٩/ ١٢/ ١٩٧٧ م وألقيت في احتفالات العشر الأوائل من المحرّم (في الكويت) لمناسبة عاشوراء (عاشر المحرّم) من سنة ١٣٩٨ للهجرة.

(١) الركب: الجماعة (يسافرون معاً). عبر: مرّ.

(٢) الجدر (بفتح فسكون): الجدار (بالكسر)، الحائط.

(٣) الزجل: الصوت المرتفع. فتر: لان، سكن، برد، هدأ.

(٤) العرف: الرائحة الطيّبة. الندى: شيء يتطيّب (الناس) به كالبخور (بفتح فضمّ بلا تشديد) - راجع القاموس ٤ : ٣٩٤.

إذا جـدُرَ الحُـزْنُ بعـدَ الحُسينِ   فـإنّ الـتـأسّـي بـه أجدرُ[1].
خُـذوا سَمْتَه في خِضمّ الحياةِ   وعيشـوا كمـا عـاشتِ الأنْسُرُ[2].
فمـا ينفعُ الـدمعُ يـومَ الجِهادِ ،   ويـنفـعُ في يـومـهِ الأبترُ[3]!

* * *

أيُّها المَحْفِلُ الكريمُ .

إنّ مأساةً تعيشُ في قلوبِ الناسِ وعُقولِهم وفي حياتِهِمُ ٱلاِجتماعية ألفاً وثلاثَمائةٍ وثلاثينَ سَنَةً لَهِيَ مأساةٌ أليمةٌ حقّاً ، لا بما نَزَلَ منها بالحسين رَضِيَ اللّهُ عنه فقط ، بل بما تركَتْ من آثارِها المؤلمة في العالمِ الإسلاميِّ كُلِّهِ .

ولستُ هنا في مَقامِ ٱستنطاقِ التاريخِ فأنا مُنذُ خمسينَ سَنَةً أُدَرِّسُ تاريخَ صدرِ الإسلامِ وأمُرّ بهذه المأساةِ كما يَجُسُّ الطبيبُ الرفيقُ كفَّ المريض . ولقد دُعِيتُ إلى بَغدادَ ، في عام ١٩٤٠ ، فتولّيتُ في دارِ المعلّمينَ العاليةِ تدريسَ تلك الحِقبةِ التي تمُرّ فيها هذهِ المأساةُ بعدَ حوادثَ غيرِ سارةٍ كانتْ تُطِلُّ برأسِها في مدى عِشرينَ عاماً . والذي حَدَثَ أن هذه النائرةَ[4] الهائجةَ قد هدأتْ مُنذُ ذلك الحين ، ذلك لأنّي لا أنظُرُ إلى التاريخ من جانبِهِ السياسيِّ فقط ، بل من جانبه ٱلاجتماعيِّ أيْضاً ، بالإضافة إلى جوانِبِهِ الأُخرى .

في التاريخِ أحداثٌ كثيرةٌ تُثيرُ النفوسَ ، ولكنّي لا أعْرِفُ حادثةً بَلَغَتْ في ذلك إلى ما بلغتْ إليه مأساة كربلاءَ لِكَثْرَةِ العناصر التي ٱحْتشدَتْ على جانِبَيْها . ولا أراني بحاجةٍ إلى أن أُفيضَ في الكلام عليها فإنّها ليستْ معروفةً فَقَطْ ، بل هي محفوظةٌ أيضاً . ولكنّي أراني بحاجةٍ إلى بسط شيءٍ من فلسفةِ التاريخِ في ذلك .

حينما نأتي إلى تعليلِ التاريخ : إلى النظر في الأسبابِ والنتائج ، لا إلى

---

(١) جدر فلان بكذا : صار خليقاً به وأهلاً له ومستحقاً .
(٢) السمت : الاتّجاه ، الطريق الواضح ، الوقار والهيبة ، الهيئة .
(٣) الأبتر : السيف .
(٤) النائرة : الحادثة الهائجة أو الثائرة من عداوة .

آلاقتصار على القِصّة فقط ، نرى أن الحادثَ التاريخيَّ يَجري بعواملَ مختلفةٍ تَتفاوت في تأثيرها في كُلِّ حادثٍ من الحوادث . هذه العواملُ الفاعِلةُ في مجرى أحداثِ التاريخ مختلفةُ الطبائعِ : تكونُ لاهوتيّةً عند غير المسلمين ، وتكون طبيعيّةً وفلسفيةً وآقتصاديةً ونفسانيةً ومِثاليةً وآجتماعيةً . وخيرُ أوجُهِ التعليلِ التاريخيّ التعليلُ آلاِجتماعيّ لأنّه ينظُرُ في فَهْمِ أحداثِ التاريخ إلى عواملَ متعدّدةٍ لا إلى عاملٍ واحد . ويحسُنُ أنْ نذكُرَ أنّ المؤرّخَ ليس قاضياً بل حَكَمٌ . إنّه ليس قاضياً لأنّ الحادثَ التاريخيَّ إذا وقعَ لا يُمْكِنُ ردُّهُ . من أجلِ ذلك لا يستطيعُ المؤرّخُ أنْ يُبْطِلَ حادثاً من الأحداث ولا أن يصحِّحَ حادثاً من الأحداث ولا أن يُعاقِبَ المُسيءَ ـ لأنّ الذين تجري الأحداثُ على أيديهم أناسٌ هم أقوى من المؤرّخ ـ وكذلك لا يستطيعُ المؤرّخُ أن يرُدّ الحقَّ إلى أهلِه لأنّ الذين سَلَبوا ذلك الحقَّ من أهلِهِ هم أيضاً أقوياءُ،وإنّما رِسالةُ المؤرّخ أن يَفْهَمَ الماضيَ ثمّ يُفْهِمَهُ للأجيالِ المُقبلةِ ويُنَبِّهَ تلك الأجيالَ إلى عَثَراتِ الماضي حتّى لا تتكرّرَ تلك العَثَراتُ في المُستقبل . ولكنْ يبدو ، معَ الأسف ، أنّ عَثَراتِ الماضي تعودُ مرّةً بعدَ مرّة . ولذلك قِيل في التاريخِ ، من جانبٍ واحدٍ على الأقلِّ : التاريخُ يُعيدُ نفسَه .

ثمّ إذا نحنُ أتينا إلى دراسةِ مأساةِ كربلاءَ ، من حيثُ أسبابُها ونتائجُها ، كما يقتضي تعليلُ التاريخ ـ أو فلسفةُ التاريخ ـ لم يَخْفَ وجهُ الحقّ فيها على أحدٍ . ولكنّ المؤرّخَ ، كما قُلتُ آنفاً لا يستطيعُ أنْ يدرُسَ إلاّ ما وقعَ فِعْلاً ، ولا يستطيعُ أن يتمنّى على التاريخِ أن يسلُكَ مسلَكاً مُعيّناً .

سأحاوِلُ أن أجعلَ من التاريخ قاضياً ـ معَ أنّني قد قُلتُ من قبلُ إنّ المؤرّخ يكونُ حَكَماً ولا يستطيعُ أنْ يكونَ قاضياً ـ وسأجعَلُ ذلك المؤرّخَ عبدَ الرحمنِ بنَ خَلْدونٍ ، وأعتقدُ أنّه مؤرّخٌ مقبولُ الرأيِ في كثيرٍ من الأمور . وقدْ كُنْتُ لجأتُ إليه في عام ١٩٤٠ في مُعالجةِ هذه القضيّةِ نفسِها . فلا بُدَّ من أن أعودَ إليه في الوقت الحاضر إقراراً بفضلهِ عليّ منذ أربعين عاماً أو تَقِلُّ قليلاً .

يقولُ ٱبنُ خَلْدونٍ في هذه القضيّة :

« ولمّا حَدَثَ في يزيدَ ما حَدَثَ من الفِسق ٱختلفَ الصَّحابةُ حينَئذٍ في شأنِه : فمنهم مَنْ رأى الخروجَ عليه ونَقْضَ بَيْعَتِهِ من أجلِ ذلك ، كما فَعَل الحسينُ وعبدُاللهِ بنُ الزُّبيرِ - رَضِيَ اللَّهُ عنهُما - ومَنِ ٱتَّبَعَهُما في ذلك » .

ثمّ يتابعُ القولَ فيقولُ : « وأمّا الحُسينُ فإنّه لمّا ظَهَرَ فِسقُ يزيدَ عندَ الكافّة من أهلِ عصرِه ، بَعَثَتْ شِيعةُ أهلِ البيتِ بالكُوفة إلى الحُسينِ أن يأتِيَهُمْ فيقوموا بأمرِه . فرأى الحُسينُ أن الخُروجَ على يزيدَ مُتَعَيِّنٌ من أجلِ فِسقه ، ولا سيّما (عند) من له القُدْرةُ على ذلك ، وظنَّها من نفسِه وأهليَّتِهِ وشَوْكته (أي قُوته وسِلاحه) . فأمّا الأهلية فكانتْ كما ظنَّ وزيادةً . . . ومَنْ أعدلُ من الحُسين في زمانهِ في إمامتِه وعَدالته في قتالِ أهلِ الآراء (الفاسدة) ؟ » .

هذه جُمَلٌ من مُقدِّمةِ ٱبنِ خَلْدونٍ أوْردتّها بنصِّها ، ولا أظُنُّ أن أحداً من أهلِ المَشْرِق أو من أهلِ المَغْرب يُخالِفُه فيها .

فمأساةُ كربلاءَ - عند ٱبْنِ خَلْدونٍ وعند العارفينَ بالتاريخِ وبتعليلِ التاريخ - لم تَقَعْ لأنّ الحُسينَ ، رَضِيَ اللَّهُ عنه ، لم يكُنْ أهلاً للخِلافة . لا ، إنّ الحسينَ كان بتقواهُ ومكانتِهِ وعَدالته أهلاً للخِلافة وأحقَّ بها .

ولكنّ مأساةَ كربلاءَ وقَعَتْ في التاريخ لأنّ عصبيةَ بني أميّةَ كانتْ أقوى من عصبيةِ بني هاشمٍ . ويَعْني ٱبنُ خَلْدونٍ بالعصبيةِ القوّةَ السياسيةَ والحربيةَ . فٱبْنُ خَلَدونٍ ، في مَنْطِقِ التاريخ ، قد حَكَمَ للحسينِ على يزيدَ - وهذا إقرارٌ بحقٍّ لا فضلَ لِابنِ خَلْدونٍ في الإقرار به ، ولكن لم يكن ابن خلدون - كما لم يكن أحد غير ابن خلدون - قادراً على أن يُبدِّلَ ما حَدَثَ في كربلاءَ . ولقد قال ٱبْنُ خَلْدونٍ بوضوحٍ وبالحَرْفِ الواحد :

« فلا يجوزُ ليزيدَ قِتالُ الحسينِ ، بل هُو من فِعْلاته المؤكِّدةِ لِفسقه . والحسينُ فيها شهيدٌ مُثابٌ ، وهو على حقٍّ وٱجتهاد . . . .

ذلك هو التاريخُ السياسيّ : حادثٌ وقع لا يُستطاعُ ردُّه . ولم يكن في طَوْقِ المؤرِّخِ العاقلِ المُنصفِ أن يفعلَ أكثر ممّا فعله ابْنِ خلْدونٍ حينما حكَمَ للحُسين ، رَضِيَ اللّهُ عنه ، بالحقّ والعدالة والاستحقاق ثم حكم على يزيد - في شأنِ قتاله للحسين - بالفسق . ولكن كيف نقرأ نحنُ الآنَ تاريخنا الاجتماعيّ ، وما يَجبُ على المُسلمين جميعاً أن يَفعلوا في حاضرِهم ؟ ما العِبرةُ التي يَجبُ أن نقتبسَها من مأساةِ كربلاءَ وما الدرسُ الذي ألقاه علينا الحسينُ ، رَضِيَ اللّهُ عنه ، ووجَبَ علينا أنْ نتعلّمه ؟

إنّي أراني بحاجةٍ إلى الاستقراء مرّةً ثانيةً ، سأنحدرُ في التاريخ أربعة قرونٍ : سأذهبُ إلى إخوان الصفا ، فإنّ اسمَ الحُسينِ وردَ في رسائلهم مراراً . إنّ إخوان الصفا كانوا يذهبون مذهبَ الرمزِ في رسائلهم فيذكرون آدمَ وإبراهيمَ وعيسى وسُقراطَ وعَليّاً والحسينَ وغيرَهم من رجال الأمم ذِكراً فيه شيءٌ قليلٌ من التاريخ وشيءٌ كثيرٌ من الرمز . فالحسينُ مثلاً رمزٌ لكُلِّ مَنِ اسْتُشْهِدَ في سَبيلِ مبدأه . وبهذا النظرِ لا يبقى العَلَمُ التاريخيُّ عندهم مُتحيّزاً في مكانهِ الأوّلِ بل يُصْبحُ جُزْءاً من التاريخ الجاري . إنّ سُقراطَ ، مثلاً ، لا يبقى الفيلسوفَ اليونانيَّ القديمَ الذي شربَ السُّمّ مُطْمَئِناً كَيْلا يَرْجِعَ عن الرأيِ الصوابِ إلى رأيٍ خاطىء ، بل يكونُ كُلُّ إنسانٍ في كلّ مَكانٍ وزمانٍ هو سقراطَ إذا هُوَ آثَرَ إنهاءَ حياتِه برِضاه على أنْ يتركَ الأمرَ الصوابَ الذي جعَلَه وُكْداً له في الحياة .

وبهذا المعنى نفسِه لا تبقى كربلاءُ ، في نظرِ إخوان الصفا بلدةً في جنوبيِّ العراق شَهِدَتْ مأساةً ، بل يُصبح كُلُّ قُطْرٍ من أقطارِ البلاد الإسلامية كربلاءَ ينهَضُ فيها رجلٌ ليُعْلِنَ كَلِمَةَ الحقّ ثمّ يدفَعُ حياتَه ثمناً في نُصْرةِ كَلِمة الحقّ . وليس عليه بعدئذٍ أنْ يَصِلَ هو إلى ما أرادَ ، بل إنّه سيبقى هو رمزاً للدفاعِ عن الحقّ يَتتابَعُ بعدَه المُجاهدون والشهداءُ إلى أن يَقْضِيَ اللّهُ أمراً كان مفعولاً .

نحن المسلمينَ اليومَ في جميعِ بقاعِ الأرض بحاجةٍ إلى أن ينهَضَ فينا

« حسينٌ » يدُلُّنا على الطريق السّويّ في الدفاع عنِ الحقّ ، عن الحقِّ الذي لا يتجزّأ ، عنِ الحقّ الذي لا يتبدّى في صُورٍ مختلفاتٍ ، عن الحقِّ الذي لا يكونُ في يومٍ ذاتَ اليمينِ وفي يومٍ آخَرَ ذاتَ الشّمال . لسنا نحنُ الذين نجعَلُ الحقَّ هو الحقَّ ، بلْ نحن الذين يجب علينا أن نُقِرَّ بالحقّ حين نرى الحقَّ ملءَ أعْيُنِنا . والحقُّ لا يكونُ اثنينِ ، والحقّ لا يفرّقُ بينَ المتّفقين ولكنّه يوحِّدُ المُختلفين .

* * *

وأريدُ الآنَ أنْ أرجعَ إلى تاريخِ الحسينِ ، رَضِيَ اللَّهُ تعالى عنه ، ولكنْ لا أقْصِدُ التاريخَ السياسيَّ الذي هو القِصّة ، وإنّما أقْصِدُ التاريخَ ٱلِاجتماعيَّ الذي هو القوانينُ الفاعلةُ في الحياةِ من أسبابِ الأحداثِ ونتائِجها . أقْصِدُ التاريخَ العاقلَ الذي يَجْري على أيدي الجِلّة من الناس .

الحياةُ سِلسلةٌ مُتعانقةُ الحَلَقاتِ ، تَتَابعُ حَلَقاتُها على سَمْتٍ مُقدّرٍ وعلى مَنْطِق واضحٍ ، وليستْ حوادثَ مُفْردةً متفرّقةً تَنْبتُ هنا وهنالك على ما يهوى الأفراد أو تتّجهُ إلى الجانب الذي يُحبّه بعضُ الناسِ أو يكرهُه بعضُ الناس . إنّ الحياةَ إرْثٌ ثمينٌ يتلقّاه المتأخّرون في الحياةِ عن المتقدّمين فيها ؛ ثمّ ترسَخُ قوانينُها في النفوس فتصبحُ وكأنّها طبائعُ مغروزةٌ لا تتغيّر ولا تتبدّل .

* يُخبرُنا التاريخُ العاقلُ أنّ عَلِيّاً كرّم الله وجْهَه لم يكُنْ يُعْطي ولدَيْهِ الحسنَ والحسينَ من بيتِ المال إلّا ما كان حَقّاً لهما في الديوان ، فقد كان عليٌّ لا يأخُذُ ولا يُعطي إلّا بالحقّ ، حتّى أنّ أخاه عقيلاً ـ وهو شقيقُه ٱبنُ أبيه وأُمّه ـ طلَب من بيتِ المال شيئاً لم يكُنْ له بحقٍّ ، كما يقولُ ٱبْنُ الطِقْطِقي في كتابه « الفخري » (ص ٨٥ من طبعة دار بيروت) فمنَعَهُ عليّ عليه السلام وقال : يا أخي ، ليسَ لك في هذا المالِ غيرُ ما أعْطَيْتُك . ولكنِ ٱصْبِرْ حتّى يجيءَ مالي فأعطِيَكَ منه ما تُريدُ . فلم يَرْضَ عقيلُ هذا الجوابَ ففارقه وقَصَدَ مُعاوية . . . »
إنّ هذا شيءٌ من الحق والعَزْم والعقل ينتقلُ مَعَ الإرث ٱلِاجتماعيّ في الحياةِ من

الأبِ إلى آبنهِ ، ومن الأستاذ إلى تلميذه ، ومن الحاكمِ إلى المحكوم ، على مَنْحَى القوانينِ الاجتماعية . وقدِ آتّفقَ أنِ انتقلَ هذا الإرثُ الثمينُ إلى الحسينِ بنِ عليٍّ ، رَضِيَ اللَّهُ عنهما ، ولم ينتقلْ إلى عقيلٍ أخي عليٍّ وشقيقه .

* ومن المشهورِ في التاريخ أنّ عليّاً ، كرّمَ اللّهُ وجهَه ، لمّا طُعن وأيقَنَ أنه مَيّتٌ آلْتَفَتَ إلى أهله الذين حولَه وقال لهم هذه الكَلِمة العالية : « النفسُ بالنفس . إنّ هَلَكْتُ فآقتلوا قاتلي كما قَتَلني . وإن أنا بَقِيتُ رأيتُ رأيِيَ فيه . يا بني عبدِ المطّلب ، لا تَتَجمّعوا من كُلِّ صَوْبٍ تقولون قُتِلَ أميرُ المؤمنين . ألاَ لا يُقْتَلَنَّ بي إلاّ قاتلي » . فآنظروا إلى رجُلٍ لا يَصْرِفه الموتُ عن قولِ الحقّ وعن فِعْلِ العدل . ذلك من كَرَمِ الأخلاقِ الذي آتّفق أنِ آنتقل من عَليٍّ ، كرّمَ اللَّهُ وجهَه ، إلى آبنهِ الحسين .

* والنفوسُ الكريمةُ تَعْرِفُ الحقّ وتتأثّرُ به . وتَعْرِفُ الفضلَ لأهلِه .

ذَكَرَ آبنُ الأثير (بيروت ، ٢ : ٥٠٣) أنّ عُمَرَ بنَ الخطّابِ لمّا عَمِلَ الديوانَ ، أيْ سِجِلَّ العطايا من بيتِ المال ، فَرَضَ للناسِ مبالغَ على مَراتِبهم في نُصْرةِ الإسلام ، ففَرَضَ لأهلِ بدرٍ - أي للذين حَضَروا غَزوةَ بدرٍ ، معَ رسول الله ، من المجاهدين الأوّلين - خمسَةَ آلافِ دِرهمٍ في العام ، ثمّ ألحقَ بأهلِ بدرٍ أربعةً لم يكونوا من أهلِها ، هؤلاء الأربعةُ كانوا الحسنَ والحسينَ وأبا ذرٍ وسَلْمانَ الفارسيَّ . وكان الحسينُ في ذلك الحينِ في نحوِ الثانيةَ عَشْرَةَ من العُمر .

تلك المعاملةُ العادلةُ العاقلةُ من الحاكم للمحكوم تترُكُ أيضاً أثرَها في الناس الذين آنْطَوَتْ نفوسُهم على الخير . وقدِ آتّفق أنْ كان لها صَدىً جميلٌ في نفسِ الحسين .

* وفي سَنَةِ ثلاثين للهجرة قادَ سعيدُ بنُ العاص غزوةً إلى طَبْرستانَ وكان مَعَه في جيشه الحسنُ والحسينُ وعبدُالله بنُ عبّاسٍ وعبدُالله بن عُمَرَ بنِ الخطّاب

وعبدُالله بن عمرو بن العاص وسواهم من أصحاب رسول الله . وكان الحسينُ في ذلك الحين في الرابعةِ والعشرين من العُمُر . وكان ذلك في خِلافة عُثمانَ بنِ عَفّانَ وفي حياة عليٍّ ، كرّمَ اللّهُ وجهَه .

هذا الاتّجاهُ السليمُ في الحياة : الفصلُ بينَ الخِدمة العامّة والعاطفة الخاصّة إنما هو من سَجايا النفوس الكبيرة . إنّ الحسين لم يأبَ أنْ يذهَبَ إلى الجِهاد بقيادةِ قائدٍ أُمويّ وبإسمِ خليفةٍ أُمويٍّ ومعَ نفرٍ فرّقتْ بينَهُمُ السياسةُ ، ما دامَ هذا الجِهادُ في سبيلِ الإسلام ، في سبيلِ الله .

* وفي تاريخِ ابنِ الأثير (٣ : ١٦١) لمّا ثارتِ الفِتنة في أواخرِ أيامِ عُثمانَ بنِ عَفّانَ ، وجاءتِ الوفود من الأمصارِ المُختلفة وحاصَرَتْ عُثمانَ تريدُ قتلَه ثمّ قتلته ، كان مِمّن ٱسْتَقْتَلَ مَعَ عُثمانَ في الدِفاع عنِ الخِلافة وكرامتها نفرٌ من أهلِ المدينة منهم سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ والحسينُ بنُ عليٍّ وزيدُ بنُ ثابتٍ وأبو هُريرةَ .

وإذا كان بنو هاشمٍ يَجِدون في صُدورهم شيئاً من بني أُميّةَ ، فإنّ هذه المَوْجَدَةَ كانتْ بينَ الأفرادِ ولم تتعَدَّ ، في نفسِ الحُسينِ ، رَضِيَ اللّهُ عنه ، إلى خِذلانِ خليفةِ المسلمين . وتلك مأثَرَةٌ نادرةٌ في حياة الرجال .

* ولا سبيلَ إلى إنكار النُفْرةِ التي وقعتْ بينَ مُعاويةَ وعليٍّ ، وخصوصاً بعدَ أن حدثَ التحكيمُ بعدَ صِفّينَ وبعدَ خِدعةِ عمرِو بنِ العاص وبعد أن نادى مُعاوية بنفسِه خليفةً فٱنقسم العالمُ الإسلاميُّ بينَ خَلِيفتينِ : خليفةٍ كانتِ الوفودُ من أقطار البلادِ الإسلاميةِ قد بَايَعَتْهُ وخليفةٍ نادى بنفسِه في جماعةٍ من قومه .

لا أدافع عن مُعاويةَ فإنّ عَمَلَهُ قد قَسّمَ العالمَ الإسلاميَّ قِسمةً عاش أثرُها السّيءُ مدّةً طويلةً بعد ذلك.ولكنّي أيضاً لا أُريدُ أن أخوضَ في جِدالٍ لم يبقَ اليومَ من الخوض فيه فائدة . غير أني أريد أن أشيرَ إلى موقفِ الحسينِ ، رَضِيَ اللّهُ عنه ، في هذا العاصف السياسيّ . كان الحسين مع كُرهه للأمويّين لا يُجانبُ الحقَّ والعدلَ في صِلاته بهم . كان شُعورُه بالنُّفرة منهم شديداً ، في أيام

مُعاويةَ أيضاً . كانَ مروانُ بنُ الحَكَمِ والياً على المدينة من قِبَلِ مُعاويةَ مرّتين ، من سَنَةِ ٤١ إلى سَنَةِ ٤٩ للهجرة ثمّ من سَنَةِ ٥٦ إلى سَنَةِ ٥٧ . والإمامة في الصلاة كانتْ للوالي . وكان الحسنُ والحسينُ يُصَلّيانِ خَلْفَه ولا يُعِيدانِ الصلاةَ (ابن الأثير ابن الأثير ٤ : ١٩٣ - ١٩٤)

* ولمّا تُوُفِّيَ الحسنُ ، سَنَةَ ٥٠ للهجرة ، كان سعيدُ بنُ العاص والياً على المدينة . وكان الحسنُ قد وَصّى أن يُدْفَنَ عندَ جَدّهِ رسولِ الله ، إلاّ أنْ تُخافَ الفِتنةُ فيُدفَنَ في مقابر المسلمين . يقول ابن الأثير (٣ : ٤٦٠) :

فاستأذَنَ الحسينُ عائشةَ في ذلك فأذِنَتْ له ، ولم يَعْرِضْ إليه سعيدُ بنُ العاص وهُوَ والي المدينة . ولكنّ مروانَ بنَ الحكم جَمَعَ قوماً من بني أُميّة وآعترَضَ الناسَ ومَنَعَ دفْنَ الحسنِ إلى قربِ رسولِ الله . فعزَمَ الحُسينَ على أن يُقاوِمَ مروانَ ومَنْ مَعَه . فقيل للحسين : إنّ أخاك قد قال : إذا خِفْتُمْ فِتنةً فَلْيكُنِ الدفْنُ في مقابرِ المسلمين العامّة ، وهذه المقاومةُ لبني أُميّةَ يُمْكِنُ أن يكونَ منها فِتنةٌ . فقَنِعَ الحُسينُ ، رَضِيَ اللّهُ عنه ، ولم يُقاوِمِ الذين قاوموه ، مَعَ أنّ ما أرادَه كان حقّاً له . ولكنّ الحسينَ أدركَ بعَقْله الراجحِ أنّ التنازُلَ عن حقٍّ شخصيٍّ أفضلُ من التعرُّضِ لِفتنةٍ عامّةٍ .

ثمّ تقدّمَ سعيدُ بنُ العاص للصلاةِ على الحسن . فقال له الحسينُ : لولا أنّه سُنّةٌ - يَقْصِدُ : لولا أنّ الصلاةَ على المَيْتِ للإمامِ أو لوالي البلدِ من السُّنّة - لما تركْتُك تصلّي عليه .

إنّ هذا الأُفُقَ الواسعَ المُنْفرجَ أمامَ الحُسينِ ، رَضِيَ اللّهُ عنه ، لا يكونُ إلاّ للقليلين من الناس من الذين حَباهُمُ اللّهُ خُلُقاً كريماً يستطيعون به أنْ يُضحّوا المصلحةَ الشخصية الفَرْدية في سبيلِ المصلحة الجامعةِ العامّة . نحن نَفْتَقِدُ اليومَ مثلَ هذه الفضيلةِ في كثيرٍ من رجالنا . ولكن ما كلُّ رجلٍ حسيناً .

* * *

نحن في التاريخ لا نقولُ : لو ولولا . نحنُ في التاريخ نذكُرُ ما حَدَثَ ثمّ نسأل : لماذا حدثَ ذلك الذي حدث ؟

الثورةُ على الظّلم مألوفةٌ في التاريخ ، ولكنّ تلك الثورةَ على الظلم تختلفُ أسبابُها ونتائجُها بينَ حينٍ وحين . وأسبابُ ثورةِ الحسينِ على الظلم كانت موجودةً منذ أيام مُعاوية ، ولكنّ تلك الثورةَ المنتظرةَ لم تَنْشَبْ في أيامِ مُعاويةَ ، بلِ ٱتّفق أن نَشِبَتْ في أيام يزيدَ . وسببُ ذلك هو ٱلِٱختلاف في المقدِرة السياسية بين مُعاويةَ وٱبنِهِ يزيد .

أمّا لماذا لم تحدُثْ تلك الثورةُ في أيام مُعاويَة فَلِصِفاتٍ كثيرةٍ في مُعاويةَ بعضُها مبسوطٌ فيما يلي :

قال ٱبْنُ الطِقْطِقي في كتابه « الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية » (ص ١٠٤ - ١٠٥) :

« وأمّا مُعاويةُ ، رَضِيَ اللَّهُ عنه ، فكان عاقلاً في دُنياه لبيباً عالماً حليماً مالكاً قويّاً جيّدَ السياسة حسنَ التدبير لأمورِ الدنيا عاقلاً حكيماً فصيحاً بليغاً يحلُم في موضوعِ الحِلم ويشتدّ في موضع الشِدّة ، إلاّ أنَّ الحِلمَ كان أغلبَ عليه . وكان كريماً باذلاً للمال مُحِبّاً للرئاسة مشغوفاً بها . وكان يفضُل على أشرافِ رَعيّته كثيراً ، فلا يزالُ أشرافُ قريشٍ - مثلُ عبدِالله بنِ العبّاسِ وعبدِالله بنِ الزُّبير وعبدِالله بنِ جَعْفَرٍ الطيّارِ وعبدالله بنِ عُمَرَ وعبدِ الرحمنِ بنِ أبي بكرٍ وأبانِ بنِ عُثمانَ بنِ عَفّانَ وناسٍ من آلِ أبي طالبٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عنهم - يَفِدون عليه في دِمَشْقَ فيُكْرِمُ مَثْواهُمْ ويُحْسِنُ قِراهم ويَقْضي حوائجهم . . ثمّ لا يزالونَ يُحدّثونه أغلظَ الحديث ويَجْبَهونه أقبحَ الجَبْه ، وهو يُداعِبُهم تارةً ويتغافَلُ عنهم أُخرى ولا يُعيدُهم إلاّ بالجوائزِ السَنِيّة والصِلات الجَمّة . . . بَعَثَ إلى رجُلٍ من الأنصار بخَمْسمِائَةِ دينارٍ فٱستَقَلَّها الأنصاريُّ وقال لِٱبنِهِ : خُذْها وٱمْضِ إلى مُعاويةَ فٱضْرِبَ بها وجهَه ورُدَّها عليه . وأقسَمَ عليه أن يفعَلَ .

« وجاء ٱبنُ الأنصاريّ إلى مُعاويةَ ومَعَه الدراهمُ وقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ أبي فيه حِدّةٌ وسُرعةٌ . وقد أمَرَني بكَيْتَ وكيتَ وأقسَمَ عليَّ ، وما أَقْدِرُ على مُخالفته . فَوَضَعَ مُعاويةُ يده على وجهِه وقال : ٱفْعَلْ ما أمَرَكَ أبوك

وارْفِقْ بعَمّك . فاسْتحيا ابنُ الأنصاري ورمى بالدراهم . فضاعَفَها له مُعاوية .

« وبلَغَ الخَبَرَ إلى يزيدَ فدَخَلَ على أبيه غَضبانَ وقال : لقد أفْرَطْتَ في الحِلم حتّى خِفْتَ أنْ يُعَدَّ ذلك منك ضَعْفاً وجُبْناً . فقال مُعاويةُ : أيْ بُنَيَّ ، إنّه لا يكونُ معَ الحِلم ندامةٌ ولا مَذمّةٌ ، فامْضِ إلى شأنِك ودَعْني لرأيي » . وقيل إنّ مُعاويةَ زادَ على ذلك وقال : يا يزيدُ . هذا المالُ مالُهم ، أفلا نُعْطِيَهُمْ شيئاً منه ؟

من أجلِ ذلك لم يكُنْ بالإمكانِ أن تَنْشَبَ ثورةٌ على مُعاويةَ ولا أنْ تنجَحَ إذا هي نَشِبَتْ . أمّا يزيدُ فلم يكُنْ في ذلك مثلَ أبيه . وفي تعليلِ التاريخ أنّ من أسبابِ سقوطِ الدُّوَلِ تعاقُبَ حُكّامٍ ضِعافٍ وأقوياءَ : يكون الحاكمُ قويّاً فيَضْبِطَ الناسَ ضبطاً شديداً ، ثمّ يخلُفُه حاكمٌ ضعيفٌ فيُفْلِتُ زِمامُ الناس من يده . فإذا خَلَفَ هذا الضعيفَ حاكمٌ آخَرُ قَوِيٌّ صَعُبَ عليه أنْ يُعيدَ الناسَ إلى النظام والطاعة . وقيل في يزيدَ إنّه كان مُهَنْدِساً بارعاً . ولكنّ العِلْمَ شيءٌ وسياسةُ الدُّوَلِ والشعوبِ شيءٌ آخَرُ . وممّا يدلّ على قُصورُ يزيدَ في الحِكمة السياسية أنّ مُعاويةَ كان قد نَصَحه في عددٍ من الأمور التي تتعلّق بالأشخاص الذين يُمْكِنُ أنْ يُنازعوه الخلافةَ أو يُثيرون العواصفَ عليه وسَمّاهم له واحداً واحداً . وممّا قاله له في شأن الحُسينِ ، رَضِيَ اللّهُ عنه (الفخري : ١١٢) : « . . . فإنْ خرجَ وظَفِرْتَ به فاصْفَحَ عنه فإنّ له رَحِماً ماسّةً وحقّاً عظيماً وقرابةً من مُحمّدٍ صَلَواتُ الله عليه وسَلامه » .

وكان من سوءِ حظِّ يزيدَ ، ومن سوء حظّ المسلمين ، أنّ يزيدَ لم يسمَعْ في ذلك نُصْحَ أبيه فلم يَتَدارَكِ الكارثةَ قبلَ وُقوعها ، وكان ذلك ـ لو أراد ـ أمراً يسيراً ، فإنّ الحسينَ سَلَكَ قُبيلَ الكارثةِ مسلَكاً عالياً من العَدْلِ الرفيع والخُلُق الكريم .

أمّا أنا إذا جِئْتُ إلى هذه الكارثةِ أوِ المأساةِ في تاريخِ الإسلام فإنّي لنْ أُعَرِّجَ عليها ـ من حيث القَصَصُ ـ بشيء وأقولُ مَعَ ابْنِ الطِقْطَقي (الفخري ١١٣) :

« هذه قضيّةٌ لا أُحِبُّ بسطَ القولِ فيها آسْتِعْظاماً لها وآستفظاعاً ، فإنّها قضيّةٌ لم يَجْرِ في الإسلام أعظمُ فُحْشاً منها » .

ولكن لا مفرَّ من أن نأتِيَ إليها من جانبِ التعليلِ ، فإنّ تعليلَ أحداثِها والمغزى منها هما المقصودُ من هذا الحديث كُلّهِ .

لمّا نَظَر الحسينُ ، رَضِيَ الله عنه ، إلى الدولة ورأى ما فيها من الظُّلم أدرَكَ أنّه لا بُدَّ من عملٍ شيءٍ . إنّ هذا الذي كان يحدُثُ في الحُكم كان مُنْكَراً يجب تَغْيِيرُه . والخلافةُ مَنْصِبٌ له شروط . أمّا تعريف الخِلافة ، كما نَجِدَ في مقدّمة آبنِ خَلْدونٍ ، فهي نِيابةٌ عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا (المقدّمة ، المطبعة الأدبية ، ط ٣ ، ص ١٩٠) . وشرَحَ آبنُ خَلْدُونٍ قولَه هذا فقالَ : إنّ هذه النيابةَ عن صاحبِ الشريعة تسمّى « خِلافةً وإمامة ، والقائمَ بها خليفةً وإماماً . فأمّا تسميتُه إماماً فتشبيهاً بإمامِ الصلاة في آتّباعه وآلِاقتداء به ، ولهذا يُقال الإمامة الكبرى . وأمّا تسميتُه خليفةً فلكونِه يَخْلُف النبيَّ في أُمّته فيُقال خليفةٌ بإطلاق وخليفةُ رسولِ الله . وكذلك نَصْبُ الإمامِ ، كما يرى آبْنُ خَلْدونٍ أيضاً ، واجبٌ قد عُرِفَ وُجوبُه في الشرع بإجماعِ الصحابة والتابعين . وهذا الإجماع على نَصْبِ الإمام بالإجماع هو قضاءٌ بحُكْم العقل . ولقد وَجَبَ نَصْبُ الإمامِ بحُكْم العقل لِضَرورةِ آلِاجتماع للبشر ولِآستحالةِ حياتِهم ووُجودهم مُنفردين . ثمّ يذكُرُ آبْنُ خَلْدونٍ أن جماعةً من الناس قد شذّوا عن ذلك فقالوا إنّ نصبَ الإمامِ غيرُ واجبٍ لا بالشرع ولا بالعقل . وقد سَفّه آبنُ خَلْدونٍ هذا الرأيَ وفَنّد أدلّةَ هؤلاء على السبب الذي دعاهم إلى ما ذهبوا إليه . وكذلك أوردَ آبْنُ خَلْدونٍ تعريفَ الشِيعة للإمامة وأنّها ليستْ من المصالح العامّة التي تُفَوَّضُ إلى نظرِ الأُمّة وَيَتَعَيَّنُ القائمُ بها بتَعْيينهم ، بلْ هي رُكْنُ الدين وقاعدةُ الإسلام ولا يجوز لِنبيّ إغفالُ (مَنصِبِ) الإمامة ولا تفويضُه إلى الأُمّة ، بل يجب تعيينُ الإمام لهم . . . » غيرَ أنّ آبْنَ خَلْدونٍ يعتمدُ العاملَ آلِاجتماعيَّ في تعليلِ أحداثِ التاريخ حتّى يرى أنّ

وجوبَ الخِلافةِ أوِ الإمامة الكُبرى بالعقل أو بالشرع إنّما هو لِضرورةِ ٱلْإجتماع البشري في هذه الدنيا .

ولا شكَّ في أنّ الحسينَ ، رَضِيَ اللّهُ عنه ، كان يُفكّر في رَفْعِ الظُّلْم الذي رآه في زمانه : أيُقْدِمُ على رَفْعِ الظُّلمِ بالكَلِمة اللّيّنة أو بالنصيحة القاسية أو بالجِدال أو بالحرب . إنّ السكوتَ على الظلم لا يجوزُ بحال .

وفيما كان هو في التفكير وفي المفاضلة بين تلك الوسائلِ التي كانتْ تجولُ في خاطرِه جاء إليه جماعاتٌ من الناس وكَتَبَ إليه جماعاتٌ آخَرون وكُلُّهُم يطلُبُ منه اللُّجوءَ إلى الحرب لتَغْيير المُنْكر ويَعْرِضُ عليه أن يَنْصُره في ذلك . عندئذٍ تَعَيَّنَ عليه أن يُجيبَ أولئك الجماعاتِ وأن يختارَ اللُّجوءَ إلى القوّة لأنّ اللجوءَ إلى القوّة كانَ الوسيلةَ التي عُرِضَتْ عليه ، وكان هو يُفكّر بِمِثْلِها وبها أيضاً . من أجل ذلك عَزَمَ الحسينُ ، رَضِيَ الله عنه ، في نفسِه على أن يخرُجَ مُجاهداً كما آختارَ أن يذهَبَ إلى المكانِ الذي دعاه الناسُ إليه للبدءِ بذلك الجِهاد .

ولمّا عَزَمَ الحسينُ على الجِهاد لم تَبْقَ تلك العزيمةُ من أثَرِ طلَبِ الناس لها ، بلْ أصبحتْ تلك العزيمةُ آقتناعاً ذاتيّاً منه . ثمّ بَطَلَ أنْ يكونَ لسائرِ الناس - حتّى لأولئك الذين طلَبوا منه الخُروجَ للقتال - صِلةٌ بها .

* * *

وجرى الاجتماع الإنساني مَجرَاه الطبيعيَّ المألوف :

ليس البشرُ سواءً في العزيمةِ والجُهد والفِكر والعمل . إنّ أولئك الذين هالَهم الفَسادُ فثارتْ نفوسُهم فحملوا تلك الثورةَ في نُفوسِهم إلى الحسينِ ، رَضِيَ اللّهُ عنه ، وشَكَوْا إليه ما يتألّمون منه ، قد بَرَدَتْ نفوسُهم بعدَ أن بَثّوا شَكْواهم إلى من كانوا يعتقدون أنّه القادرُ على ما يطلُبون منه . وسَرْعانَ ما نَسِيَتْ تلك الجموعُ البشريّةُ أنّها كانتْ تُطَالِبُ برفع ظُلمٍ وَقَعَ عليها . وقد قيل

إنّ الناسَ سُمُّوا إناساً من النِّسيان . ولقد كان هذا النِّسيانُ عامّاً في جميع طَبَقات الشاكين .

وخرج الحسينُ ، رَضِيَ الله عنه من المدينة متوجّهاً نحو العراق . وفي أثناء الطريق لَقِيَ الشاعرَ الفَرَزْدَقَ فسأله عن القومِ ، فقال له : قلوبُهم مَعَك وسيوفُهم مَعَ بني أُميّة ! ولكنّ الحسينَ كان قد عَزَمَ في نفسِه على رفْعِ الظلم بالقوّة ، فلم يأبَهْ بما نَقَلَه إليه الفرزدقُ - مَعَ أنّ الفرزدقَ قد عُرِفَ في تاريخِ الأدب بأنّه شاعرُ آلِ البيت - ومضى الحسين في طريقه لأنّه كان قد عَزَمَ على أمرٍ . إنّ تبدُّلَ رأيِ الناسِ قد بدّلَ مسلَكَ الناس ولكنْ لم يبدّلْ مسلكَ الحسين .

ووصل الحسينُ إلى العراق ورأى أن قلوبَ الناس قد تَغيَّرتْ - والقِصّة في ذلك معروفةٌ مشهورة - فلم يبدّلْ رأيَه فيما كان قد عَقَدَ عليه قَلْبَه . وكان التاريخُ يجري بقوانينِه التي تُشْبِهُ أن تكونَ قوانينَ طبيعيةً . ليس البشرُ سواءً في كلِّ شيءٍ ، ولا هم سواءٌ في شيءٍ ما أيضاً . والذين تدفَعُهُمُ المُثُلُ العُليا أفرادٌ ؛ أمّا الجماعاتُ الكثيرةُ فإنّ مصالِحَهُم تسيرُ بهم ذاتَ اليمين وذات اليَسار . وفي العراق قيل له : إنْ قاتَلْتَ قُتِلْتَ . فلم يستغربْ ذلك لأنّ جميعَ الدلائل كانتْ تُشيرُ إلى نتيجة ما أقدَمَ عليه . وقال لمحدّثه : « أبالموتِ تُخوّفني ؟ » ، ذلك لأنّ الحُسينَ كان قد عَقَدَ عزمَه على أمرٍ ولم يكُنْ يريدُ أن يُبْطِلَ هذا العزمَ مهما تكُنِ الأحوالُ والأهوال ومهما تكُنِ المُثَبِّطاتُ والمُعوّقات .

ولا أريدُ أنْ أمْضِيَ بكم في قَصّ أخبارِ كربلاءَ يوماً يوماً ، فإنّ قِصّةَ ذلك شائعةٌ . ولكنْ أُريدُ أنْ أورِدَ روايةً لابنِ الأثير (٤ : ٤٣) . لمّا رأى الحسينُ أنّ الكَثْرة من الناس قد خَذَلَته ، ٱلْتَفتَ إلى القِلّة الباقيةِ حولَه وقال لهم : « من شاءَ منكم أنْ ينصرفَ فَلْيَنْصَرِفْ » ، إدراكاً منه أن يكونَ نفرٌ من هؤلاء قد حَبَسَهُمُ الحياءُ حولَه . فأخَذَ الناس يَنْصَرِفُون حتّى لم يَبْقَ حولَه مِمّن كان قد وَعَدَه النُّصْرةَ لا كثيرٌ ولا قليلٌ . ومعَ ذلك فإنّ عزمه بَقِيَ بعدَ أن تفرّقَ جميعُ الناسِ عنه كما كان يومَ كان يَظُنُّ أنَ أربعينَ ألفَ سيفٍ ستُقاتِلُ معَه .

ثمّ كانتْ كربلاءُ وكانتِ المأساةُ في كربلاءَ .

* * *

إنَّ المسلمين يَمُرّونَ اليومَ في مثلِ أيامِ كربلاءَ ، مِنَ الفيليبّين في أقصى المشرق إلى ساحل البحر الأخضر من أقصى المغرب . والإسلامُ نفسُه يمرّ في مِحْنة ، يوماً من الشرق ويوماً من الغرب ، وحِيناً على يدٍ غريبةٍ ، وحيناً على يد قريبةٍ ، ومن الناسِ من لا يذكُرُ الإسلام إلاّ إذا حَزَبَه الأمرُ أو إذا أرادَ أن يُلْقِيَ سِتاراً على جانبٍ من الحاضر .

مرّ معَنا أنّ التاريخ يُعيدُ نفسَه ، ولكن ليس بمعنى أن الحادثَ التاريخيَّ يعودُ إلى المجتمع مرّةً بعدَ مرّة ، ولكن بمعنى أن الأسبابَ المُعَيَّنة ٱلتي كانت في الماضي قد أدّتْ إلى وقوعِ حادثٍ من الأحداث ، إذا اجتمع مِثْلُها مرّةً ثانيةً فيمكن أن يُؤدّيَ ٱجتماعُها الثاني إلى وقوعِ مثلِ الحادثِ الأوّل . إذا خاض قومٌ معركَةً وهم مختلفو الهوى قليلو العُدّة قصيرو النظر لا يَعْرِفون ما يُريدون ، فإنّ أمرَهم يصيرُ إلى الفَشَلَ ، أيْ إلى الضَّعْف ، فينهزمون في تلك المعركَةِ قبلَ أن يَهْزِمَهم عدوُهم . ذلك قانونٌ من قوانينِ التاريخ . فإذا خاض هؤلاء القومُ معركَةً ثانيةً وهم على مِثلِ الحال التي كانتْ فيهم يومَ خاضوا المعركةَ الأولى ، فلا ريبَ في أن نتيجةَ المعركَةِ الثانيةِ ستكونُ كنتيجةِ المعركةِ الأُولى سواءً بسواء .

وليس يُفيدُ المسلمين اليومَ أن يعتذروا من هزائمهم المتواليةِ بالإمبريالية العالمية وبالأحوال الدولية وبكذا وكذا مِمّا لا أُحِبُّ أنْ أُسَمِّيَه . أنا لا أُريد أن أُنكِرَ الأسباب الخارجية ٱلتي تُساعدُ على ضَعْفِ المسلمين في حاضِرهم ، ولكنّي أُريدُ أن نَسْألَ أنفُسَنا : ما الذي نفعَلُه نحنُ في سبيلِ دفعِ الشرّ عنّا .

لا العلمُ الصحيحُ نُريدُ أن نَتَعَلَّمَه ، ولا ٱلاُقتصادُ الصحيح نريد أن نأخُذَ به ، ولا الحَضارةُ الحقيقيةُ نريدُ أن نَتّسِمَ بها ، ولا الرجلُ الناصحُ نريدُ أن نَسْمَعَ منه ما يقول . لقد بدا لكم مُنذُ مطلعِ حديثي أنّني لا أنظُرُ إلى مأساةِ كربلاءَ

على أنّها حادثٌ تاريخيٌّ فقط ، بل على أنها أيْضاً حقيقةٌ ٱجتماعيةٌ تتبدّى كلَّ يومٍ في حياةِ المسلمين . ألم تكُنْ مأساةُ كربلاءَ خِذْلانَ الناسِ للقائد المُخْلصِ الذي أرادَ أن يَمْسَحَ الظُّلم عنِ المجتمع بكَفّه الكريمةِ ؟ ألاَ نحتاجُ اليومَ في كثيرٍ من بلاد الإسلام إلى من يفعَلُ مِثلَ ذلك ؟

إنّ كربلاَء ، إذَنْ ، ليست ذِكرى هزيمةٍ في معركةٍ ، ولا هي فقط رمزٌ لفسادٍ سياسيٍّ ومحاولةٌ لإِصلاحٍ لم يَتِمَّ إلاّ بعدَ أمَدٍ ثمّ عادَ الفساد سِيرته الأولى . إنّ لنا ، نحنُ المسلمين ، اليومَ كربلاءَ ، في كلِّ مَيْدانٍ من ميادين حياتنا . في العِلم ، في السياسة ، في ٱلاِقتصاد ، في الفنّ ، في الدين ، في الأدب والشعر ، في الصناعة ، في التجارة ، وفي كلِّ ما يخطُرُ لنا ببالٍ وما لا يخطُرُ لنا ببالٍ . لا يُجْدِينا أن نُنْكِرَ أنّنا متخلّفون في نواحٍ كثيرةٍ من جوانبِ حياتنا ، بل يُجْدينا أن نُقرَّ بحاضِرنا الشقيّ بالإِضافة إلى بلادِ العالم الراقية رُقِيّاً حقيقيّاً والقويّةِ قوّةً حقيقية .

كنّا من قبلُ نحتَجُّ بأنّنا فقراءُ ، ثمّ ظَهَر لنا وللعالمِ كُلّهِ أنّنا أغنى أهلِ الأرض ، غير أنّنا لا نستخدِمُ غِنانا في وجوهه . يقولُ ٱبْنُ المقفّع في كتابِ « كليلةَ ودِمنةَ » : إن الثروةَ لا تُقاسُ بالمالِ المجموعِ ، بل بحُسْنِ القِيام عليه وبإنفاقه في وُجوهِه الصحيحة . وسُئِلْتُ مرّةً أنْ أُورِدَ مثلاً واقعيّاً على أننا لا نُحْسِنُ القيامَ على الثروة ٱلتي بينَ أيدينا ، فخَطَر في بالي مثلٌ واضحٌ قد رَدَّدتُه إلى اليوم بِضْعَ مرّاتٍ في أماكنَ مُختلفة ، آخِرُها فيما أذكُرُ منذ ثمانيةِ أشهُرٍ حينما كنت في مَكّةَ المكرّمة . قُلتُ : يبدو أننا نحن العربَ على أرضٍ طافية على بحرٍ من البترول . ونحن لا نَخْشى أن تبطُلَ الحاجةُ إلى البترول فتبطُلَ الحاجةُ إلى بلادِنا ، مهما تتبدّلِ الأحوالُ العِلمية وٱلاِقتصادية والسياسية في العالم .

كنتُ في الكويت في عام ١٩٥٤ وكان من حُسْنِ حظّي أن قَضَيْتُ يوماً كاملاً في الأحمديّ أسيرُ بين مُنشآتِ البترول في رُفْقة رجُلٍ من رجال الشركة العارفين يُدعى برادلي . وقضاءُ يومٍ كاملٍ في رُفقته جَعَلني أسألُه أسئلةً كثيرة .

سألته : كم يَبْقى هذا البترولُ تحتَ هذه الأرض هُنا ؟ فقال لي : إنّ بقاءه مقدّر بنحو سِتّين سَنَةً . فقلت له : ألا تظُنّ أنّ الحاجةَ إلى البترول تبطُلُ أو تقِلّ قبل سِتّينَ سَنَةً إذا وَجدَ العالمُ مصادرَ جديدةً للطاقة ؟ فقال لي : لا ، إنّ للبترول أوجُهاً كثيرةً لِلاَستخدام في غيرِ الإضاءة والقوّة المُحرّكة . ولْنَفْرِضْ أنّ العالمَ وقَعَ قريباً على مَصادِرَ للطاقة جديدةٍ ، فإنّ هذه المصادرَ سَتُسْتَخْدَمُ في المشاريع الكبرى ، أمّا الحياةُ اليومية للناسِ العاديّين فستَظَلُّ محتاجةً إلى البترول . ولا أذكُرُ أن المستر برادلي قال لي شيئاً وراء ذلك .

وعَرَفَ العالم فيما بعدُ أن في قُدرةِ الإنسانِ أنْ يستمدّ الطاقةَ من نور الشمس . إنّه إذا آستطاع أن يفعَلَ ذلك فستكونُ بلادُنا أيضاً ـ بما فيها من الصحارى الواسعةِ والقريبةِ من خطّ الاستواء ـ أقدرَ على تزويدِ العالم بالطاقة من عددٍ كبيرٍ من البلاد ، إذا أنا لم أقُلْ من جميعِ البلاد . ولا أُريدُ هنا أنْ أستَطْرِدَ إلى تفسيرِ شيءٍ من ذلك . فلا معرفتي بذلك واسعةٌ ولا الوقتُ متّسعٌ له .

لِنَرْجِعْ[1] إلى البترولِ ، إلى تلك الثروة آلتي وَضَعَها اللّهُ في أيْدينا وأُورِدْ فيما يتعلّقُ بها عدداً من الحقائق لا مجالَ فيها ـ على ما أعتقد ـ للجِدال ولا للخِلاف . نحنُ نبيعُ الطُنَّ المِتريّ من بترولنا الخام بأربعةِ عَشَرَ دُولاراً أو قريباً من ذلك . وفي البترول آثنان في المائة من غازِ البوتان تَجمَعُ عشرينَ كليوغراماً في كلّ طنٍّ متري وتُباع في بيروتَ بخمسةَ عَشَرَ دُولاراً . وفي البترول الخام أيضاً أربعةَ عَشَرَ بالمائة من البنزين تجمَعُ في كلّ طِنٍّ متريٍّ مائتَيْنِ وثمانينَ كيلوغراماً أو نحوَ ثلاثِمائةٍ وخمسينَ لِتراً تُباع في بيروت بنحو مِائتَيْ دولارٍ . هذه سِتّةَ عَشَرَ بالمِائةِ من الطنّ المِتري من البترول تُباع عندنا بنحو مِائتَيْنِ وخمسةَ عَشَرَ دُولاراً . ويبقى أربعةٌ وثمانونَ بالمِائة من بترولنا الخامِ لم تدخُلْ في هذا الحساب . ومعَ ذلك فنحن نبيعُ الطُنَّ المتريَّ كُلَّه بأربعةَ عَشَرَ دولاراً .

(١) ألقيت هذه المحاضرة في الكويت مررت بهذا المقطع مرّا خفيفا .- في ذلك الحين كان ثمن الطنّ من البترول لا يزال أربعة عشر دولاراً . وسيظلّ الغبن في ثمن بترولنا عظيماً مهما يبلغ ذلك الثمن من الارتفاع حتّى نصبح نحن قادرين على أن نصنّع بترولنا ثمّ نبيعه « مصنوعات » ولا نبيع منه شيئاً « بترولاً خاماً » .

ويُصْنَعُ من البترول بعدَ ذلك - من الأربعةِ والثمانينَ الباقيةِ من المِائَةِ بالمِائَة - أشياءُ لا تُعدّ ولا تُحصى تباع في كلّ سوقٍ من أسواقِ العالم بأثمان بالغةٍ . يُصْنَعُ من البترول الألبسةُ والأحذية ، الأدوات المنزلية للمطابخ والأثاث ، الصناديق وأغْلِفَةُ الأدواتِ المختلفة للتلفون والراديو والتلفزيون وآلات التصوير والآلات الحاسبة ، والخيوط والروائح العِطرية ولُعَبُ الأطفال وأدواتُ اللَّعِبِ للكبار ، واللحمُ - نعمْ ، أقولُ اللحمُ ! - وصَمّاماتُ القلوبِ للمرضى وما لا يُحصيه مُحْصٍ ولا يستطيعُ أن يَعُدَّه عادٌّ . ويذهَبُ أحدُنا إلى السوق هنا أو هنالك لِيَشْتَرِيَ لُعْبَةً لِطفله فتُعْجبه لُعبةٌ لا تَزِنُ خمسينَ غِراماً فيدفَعُ ثَمَنها خَمْسَةَ دولاراتٍ أو عَشْرةً ، بعدَ أن نكون قد بِعْنا من البترول بأربعة عَشَرَ دولاراً ما يكفي لِصُنع رُبْعِ مِليونِ لُعْبَةٍ تُباع في أسواقنا بِنَحْوِ مِليونٍ ونصفِ مِليونٍ من الدولارات .

لَعلّي أرى بينَكم من يَسْتَغْرِبُ كلامي ويَنْسِبني إلى المبالغة . لا أقولُ لكم الطِنُّ من الأدوات المنزلية - تلك الأدواتِ المصنوعةِ من بترول نَبيعه نحن - يُباع عندنا بخَمْسينَ ألفَ دولارٍ ، ولا بعشرينَ ألفَ دولارٍ . بل سأقول : إنّه يُباع بخَمْسةِ آلافِ دولارٍ فقط . فإين الأربَعَةَ عَشَرَ دولاراً من الخَمْسة الآلاف ؟ هذا وأنا لم أذكُرْ ثمن صَمّامِ القلب الذي لا يَزِنُ إلاّ غراماً واحداً أو غِرامين .

ولكن دعوني ألْتَفِتْ إلى أولئك الذين يُدخّنون ويتّفق أن يَحْمِلَ أحدُهم قدّاحةً ذهبيةَ اللونِ . إذا فَرِغَتْ هذه القدّاحةُ مَلأها بِبِضْع قَطَراتٍ من البنزين أو بِضْعِ جُزَيْئاتٍ من غاز البنزين بمَبْلغٍ هو دولارٌ أو أكثرُ من دولار . فكم قَدّاحةٍ نُعبّىءُ بطُنٍّ مِتريّ من البترول ، أو بِنتاج طُنٍّ متري من البترول مِنْ هاتَيْنِ المادّتين ؟

وتحدّثتُ مرّةً بمثلِ هذا الحديثِ فقال لي أحدُ الذين كانوا يَسْتَمعون إلي : ولكنّ القومَ لا يُعيدون إلينا بِترولنا كما كانوا قد أخذوه منّا ، بل يَضَعون فيه شيئاً من عُقولهم . فقلت له : أحْسَنْتَ القولَ ، يا صاحبي ، فما الذي يَمْنَعُنا نحنُ من أنْ نَضَعَ فيه شيئاً من عقولنا ؟

وقلت مرّة : إنّنا نحنُ أهلَ البترول نُرْسِلُ في كلّ عامٍ أُلوفاً من أبنائنا إلى أوروبّةَ وأميركة ليتخصّصوا في جامعاتِ الغرب في كلّ فنٍّ من فنونِ المعرفة إلاّ معرفة البترول . فردّ عليّ رجُلٌ وقال : بل هنالكَ طلاّبٌ كثيرون قد تخصّصوا في البترول . فأجَبْتُه بقولي : أكبرُ الظنّ أنّ هؤلاءِ الذين يُقال فيهم عِندنا أنّهم تَخصّصوا في البترول قد تخصّصوا في تاريخِ البترول من الكتب ، أو تخصّصوا في بعض خصائصِ البترول من الكتب ، أو تخصّصوا في عددٍ من وُجوهِ منافعه من الكتب . نحن في حاجة إلى الذين يتخصّصون في آستخراج البترول من باطن الأرض وإلى الذين يَفْصِلون بعضَ أجزائه من بعضٍ في المعامل الكبيرة ثمّ إلى الذين يتخصّصون في صُنع المصنوعات المختلفة من أجزاء البترول . وحينئذٍ نستطيعُ أن نبيعَ بترولنا بالقَطْرة والقَطْرتين لا بالطُنّ المِتري . وحينَئذٍ فقط نستطيعُ أن نقولَ : إنّ عندَنا بترولاً وإنّنا نَعرِفُ قيمة ذلك البترول الذي نَمْلِكُه .

ولَعلّي أكثرتُ من ذِكر الطنّ المِتريّ . فما الطُنُّ المِتريُّ هذا ؟

الطُنّ المِتريّ مقدارٌ من البترول وَزْنَه ألفُ كيلوغرام . ومعنى هذا أنّ الغربَ لا يشتري منّا بترولنا بالمِتر المكعّب الذي هو من البترول ألفُ لترٍ كَيْلاً ، بل بالطُنِّ الذي هو ألفٌ ومِائتَانِ وخمسونُ لتراً كَيْلاً ، فيكونُ الغُبْنُ علينا كُلّما قَبَضْنا ثمنَ طُنٍّ مِتريّ مِائتَيْنِ وخَمسينَ لِتراً أو عِشرينَ بالمِائَة من حَقّنا في الثمن . هذا مَعَ أنّ الله تعالى قد نَبّهنا إلى ذلك في كتابه العزيز فقال : ﴿ **ويلٌ للمُطفّفين الذينَ إذا آكتالوا على الناسِ يستوفون . وإذا كالوهم أو وَزَنوهم يُخسرون** ﴾ .

من الأفضل ألاّ أستمرّ في الأمثلة . إنّ بعضَكم يظُنُّ أنّنا قدِ آبتعَدْنا عن حديثِ الحسينِ ، رَضِيَ اللّهُ عنه . الفرقُ بينِيَ وبينَه أنّه يرى ذِكرى الحسينِ في قراءةِ قِصّته وفي الحُزْن على ما أصابه وبالألَم لتلك المأساةِ التي تُدْمي كُلَّ قلبٍ ، بينَما هنالك كثيرون يَرَوْنَ أنّ ذِكرى الحسينِ هي كُلُّ ذلك ولكنْ لا يجوزُ لنا أن نَقِفَ عند هذا الجانبِ السلبيّ من حياة الحسين وآستشهاده . إنّني من

الذين يقولون : يَجِبُ علينا أن ننقُلَ إلى حياتنا قَبَساً من حياة الحسين حتّى تكونَ حياتُه ذِكرى دائمةً فينا ، ذِكرى لا تقتصرُ على عَشْرَةِ أيامٍ من مطلعِ كُلِّ عام هِجري ، بل تستمرُّ في كلِّ عامٍ ثلاثَمِائَةٍ وخَمْسَةً وخَمْسينَ يوماً هي أيامُ العامِ الهِجريّ .

للعاطفة ، أيُّها المَحفِلُ الكريمُ ، جانبٌ من حياةِ الفردِ والجماعة لا يُنْكَرُ . فإنّ فرداً أو مجموعاً لا عاطفةَ له ليس كائناً تامَّ الإنسانية . ولكنّ للعقلِ أيضاً جانباً لا يُنْكَرُ . والعاطفةُ حالٌ عارضةٌ في الإنسان ، ولكنّ العقلَ هو القاعدةُ في السُّلوك الإنساني .

وللإنسانِ جانبانِ من العاطفةِ : جانبُ الحُزْنِ وجانبُ الفَرَح ، ولا شكَّ في أن جانبَ الحُزْن أقدرُ على جمع بعضَ البشَرِ إلى بعضٍ . ويَكْفينا مثلاً على ذلك ما نحنُ فيه من ذِكرى الحُسينِ : تلك الذكرى التي يجتمعُ لها الناسُ في العالم الإسلامي مُنذُ أربعةَ عَشَرَ قرناً . ولكنّ الإنسانَ يُحاوِلُ في كُلِّ أمرِهِ أن يكونَ لِكُلِّ شيءٍ في حياتِهِ جانبٌ عمليٌّ نافعٌ .

وفي نهايةِ حديثي أريدُ أنْ أقولَ :

إذا نحنُ نظرنا إلى مأساةِ كربلاءَ على أنها حادثٌ من أحداثِ التاريخ كحربِ البسوسِ أو كيومِ ذي قارٍ أو كمعركةِ القادسيةِ أو كحصارِ القُسْطنطينيّةِ فإنّنا لا نَعْدُو بمأساةِ كربلاءَ أنْ تكونَ حادثةً من ألوفِ الحوادثِ التي مرّتْ في التاريخ ، ويكونَ الحسينُ ، رَضِيَ اللَّهُ عنه ، حينَئذٍ ـ بهذا النَظَرِ القاصرِ ـ قائدَ حملةٍ لم يُكْتَبْ لها النجاحُ . أمّا إذا نظرنا إلى مأساةِ كربلاءَ على أنّها « كَلِمةُ حقٍّ في وَجْهِ حاكمٍ جائرٍ » ، ثمّ عَزَمْنا على أن نجعَلَ من تلك الكَلِمة من الحقّ مَعْلَماً في تاريخنا وقُدوَةً في حياتِنا ، نقف في كلّ قضيةٍ لنا كما وَقَفَ الحسينُ قبلَ كربلاءَ ويومَ كربلاءَ ، فإننا نكونُ قد وَضَعنا يومَ كربلاءَ في إطارِهِ الصحيح من تاريخ الإسلام ونكونُ قدْ جعلنا من عَمَل الحسينِ أُسوةً لنا ننتفعُ بها في سُلُوكِنا اليوميّ وفي مُعالجة قضايانا .

إذا لم يكنْ بإمكان كُلِّ واحدٍ منّا أن يَتّصفَ بجميعِ فضائلِ أبطالِنا في تاريخِ الإسلام ، فلا أقلَّ من أنْ نُحاوِلَ التأسّيَ بهم في بعضِ فضائلهم . وتاريخُنا الحاضرُ يحتاجُ - معَ الأسف - في كلِّ يومٍ إلى قُدوةٍ بالحسينِ بنِ عليٍّ ، رَضِيَ اللَّهُ عنهما .

والسلام عليكم ورحمة الله .

٩/ ١٢/ ٧٧ .

تابع من ص ١٤٦

عدد من وجوه الزواج والطلاق

الزَّواج عَقْد بين رجلٍ وامرأةٍ بالغَيْنِ عاقلين خاليَيْنِ من الموانع يقوم على إيجاب من الرجل وقَبول من المرأة موثّقاً بشاهدَيْن لصِحّة العقد آحتياطاً لِما ينشأ بعدَ عقدِ الزواج من المشاكل المتعلّقة بالزوجين وبذُرّيتها . والغايةُ من الزَّواج بناءُ أسرة سليمة صحيحة . ففي القرآنِ الكريم (٧ الأعراف ١٨٩) : ﴿ **هو الذي خَلَقَكُمْ من نفسٍ واحدةٍ وجعَل منها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إليها** ﴾ . وفيه أيضاً (٣٠ الروم ٢١) : ﴿ **ومن آياتِه أنْ خَلَقَ لكم من أنفُسِكم أزواجاً لتسكُنوا إليها وجعَلَ بينَكم مودّةً ورحمةً . إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون** ﴾ .

الطَّلاق

إذا تعذَّرَ على الزَّوْجين بناءُ أسرةٍ سليمةٍ صحيحةٍ سعيدةٍ فَقَدَ الزَّواجُ جانباً كبيراً من غايته . ومعَ أنّ المفروضَ المستَحَبَّ في الزَّواج أن يدومَ ، فإنّ ثمّةَ أحوالاً يُصْبِحُ آفتراقُ الزوجين خيراً لهما وللمجتمع أيضاً . فالطَّلاقُ ، إذَنْ ، ليس قاعدةً مألوفة كالزَّواج ، ولكنّه حالٌ شاذّةٌ عارضةٌ تدعو إليها ضَرورةٌ لا يُمْكِنُ ردُّها برُغْمِ المحاولاتِ الكثيرة . وجِماعُ هذه الفِكرةِ كُلِّها قولُ الله تعالى (٤ النساء ٣٥) : ﴿ **وإنْ خِفْتُم شِقاقَ بَيْنِهما فآبعثوا حَكَماً من أهلِهِ وحكَماً من أهلِها ؛ إنْ يُريدا إصلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بينَهُما** ﴾ .

ومعَ ذلك فقد جاء في الأثر : أبغَضُ الحلالِ إلى الله الطلاقُ . غيرَ أنّ الطلاقَ أولى إذا كان الإمساك (دوامُ الزَّواج) لا يدومُ على معروفٍ ، أيْ ، إذا كانتِ المعاملةُ بينَ الزَّوجينِ غيرَ كريمةٍ . ففي القرآن الكريم (٢ البقرة

من الناحية ٱلِاقتصادية والناحيةِ ٱلِإجتماعية والناحية النفسية . فأول وُجوهِ هذهِ المُشكلةِ المعقّدة حَضانة الأولاد .

والمبدأ العامُّ في الحضانة للصغيرِ أنّها للأُمّ ، لأنّ الطِفل يكونُ في أولِ أمرِه أحوجَ إلى أُمِّه ، فهي أعلمُ بحاجاته وأقدرُ على القيام بها ، ولذلك كانتْ أحقَّ بها . وٱختلفتِ المذاهب في السِنّ التي تكون فيها الحَضانةُ للأُمّ ، ولكنّ أكثرَ المذاهبَ على أنّ الحضانة للأمّ حتّى يبلُغَ الصبيُّ سبعَ سَنواتٍ وتبلُغَ البنتْ تسعاً . ولكنّ علماءَ القانون المعاصرين لنا وجدوا أنّ هاتين السَّنَتَيْنِ لا تَفِيانِ اليومَ بحاجة الحَضانة . إنّ المذاهبَ الفِقهية قد نشأت وَهِيَ تنظُرُ إلى بلادٍ يصل فيها الإنسانُ إلى بُلوغه الطبيعيّ باكراً . ثمّ إنّ حاجاتِ الطفلِ من قبلُ كانت أقلَّ من حاجاته اليومَ . من أجل ذلك رَفَعَتْ مجلّةُ الأحكامِ العدلية سِنَّ البلوغ إلى خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فأكثرَ حتّى الواحدةِ والعِشرين في مِصْرَ مثلاً ، وتمامِ العِشرين في تُونِسَ[1] . فإذا كان بلوغُ الرُّشْدِ قد تأخّرَ في أيامنا ، فإنّ سَنَواتِ الحضانةِ يَجِبُ أن يدخُلَ عليها شيءٌ من التعديل .

وحقّ الحَضانة مَبْدئِيّاً للنساء . . . وتكونُ الأُمُّ أحقَّ من غيرها في ذلك[2] . وهذا الحقُّ لا يسقُطُ ؛ ولا يُنْزَعُ الولدُ من أمّه ولو وُجِدَتْ له مُرْضِعة مُتبرّعةٌ إلّا إذا كان **الوالدُ** مُعْسِراً . وإنّ حقَّ الحَضانة حقٌّ لازمٌ للحاضنة وللولدِ معاً . فعليه ، لا يَصِحُّ إسقاطُ هذا الحقّ . وإذا أسْقَطَتْه الأُمُّ كان لها أنْ تَرْجِعَ عن ذلك[3] .

وشَرح زكيُّ الدين شَعبانُ هذا المبدأ شَرْحاً موجزاً* فقال :

« إنّ الأمّ لوِ ٱخْتَلَعَتْ من زَوْجها على أن تترُكَ ولدَها المحتاجَ إلى الحَضانة عندَه (أي : أن تترُكَ عنده ولدَها المُحتاجَ إلى حَضانتها) كان الخُلْعُ

(١) المبادىء الشرعية والقانونية لصبحي محمصاني ٦٥ .

(٢) مثله ٧٣ .

(٣) مثله ٧٦ .

(٤) الأحكام الشرعية للأحوال الشخصية (منشورات الجامعة الليبية كلّيّة الحقوق) الطبعة الثانية ١٩٧١ ، ص ٦١٤ ، راجع ٤٦٧ .

٢٢٩) : ﴿ الطَّلاقُ مرّتانِ ، فإمساك بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان . . . ﴾ وفيه أيضاً (٢ البقرة ٢٣١) : ﴿ وإذا طَلّقْتُمُ النساءَ فَبَلَغْنَ أجلَهُنَّ فأمْسِكوهنّ بمعروفٍ أو سَرّحوهنّ بمعروفٍ ﴾ .

والطَّلاقُ نفسُه يجب أن يكونَ كريماً ، ففي سورة البقرة (٢ : ٢٣٦) : ﴿ لا جُناحَ عليكم إنْ طلّقتُمُ النساءَ ما لم تَمَسّوهنّ أو تَفْرِضوا لهنّ فريضة . ومَتّعوهنّ ، على المُوسِعِ قَدْرُه وعلى المُقتِرِ قدْره ، متاعاً بالمعروفِ حقّاً على المُحسنين ﴾ . وضرَبَ الرسولُ ﷺ في ذلك مثلاً جميلاً حينما جاء الوحي على لسانه تعليماً للمؤمنين ، قال الله تعالى (٣٣ الأحزاب ٢٨) : ﴿ يا أيّها النبيّ ، قل لأزواجك : إن كنتنّ تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالَيْنَ أُمَتِّعْكنّ وأُسَرِّحْكُنّ سَراحاً جميلاً ﴾ . وفي سورة الأحزاب أيضاً (٣٣ : ٤٩) : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا ، إذا نَكَحْتُمُ المؤمناتِ ثمّ طلّقتموهنّ من قبلِ أنْ تَمَسّوهُنّ ، فما لكم عَلَيْهِنّ من عدّة تعتدّونها . فَمَتّعوهنّ وسَرّحوهُنّ سَراحاً جميلاً ﴾ .

ويسعى الإسلامُ قدرَ المُستطاع إلى أن تبقى المرأةُ مَعَ زوجها برُغْمِ أمورٍ كثيرة . فإنْ لم يتيسّرْ ذلك ، أُذِنَ بالطلاق فلَعلّ كلَّ زوجٍ يصبحُ بَعْدَ الطلاق أسعدَ ممّا كان قبلَه . وفي القرآنِ الكريم في ذلك كُلِّهِ (٤ النساء ١٢٨ - ١٣٠) :

﴿ وإنِ آمرأةٌ خافتْ من زوجها نُشوزاً أو إعراضاً فلا جُناحَ عليهما أن يُصْلِحا بينَهما صُلْحاً ، والصُّلْحُ خيرٌ - وأُحْضِرَتِ الأنفُس الشُّحّ - وإنْ تُحْسِنُوا وتتّقوا فإنّ اللّهَ كان بما تعملون خبيراً * ولن تَسْتَطِيعوا أن تَعْدِلُوا بين النساء ولو حَرَصْتم . فلا تميلوا كُلَّ المَيْلِ فَتَذَروها كالمُعلّقة . وإنْ تُصْلحوا وتَتّقوا فإنّ اللّهَ كان غفوراً رحيماً * وإنْ يَتَفَرّقا يُغْنِ اللّهُ كُلّاً من سَعَتِهِ . وكان اللّهُ واسعاً حكيماً * ﴾ .

الحضانة

إذا وقَعَ الطلاقُ ، وكان للزوجَيْنِ أولادٌ ، فإنّ المُشكلةَ تُصْبحُ أشدَّ تعقيداً

صحيحاً و(لكن) لا تسقُطُ حضانةُ الأمِّ إذا ترتّبَ على سُقوطها الخوفُ من ضَررٍ يلحَقُ بالولدِ لتعلُّقهِ بأُمّه أو لكونِ مكانِ الأبِ غيرَ حَصين . فإن لم يَلْحَقِ الولدَ ضررٌ بسُقوط حَضانة الأمّ سَقَطَ حقُّها في الحَضانة عند المالكية ، لكنّه لا ينتقلُ إلى الأب بل ينتقل إلى مَنْ لها حقُّ الحضانة بعدَ الأمّ » .

ويجوزُ تَخييرُ الطِفل (صبيّاً كانَ أو بِنتاً) بينَ أبيه وأُمّه عند بلوغِ السِنّ المنصوصِ عليها مَعَ النظر في مَصلحة الطفل . وقد خَيّر الرسولُ ﷺ عدداً من الأطفال (صِبياناً وبناتٍ) بينَ آبائهم وأُمّهاتهم ثمّ لم يَكْتَفِ أحياناً بالتحيير الأوّل إذا علم أنّ الطِفل لم يُحْسِنِ الاختيارَ . وكذلك فعل نفرٌ من الخُلفاء الراشدين ومن الفقهاء . وفي « نيل الأوطار » للشوكاني* رأيٌ جيّد ، قال :

« وٱعلَمْ أنّه ينبغي قبلَ التخيُّر ٱلإِسْتهامُ (القُرعة على حَضانة الولدِ بعدَ البلوغِ الشرعيّ بين الأَبِ والأُمّ) ملاحظةُ ما فيه مصلحةُ للصبيّ . فإذا كان أحدُ الأبوين أصلحَ للصبيّ من الآخرِ قُدِّمَ عليه من غيرِ قُرعة ولا تَخْيِيرٍ . هكذا قال ٱبنُ القَيِّمِ وٱستدلّ على ذلك بأدلّةٍ عامّةٍ نحو قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الذين آمنوا ، قُوا أنفُسَكم وأهْلِيكُم ناراً** ﴾ .. ثمّ حكى عن شَيْخِه ٱبنِ تَيْميّةَ أنه قال: « تنازَعَ أبوانِ صبيّاً عندَ الحاكم . فخَيّر (الحاكمُ ، القاضي) الولدَ بينَهما . فٱختارَ (الولدُ) أباه . فقالتْ أُمّ الولدِ : سَلْه لأيّ شيءٍ ٱختاره . فسأله (الحاكمُ ذلك) فقال (الولدُ) : أُمّي تَبْعَثني كُلَّ يومٍ للكاتبِ والفقيه يَضْرِباني . وأبي يترُكُني ألعب مَعَ الصِبيان . فقضى (الحاكم) بالولدِ للأُمّ » .

ولا يقتصرُ ٱلإِسْتهامُ (تَخييرُ الولدِ بينَ أبيه وأُمّه) على الحالِ التي يكونُ أحدُهما فيها ضارّاً بالصغير أو شرّيراً . إنّ الرسول ﷺ لمّا فعل ذلك ثمّ تَبِعَه الصحابةُ والفقهاءُ في ما فَعَلَ لم يَقْصِدِ ٱلإِسْتهامَ بينَ مُضِرٍّ ونافع ، إذ لا معنىً لذلك ولا يُمْكِنُ أن يَخْفى الخيرُ والشرّ عليه ، وإنّما أرادَ الرسولُ أنْ يَسْتَهِمَ على « خيرِ الأبوين » . وهذا ما ذهبَ إليه ٱبنُ حزمٍ (المُحلّى ١٠ : ٣٢٧) لمّا قال : « نحن لا نُنْكِرُ تخييرَ (الطِفل بينَ أبَوَيْه) إذا كان أحدُهما أرفقَ به . ولا شكَّ في أنّ رسولَ الله ﷺ لا يُخَيِّرُ إلاّ بين خِيِّرَيْن . وكذلك نحن على يقينٍ من

انه عليه الصلاةُ والسلام لا يترُكُ أحداً على آختياره ما[1] هو فسادٌ له في دِينه أو في حالته ، فقد يسوءُ آختيارُ الصغيرِ لنفسِه ويميلُ إلى الراحة والإهمال . ولا شكَّ في أنّه عليه الصلاة والسلام إنْ خَيّرَ الصبيَّ (فإنّ الرسولَ لم) يُنَفِّذَ آختيارَ (الصبيِّ) إلاّ (لأنّ الصبيَّ كان) قدِ اختارَ الذي يَجِبُ أنْ يختار ، لا يجوز غير ذلك أصلاً» .

وهنالك شيءٌ آخَرُ ذكره آبنُ حزمٍ (المحلّى ١٠ : ٣٢٤) وهو الحِياطة للطِفل في أثناء مُدّة الحَضانة . والحِياطة تكون في الدين والدنيا ، أي في ما يحفَظُ على الطفل صِحّة دينِه وفي ما يحفظ عليه حُسْنَ حاله في أمور الدين الدنيـا . ولا شكَّ في أنّ أحدَ الأبوين الذي يحفَظُ على الطفل صِحّة نشأتِهِ الدينية (وإنْ كان مقصّراً في أمور الدنيا) أفضلُ من أحدِ الأبوين الآخَرِ الذي ليس عنده إلاّ حُسْنُ حالِ الدنيا . أمّا إذا تساوى الأبَوين في آلإحتياط لدينِ الطفل ثمّ كانَ الآخرُ أقدَر على حُسْنِ أحوال الدنيا فهُوَ أحقُّ بالحَضانة ـ يقول آبنُ حزمٍ : « وتفسيرُ الحِياطة في الدنيا أن يكونَ أحدُ الأبوين أشدَّ رفَاهية في عَيْشه ومَطْعمه ومَلْبسه ومَرْقَده وخِدمته وبِرّه وإكرامه وآلإهتبال به (الاهتبال له : الكَسْبُ الوفيرُ والرِعاية) ، فهذا فيه إحسان إلى الصغير والصغيرةِ ، وهو واجبٌ أن يُراعى بعدَ الدينِ لقولهِ تعالى : ﴿ **وبالوالدَيْنِ إحساناً وبذي القُربى** ﴾ .

في النفقة

بابُ النفقةِ بابٌ واسعٌ في الفِقه ، ولكنّ القسمَ المتعلّق منه بالمُطلّقة ضيّق .

« تَجِبُ[2] النفقةُ في الشرع الإسلاميّ للزوجة على الزّوج . . . ولكنّ الزوجَةَ لا تُجْبَرُ على الإنفاق على زَوْجها » . والنفقةُ العامّةُ اللازمةُ تسقُطُ بالطلاق ، ولكنّ النفقة الخاصّة بمدّة وفاءِ العدّة وأُجرة رَضاعِ الطِفل الذي مَعَ

(١) « ما » من .

(٢) راجع المبادىء الشرعية والقانونية، تأليف المحامي صبحي محمصاني (بيروت : دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة ١٩٦٢) ص ٢١٨ وما بعدها .

تخلخل الأسرة المسلمة
بالزواج بالأجنبيّات*

لا يمتنع في العقل أن يكونَ هنالك بيوتٌ مُسلمةٌ فيها زوجاتٌ أجنبيّاتٌ ثم تكون هذه البيوتُ سعيدةً وتكون أيضاً ـ إلى حدٍّ ما ـ سليمةً . ولكنّ هذا هو الشاذُّ وليس القاعدةَ . ومعَ ذلك فإنّ هذا الشاذَّ الذي يبدو في بعض الأحيان سعيداً سليماً ليس في حقيقة الأمرِ وفي الغالب كذلك .

عَرَفْتُ تلميذاً في مدارسِ جمعيّةِ المقاصدِ الإسلامية في بيروتَ اسمه محمودُ ع . ، عَلّمته عاماً واحداً أو أكثرَ من عام ، فيما أظُنُّ ، ثمّ ظَلِلْتُ ألقاه بعدَ ذلك عِشرينَ سَنَةً أو أكثرَ . ولم أكنْ أشُكُّ في دينِه ولا في وطنيّته ، مَعَ كَثْرةِ ما كنتُ ألقاه وأُحَدِّثه . ولقد تملّكَتْني الدَّهشةُ ذاتَ يومٍ لمّا عَلمتُ أنه أُلْقِيَ في السجن لصِلته بشَبَكةِ تجسُّسٍ لإسرائيلَ . ثمّ زال شيءٌ من دَهْشتي لمّا عَلِمْتُ أنّ أمَّ محمودٍ يهوديّة .

سأسوقُ آعتراضاً على نفسي فأقولُ إنّ نفراً كثيرينَ تجسّسوا لدُوَلٍ أجنبيةٍ ولم تكن أُمّهاتُهم أجنبيّاتٍ ، كما أنّ ثمّةَ نفراً كثيرين أُمّهاتهم أجنبيّاتٌ ولا أعلَمُ أنّهم تجسّسوا لدُوَلٍ أجنبيةٍ . ولكنّني لا أستطيعُ أن أُنْكِرَ الأثرَ آلاِجتماعيَّ الذي تترُكه الأمّ في طِفْلها قصداً أو عفْواً ، كما لا يستطيعُ غيري أن يُنكِرَ أنّ الأمّ

(*) أعدّ هذا البحث لأحد الملتقيات للفكر الإسلامي في الجزائر ، وألقي ملخّصه هناك . ولكن لم أعلم ، فيما وصل إليّ من مطبوعات الملتقى المذكور ، أنّه نشر . من أجل ذلك أجزت لنفسي أن أبعث به إلى مجلّة « هذه سبيلي » في الرياض (المملكة السعودية) فنشر في عددها الأوّل (من سنتها الأولى) ، ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م) .

المطلّقة يَبْقيان بشروط . فمن تلك الشروط أنّ المرأةَ لا تستوفي من الرجل الذي طلّقها نَفَقَتَيْنِ (نفقةَ العِدّة ونفقة الطفل الرضيع) في وقت واحد . ولكن إذا انتهت مدة العِدّة (طالتْ أو قَصُرَتْ بحَسْبِ ما نصّ عليه الشرع) فإنّ النفقة التي على الرجل للمرأة المطلّقة تنتهي ثمّ يستحقّ لها « أجرٌ » على إرضاع الطِفل (بشروط مذكورة أيضاً) . وبما أن النفقة والأجرَ على الرَّضاع يُقْصَدُ منهما حفظُ حياةِ المرأة ما دامَ الطلاق لم يُصْبِحْ بائناً أو لم يصبح ناجزاً ، كما يُقْصَدُ منهما حفظُ حياةِ الطِفل ، فإنّ المُطلّقة إذا طَلَبَتِ النفقةَ لنفسِها متأخّرةً أوْ إذا طلبتِ الأجْرَ على الرَّضاع متأخّرةً أيضاً فإنّها تستحقُ النفقةَ وذلك الأجرَ من يوم مُطالبتها ويسقُطُ حقُّها في كلّ ما مضى من المُدّة .

الأجنبيةَ تخرُجُ بالبيتِ المُسلمِ عن سَواء السبيلِ ، في النهجِ الاِجْتماعيّ على الأقلّ .

والأجنبيّاتُ اللواتي أعْنيهن في هذا المقال هُنّ الأوروبيّاتُ والأميركيّات من النصارى في الأكثرِ ومن اليهود في الأقلّ . وهؤلاء هنّ الكَثْرَةُ في العالم الإسلاميّ . وربّما كان في المسلمين مَنْ تزوّج مُشركةً وثنيّةً - في إفريقية خاصّةً - ولكنّ هذه الحالَ نادرةٌ ، وليس في فُقهاء المسلمين مَنْ يُجيز الزَّواجِ بالمُشركة الوثنية . فليس هذا ، إذَنْ ، في نِطاق البحث في هذا المقال .

ويبدو أنّ الزَّواج بأجنبيةٍ - غريبةٍ عن قوم الزوج - كان دائماً يخلُقُ مُشكلةً آجتماعيةً أو نفسية . إنّ الشاعرَ الجاهليّ طَرَفَةَ بنَ العبد تألّم من ظُلْمِ أعمامِه له ومن سوء مُعاملتهم له ولأمِّهِ وردةَ فقالَ بيتَه المشهورَ :

وظُلْمُ ذوي القُربى أشدُّ مَضاضةً … على النفس من وَقْعِ الحُسام المُهَنَّدِ !

ونحن نستطيعُ أن نفهَمَ السببَ الذي حَمَلَ طَرَفَةَ على قول هذا البيت إذا عَلِمنا أنّ العبدُ والدَ طَرَفَةَ لمّا مات كان طَرَفَةُ لا يزالُ صغيراً فأقام أعمامُه أنفُسَهم أوصياءَ عليه وعلى حَقّه وحقِّ أُمّهِ وردةَ من مالِ أبيه ولم يَقْسِموا مالَه (أيْ لم يدفَعوا إليه إرثه من أبيه) فقال :

مـا تنـظُرونَ بحقِّ وردةَ فيـكُمْ … صَغُرَ البنونَ ورهْطُ وردةَ غُيَّبُ .
قـد يبعَثَ الأمرَ العـظيمَ صغيرُهْ … حتّى تـظَلَّ له الـدماءُ تَصَبَّبُ .
والظُلْمُ فرّق بينَ حَيَّيْ وائـلٍ : … بَكْـرٌ تُسـاقيهـا المَنِيَّـةَ تَغْلِبُ .

والسببُ في ذلك أنّ العبدَ والدَ طَرَفَةَ - وهو وَثَنيّ من بني بَكْرٍ - قد تزوّجَ آمرأةً من بني تَغْلِبَ آسمُها وردةُ ، وكانتْ في الأغلب نَصْرانيّة[1] .

---

(١) يبدو أنّ الديانة النصرانية كانت منتشرة في بني تغلب ، ولكنّها كانت نصرانية سطحيّة جدّاً ، حتى أنّ الإسلام لم يعدّهم من أهل الكتاب أو لم يعاملهم معاملة أهل الكتاب . في تاريخ الطبري (دار المعارف) ٩ : ٥٧٥ : « لا تأكلوا ذبائح نصارى بني تغلب فإنّهم لم يتمسّكوا بشيء من النصرانيّة إلاّ بشرب الخمر » .

ثمّ كثُرَ المسلمون وقوِيَ الإسلام ، وأصبحتِ البيئةُ الإسلامية في شِبه جزيرة العربِ هي البيئةَ السائدةَ فبَطَلَ الخوفُ من سَيْطرةِ المرأةِ غيرِ المُسلمة في البيتِ المسلم ، فأجازَ الإسلامُ الزَّواج بالكتابيّات اللواتي كُنّ على الديانة النَّصرانية أو اليهوديّة .

والإسلامُ قد فرّق بين الدين والشريعة . بينَ الإيمان والأحكام . إنّ الإسلام قد عدّ الذين لهم كُتُبٌ أوحِيَتْ إلى أنبيائهم على مستوىً واحدٍ من الدين ، لأنّ الأديان التي هي من عندِ الله لا تختلفُ ولا تكونُ صحيحةً ثمّ تفسُدُ . ولذلك جاء في القرآن الكريم (البقرة ، ٢ : ٦٢ ، راجع المائدة ، ٥ : ٦٩) : **﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنَّصارى والصابئين مَنْ آمنَ باللَّهِ واليومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالحاً فلهم أجْرُهم عن ربّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾** .

من أجل ذلك لا نَجِدُ الإسلامَ قد نَسَخَ ما جاء به موسى وعيسى من الأصول للعقيدة ، لأنّ العقيدةَ أمرٌ مُطْلَقٌ لا يتغيّرُ بآختلافِ الزمان . لكنّ الإسلام نَسَخَ الشريعةَ اليهوديّة والشريعةَ النصرانية (أي أبطَلَ العملَ بأحكامهما الدنيوية ، لأنّ الأحكامَ الدنيوية تختلفُ بآختلافِ الزمان) .

ثم حدَثَ أمرانِ :

أ ـ أمِنَ الإسلامُ كُلَّ فِتنةٍ من وجودِ آمرأةٍ كتابية في البيت المسلم ؛

ب ـ قِلّةٌ في النساء المُسلمات ، وخصوصاً في زمن الفتح (حينَما كان المسلمون يذهَبون في الغَزَوات معَ رسول الله) .

« أخرجَ[1] عبدُ الرزّاق وابنُ المُنذر عن جابرِ بن عبدالله أنّه (أيْ جابرَ بنَ عبدِالله) سُئِلَ عن نِكاحِ المُسلمِ اليهوديّةَ والنصرانيةَ فقال : تَزَوّجناهُنّ

---

(١) الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطِي ، طهران (المكتبة الجعفرية) ١٣٧٧ هـ ، ٢ : ٢٦١ . عبد الرزّاق (راجع الفهرس الهجائي) . ابن المنذز (؟) . جابر بن عبدالله بن عمرو الأنصاري (١٦ ق . هـ . ـ ٧٨ هـ) صحابي روى كثيراً من الأحاديث عن رسول الله وعن الصحابة .

زَمَنَ الفتح ، ونحن لا نكادُ نَجِدُ المُسلمات كثيراً ، فلمّا رَجَعْنا[1] طلّقناهنّ . . .

وأخرَجَ[2] ابنُ جريرٍ عن الحسن[3] أنّه سُئِلَ : أيتزوّجُ الرجلُ (المسلمُ) المرأةَ من أهلِ الكتاب ؟ فقال : ما له ولأهلِ الكِتاب وقد أكْثَرَ اللّهُ المُسلماتِ .

في هذه الحال (من أمْنِ الفِتنة إذا دَخَلَتِ المرأةُ الكتابيةُ إلى البيتِ المسلم ، إلى جانبِ قِلّةِ النساء المُسلماتِ بالإضافة إلى الرجال المُسلمين ، وخصوصاً في أيام الفتوح) وفي ذلك الحين (في نحو السَّنَة التاسعةِ أو السَّنة العاشرة) نزلتْ سورةُ المائدةِ ، السورةُ الخامسةُ في المُصحَف[4] وفيها الآية الثالثةُ التي تبدأ بقوله تعالى ﴿ **حُرِّمَتْ عليكُمُ المَيْتَةُ والدَّمُ** . . . ﴾ ومنها :

﴿ **اليومَ أكْمَلْتُ لكم دينَكُمْ وأتْمَمْتُ عليكم نِعمتي ورَضِيتُ لكُمُ الإسلامَ ديناً** . . . ﴾ وهي آخِرُ سورةٍ نزلت من القرآنِ بإجماع الرُّواة[7] .

ثمّ تأتي الآيةُ الخامسة من سورة المائدة ونصُّها :

﴿ **اليومَ أُحِلَّ لكُمُ الطَّيِّباتُ ؛ وطعامُ الذين أُوتوا الكتابَ حِلٌّ لكم ، وطعامُكُمْ حِلٌّ لهم ؛ والمُحصَناتُ مِنَ المؤمنات والمُحصناتُ من الذين أُوتوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُم إذا آتَيْتُموهنّ أُجورهنّ مُحصِنين غيرَ مُسافِحين ولا مُتّخذي أخْدانٍ . ومَنْ يكفُرْ بالإيمان فقد حَبِطَ عَمَلُه ، وهو في الآخِرَةِ مِنَ الخاسرين** ﴾ .

---

(1) في الأصل : رجعن !

(2) الدرّ المنثور ٢ : ٢٦١ .

(3) ابن جرير عن الحسن ؟

(4) عمدة القاري (شرح صحيح البخاري) ، بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني (ت ٨٥٥ = ١٤٥١ م) مصر (إدارة المطبعة المنيرية) ١٨ : ١٩٥ : « آخر سورة نزلت سورة براءة . . . نزلت سورة المائدة ثمّ سورة التوبة (براءة) » ، السطر الرابع من أسفل . وقيل : هي (المائدة) آخر ما نزل .

Vgl. Geschichte des Qurâns! von\ Theodor Nöldeke (2. Auflage, bearbeitet von Friedrich Schwally), Leipzig 1909, S. 227.

والمصادر التي رجع إليها نولديكي : تفسير الطبري : في المقدّمة (مصر ١ : ٣٤) ؛ صحيح مسلم (كتاب الفرائض) ؛ صحيح البخاري (كتاب المغازي ، فصل ٦٧ ، كتاب التفسير) ؛ سنن الترمذي (كتاب التفسير : سورة المائدة ، في أواخرها) .

في هذه الآية أمورٌ كثيرةٌ يحسُنُ التفطُّنُ لها ، وقد وَقفَ المُفسّرون عليها كُلّها وَقفاتٍ طويلة . من هذه الأمور :

١ - تبدأ هذه الآيةُ بقوله تعالى : ﴿ اليومَ أُحِلَّ لكم . . . ﴾ ، ومعنى ذلك أنّ الزّواجَ بالكِتابيّات قبلَ نُزولِ هذه الآيةِ كان مُحرّماً . ثمّ أجازتْ هذه الآيةُ الزّواج بهنّ لِعِلَلٍ ذكَرْنا شيئاً منها قبلَ قليل .

٢ - وفي نصِّ هذه الآية : ﴿ اليوم أُحِلَّ لكم . . . **المُحْصَناتُ من الذين أُوتوا الكتاب من قَبْلِكُم** . . . ﴾ « أنّ الكِتابيّاتِ (اللواتي يَحِلُّ لِمُسلم أن يتزوّجَ بهنّ) هنّ اللواتي كنّ - أو كانَ قومُهنّ - أهلَ كتابٍ (على اليهوديّة أو النصرانية) من قَبْلِكُمْ (من قبلِ المسلمين : قبلَ مجيء الإسلام) . أمّا بعدَ أن جاء الإسلام فلا يجوزُ أنْ يعتنق أحدٌ ديناً آخرَ[1] . من أجل ذلك ، يَحِلُّ للمسلم - بحَسْبِ نصّ الآيةِ الكريمةِ - أن يتزوّجَ آمرأةً روميّة ، مثلاً ، لأنّ الرومَ دخلوا في النصرانية قبلَ مجيء الإسلام ، ولكن لا يجوزُ أن يتزوّجَ المُسلمَ امرأةً دانماركية ، لأنّ النصرانية بدأت تنتشرُ في الدانمارك في عام ٨٢٦ للميلاد (٢١١ للهجرة) ، أي بعد مجيء الإسلام بقرنينِ وربعِ قَرْن* .

٣ - من هم أهلُ الكِتاب المقصودون بالآية ؟

لمّا جاءَ الإسلامُ كان في العالم فِرَقٌ نَصرانيةٌ كثيرةٌ ، وكان عَددٌ منها يُخالِفُ المَسيحيّةَ الموجودَةَ اليومَ ويُوافق الإسلام[2] . من هذه الفِرَق شيعةُ باسيليوس الإسكندريّ (رقم ٩ ، ص ٣٥) . كان باسليوس موجوداً في أوائلِ

---

(١) راجع « مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ، بيروت (دار مكتبة الحياة) ١٣٨٠ هـ = ١٩٦١ م ، ٤ : ٣٢ - ٣٣ ؛ مفاتح الغيب للفخر الرازي ، مصر (المطبعة الشرفية ١٣٠٨ هـ ، ٣ : ٣٧٣ ؛ تفسير البيان لمحمّد بن الحسن الطوسي ، النجف (المطبعة العلمية) ، ٣ : ٤٤٦ ؛ النيل وشفاء العليل لعبد العزيز الثميني ، الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م ، ٢ : ٣٢٢ .

(٢) بعض أتباع هذه الفرق (كما ترى في السطور التالية) كانوا يعتقدون مثلاً أن المسيح إنسان صدّيق وليس إلهاً .

(*) علّق فضيلة الأستاذ محمّد جواد مغنيّة (ت ١٩٨٠ م) على هذه الجملة بقوله) « إنّ الأحكام تتبع الأسماء باتّفاق جميع المذاهب . ولا أثر (فيها) للزمان تقدّم أو تأخر

ومثلُ ذلك كانتْ قِصّة عنترةَ المشهورةِ ، فقد كانتْ أمُّ عنترةَ حَبَشيّةً .
ومثل هاتين القِصّتين قِصّة جليلة بنتِ مُرّةَ بنِ شَيْبانَ التَغْلَبيّة زوجةِ وائلِ بنِ ربيعة سيِّدِ بني بكرٍ المشهورِ بلقبِ كُليبِ وائلٍ . لمّا غَضِبَ جسّاسٌ أخو جليلةَ من وائلٍ وقتلَه عَدّتْ جليلةُ نفسَها من عصبيّةِ أخيها التغلَبيّ لا من عصبيةِ زوجِها البَكْريّ ثمّ غادرتْ بيتَ زوجِها إلى بيتِ أبيها .

وأكثرَ ما يتزوّجُ الشابُّ آمرأةً أجنبيةً في فَوْرةٍ عاطفيةٍ أو أزْمةٍ نفسية أو حِرمانٍ آجتماعيّ ، لأنّ المرأةَ الأجنبيةَ في فَوْرَتهِ العاطفيةِ تلك أو في أزْمتهِ النفسيةِ هذه قد تُعْجبه أو تُسرّه أو يَنْفَعه الزَّواجُ بها نفعاً عارضاً . من أجل ذلك لمّا حرّمَ الإسلام الزَّواج بالمُشركات ذَكَر هذه العِلّة وحدَها لأنّها العلّةُ التي كانتْ ـ ولا تزالُ ـ شائعةً بينَ الشُّبّان ، فقال الله تعالى : ﴿ **ولا تَنْكِحوا المُشرِكاتِ حتّى يُؤْمِنّ . ولأمَةٌ مُؤْمنةٌ خيرٌ من مُشْركةٍ ولو أعْجَبَتْكُم** ﴾ (البقرة ، ٢ : ٢٢١) .

والمُشركةُ في هذه الآية هي الوثنية التي كانتْ تعبُدُ الأوثانَ والأصنام وتجعَلُ الأوثانَ والأصنامَ شُركاءَ لله . ولقد كانتِ الكِتابيّة[1] في ذلك الحين في حُكم المُشركة لا يجوزُ الزَّواج بها ، لأنّ المُسلم في ذلك الحينِ كان ضعيفاً من الناحية آلاجتماعية العامّة ومن الناحية السياسية الخاصّة ، فالإسلام لم يكُنْ قد أصبحَ دولةً مستقرّةً مَرهوبةَ الجانبِ بعدُ ، بينَما كان المُشركون من الوثنيّين والمَجوس ـ والكِتابيّون من النَّصارى خاصّةً ومن اليهود ـ ينتَمونَ إلى بِيئاتٍ آجتماعيةٍ راسخةٍ متماسكةٍ وإلى دُوَلٍ قويةٍ كالفُرس والروم وكالطَبَقة الحاكمةِ في مَكّةَ قبلَ الفتح . فوجودُ آمرأةٍ من بِيئةٍ قويّةٍ في بيتٍ من بِيئةٍ ضعيفةٍ يجعَلُ لتلك المرأةِ سَيْطرةً في هذا البيت بِرَأيها وبعَقيدتها المُخالفةِ لرأي هذا البيتِ وعقيدته .

(١) الكتابية : المرأة من أهل الكتاب . وفي تعريف أهل الكتاب خلاف : قيل هم اليهود فقط . وقيل هم اليهود والنصارى . واختلف الفقهاء في شأن المجوس (عبدة النار) وشأن الصابئة (عبدة النجوم) . والمفروض في « أهل الكتاب » أن يكون لهم نبيّ مرسل ، وأن يكون قد نزل على هذا النبيّ كتاب .

القرن الثاني للميلاد ، وقد أنكرَ القِيامة (قيامةَ المسيح من الموت) وكان يقول : إنّ المسيحَ لم يأتِ بناسوت (بجسم) حقيقي ، بل كان ذا ناسوتٍ خيالي . ولذلك ما أمكنَ لأحدٍ أن يُمسكه ويَضْبِطَه وقتَ آلامه (لمّا حُكِمَ عليه بالقتل) ، بل أُلْقِيَ رسمُه (صورتُه ، شَبَهُه) على سِمعانَ القَرَويِّ فصُلِبَ عِوَضه . وهنالك تسيانوسُ (رقم ٣٨ ، ص ٤٥) ، كان في أواخرِ القرنِ الثاني للميلاد ، وقد قال إنّ الإنجيل تبدّل وتغيّر . ثمّ هنالك آريوسُ (رقم ٥٠ ، ص ٦٠) كانَ أُسقُفاً على الإسكندرية (ت ٣٣٦ م) وقد قال إن المسيح ليس بآلهٍ ، وهو مخلوقٌ من « لا شيء » (ولكنْ) في الزمنِ وليس أزَليّاً . وهنالك نَسطورُ (رقم ٨٩ ، ص ٨٥) أُسقُفُ القسطنطينيةِ (ت ٤٣٠ م) ، فقد قال إنّ مريمَ العذراءَ ليستْ بوالدةِ الله لأجلِ أنّ اللَّهَ لا يُمْكِنُ أن يُولَدَ من إنسانٍ . وهنالك سرجيوسُ بَحِيرا (رقم ١١٨ ، ص ١٠٠) ، وكان راهباً نَسطوريّاً من نَجْرانَ التي قُرْبَ دِمَشْقَ تُوُفِّيَ عامَ ٦١٨ م (قبلَ الهِجرة بأربعةِ أعوامٍ) ، وكان يقول إنّ المسيحَ لم يُصلَبْ ولم يَمُتْ ، بل شُبِّهَ به .

هذه الفرقُ النَّصرانية وفرقٌ أُخرى مثلُها كانتْ منتشرةً في العراق والشام ومِصْرَ والحبشة وإسبانية . ثمّ جاء الإسلامُ وخرَجَ العربُ بالفتوح وكان لا يزالُ من هذه الفرقِ جماعاتٌ كثيرة في كلّ مكانٍ تحتملُ الاضطهادَ على أيدي الحُكّام الذين كانوا على الاِعتقاد الرسمي[1] . وكان بعض هذه الفرقِ ثائراً على البيزنطيّين (الروم)[2] وقد كان هذا عاملاً من العوامل التي نستطيع أن نُعَلِّلَ بها انتشارَ الإسلام ، ذلك الاِنتشارَ الشاملَ السريعَ في المشرق والمغرب . كانتِ الثورةُ قد بدأتْ في مِصْرَ ثمّ عمّتِ الشرق ، وقد فصّل القدّيسُ صُفرونيوسُ

---

(١) كان للنصارى في المسيح اعتقادان : اعتقاد يقول أنّ في المسيح طبيعتين : طبيعة إنسانية وطبيعة إلّهية منفصلتين مستقلّتين . ثمّ كان هنالك اعتقاد يقول بأن في المسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلّهية . وأرادت الدولة أن تجمع بين الاعتقادين فشرّعت بان المسيح كان فيه طبيعتان ثمّ اتّحدتا فأصبحتا طبيعة واحدة . هذا الاعتقاد الذي أصبح اعتقاداً رسميّاً لمملكة الروم (للدولة البيزنطية) خلق في الواقع فرقة ثالثة جديدة .

(2) Enc. Britannica, under «Sophronius».

(٥٦٠ - ٦٣٨ م) بَطْرِيَرْكُ القدس ان يسلّمَ مدينةَ القدسِ ، سَنَةَ ١٦ هـ (٦٣٧ م) - قبلَ أنْ يموتَ بعامٍ واحدٍ - إلى الخليفةِ عُمَرَ بنِ الخطّاب على أنْ يُحاوِلَ دفاعاً غيرَ مفيدٍ عن القدس انتصاراً للروم الذين كانوا يضطهدونه ورعيّتَهُ دينيّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً . وبعدَ أن تسلّمَ عُمَرُ بنُ الخطّاب المدينةَ طافَ البطريركُ صفرونيوسُ نفسُه معَ الخليفة في أرجاء القُدس يدُلّه على الآثارِ الدينية فيها[١] .

وإذا نحن تَرَكْنا هذا العاملَ السلبيَّ ثمّ جِئْنا إلى العواملِ الإيجابية المتعلّقة بموضوعنا مُباشرةً وَجَدْنا أنّ المسيحيّين الذين يعيشون في أيامنا ليسوا النصارى الذين عَناهُمُ الله تعالى في القرآن الكريم بقوله ﴿ **أهلُ الكتاب** ﴾ . لقد كان النصارى في صَدْرِ العصر الإسلاميِّ فريقينِ : فريقاً يدخُلُ في حُكْمِ الآيةِ الكريمة الواردة في سورة المائدة (٥ : ٧٣) : ﴿ **لقد كفَرَ الذين قالوا إنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ . وما مِنْ إلَهٍ إلاّ إلَهٌ واحدٌ** ﴾ ، ثمّ فريقاً آخَرَ لا يدخُلُ أفرادُه في حُكم هذه الآية . و﴿ **أهلُ الكتابِ** ﴾ كانوا من الفريق الثاني . وهذا التفريقُ واضحٌ جدّاً في قول الصحابيِّ الجليل تَرجُمانِ القرآنِ عبدِاللَّهِ بنِ عبّاسٍ (ت ٦٨ هـ = ٦٨٧ م) ، فقد قال[٢] : « مِنْ نِساءِ أهلِ الكِتاب من يَحِلّ لنا ، ومِنْهُنَّ مَنْ لا يَحِلّ لنا » .

موقف الفقهاء من الزَّواج بالكتابيّات :

للفقهاء في معنَى أهلِ الكتاب وفي الزَّواج بالكتابيّات آراءٌ تختلف بين التحليل المُطْلَقِ والتحريم الباتّ . حتّى القائلون بالتحليل المُطلق لم يكُنْ تحليلُهم مُطلقاً بالمعنى اللُّغويِّ للكلمة ، بل كان فيه احتياطٌ (قيود) .

(أ) القائلون بالتحليل المطلق :

---

(١) History of the Arabs, by Hitti (4 th. ed.), 154.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٣ : ٣٧٣ .

كان سعيدُ بنُ المسيَّبِ[1] والحسنُ من الذين يتسمحون بزواج أهل الكتاب إطلاقاً أخذاً بظاهر الآية في موضع الشاهد فقط : ﴿ **اليومَ أُحِلَّ لكم . . . المُحصَنات من أهلِ الكتاب** ﴾ ، وربّما سكت نفرٌ منهم عمّا وراء ذلك . ثمّ احتاط نفرٌ آخرون (أي أجازوا الزّواج بالكتابيّات مع عددٍ من القيود الفِقهية أو الشروط الاجتماعية) .

في هذا الباب نَجِدُ القولَ التالي في تفسير القُرطُبيّ[2] :

« وأمّا نِكاح أهلِ الكتاب ، إذا كانوا حَرْباً[3] ، فلا يَحِلّ . وسُئِل عبدُالله بن عبّاسٍ عن ذلك فقال : لا يَحِلّ . وأعْجَبَ ذلك إبراهيمَ النَّخعيَّ[4] . وكَرِهَ مالكٌ[5] تزوُّجَ الحَرْبيّاتِ لعِلّةِ تركِ الولدِ في دار الحرب ولتصرُّفِ (الزوجةِ الكِتابية) في الخمر والخِنزير » .

ومالَ الطَّبَريُّ[6] إلى السَّماح المُطلقِ إذا أَمِنَ الزوجُ على إسلام أولادِه ، فقال : « فنِكاحُ حرائرِ المُسلمين وأهلِ الكتاب حَلالٌ للمؤمنين ، كنّ (أي حرائرُ المسلمين) قد أتينَ بفاحشةٍ (أي سبق لهنّ أن زَنَيْنَ) أو لم يأتين

---

(1) سعيد بن المسيَّب (بتشديد الياء المكسورة) أحد فقهاء المدينة (ت ٨٤ هـ) جمع بين رواية الحديث والاجتهاد في الفقه مع الزهد والورع . والحسن هو الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) من ذوي المكانة في الدين والورع وفي العلم والتفكير . إليه يرقى البحث الأوّل في علم الكلام (التفكير في القضايا الإيمانية) .

(2) الجامع الكبير لأحكام القرآن ، القاهرة (دار الكاتب العربي للطباعة والنشر) ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م ، ٣ : ٩ . ـ أبو عبدالله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٣٨٠ هـ) محدّث ومفسّر وقاض .

(3) إذا كانوا حربا : إذا كان بينهم وبين المسلمين حرب أو عداوة .

(4) لعلّه إبراهيم بن يزيد النّخعي (ت ٩٦ هـ) كان من التابعين ومن رواة الحديث وحفّاظه ، كما كان من فقهاء العراق المجتهدين .

(5) الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) أمام دار الهجرة (المدينة) وأحد الأئمّة الأربعة صاحب المذهب المالكي المنتشر في الحجاز وفي الشمال الافريقي . له كتاب « الموطّأ » المشهور .

(6) محمّد بن جرير الطبريّ (ت ٣١٠ هـ) مؤرّخ ومفسّر وفقيه مجتهد كان له مذهب ، ثم باد (نسي الناس العمل به) . له تاريخ الرسل والملوك (أو الأمم والملوك) ، وله جامع البيان عن تأويل آي القرآن . وفي تفسيره خاصّة وتاريخه ما يدلّ على إحاطته بعلوم كثيرة مع البراعة .

بفاحشةٍ ، ذِميّةً[١] كانتِ (الزوجة الكتابية) أو حربيةً ، بعدَ أن تكونَ (الزوجة) بموضعٍ لا يَخاف الناكحُ (الزوج) على ولَدِهِ أن يُجْبَرَ (فيه) على الكفر » .

ويرى آبْنُ حزمٍ [٢] أنَّ زَواجَ العفائفِ من الكتابيّات جائزٌ جُملةً لم يخُصَّ حرّةً من أمَةٍ[٣] ، بظاهرِ نصِّ الآية : ﴿ **اليومَ أُحِلَّ لكم . . . المُحصَناتُ من الذين أُوتوا الكتاب من قَبْلِكم إذا آتَيْتُموهنَّ أُجورَهنّ** ﴾ . . . فوَجَبَ آستثناءُ إباحةِ المُحصناتِ من أهلِ الكتاب بالزوّاج من جُملة تحريمِ المُشركات . . . لا يجوزُ غيرُ ذلك[٤] .

والفقهاءُ المُعاصرون لنا من أهل السُّنَّة والجماعة ونفرٌ كثيرون من فقهاء الشيعة الإمامية مُجمعون على إباحة الزَّواج بالكِتابية بلا قيودٍ . يستعرضُ رشيدُ رِضا[٥] أقوالَ الفقهاء القُدماءِ بإيجازٍ ثمّ يقول : ﴿ . . . **والمُحصَنات من الذين أُوتوا الكتابَ من قَبْلِكُمْ** ﴾ مَعناهُ أنّه حِلٌّ لكم (للمؤمنين الزَّواجُ بالكتابيّات) مُطْلقاً [٦] . ومثلَ ذلك يرى مُحمّدُ حسين الطباطبائيّ [٧] ، فهو يَرُدُّ على المتقدّمين من فُقهاءِ الشيعة الذين قالوا إنّ الآية : ﴿ **اليومَ أُحِلَ لكُمُ . . . المُحصناتُ من الذين أُوتوا الكتابَ من قَبْلِكم** ﴾ منسوخةٌ بالآيتين الكريمتين : ﴿ **ولا تَنْكِحوا المُشركات حتّى يُؤمِنَّ** [٨] . . . - **ولا تُمْسِكوا بِعِصَمِ**

---

(١) الذمّيّ (مؤنّثه ذمّية) الشخص الذي يعيش في الدولة الإسلامية على الطاعة فعاهدته الدولة الإسلامية على الأمن على حياته وماله ودينه وحقوقه (فهو في « ذمة » الدولة الإسلامية) .

(٢) عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهريّ (ت ٤٥٦ هـ) عالم الأندلس في عصره في الفقه والأدب له المذهب الظاهري الذي يوجب الأخذ بظاهر النصّ في القرآن والحديث ما لم يمنع من ذلك مانع من اللغة أو البلاغة . ومذهبه الآن بائد (العمل به متروك) .

(٣) الأمة : الفتاة المملوكة بالرقّ (بملك اليمين : بالشراء أو بالحرب) .

(٤) المحلّى لابن حزم (بتصحيح محمّد خليل هراس) ، مصر (مطبعة الإمام) ٩ : ٥٤٣ - ٥٤٤ .

(٥) محمّد رشيد رضا (ت ١٣٥٤ هـ) ولد في القلمون (قرب طرابلس - لبنان) . رحل إلى مصر (١٣١٥ هـ) واتّصل بالشيخ محمّد عبده (ت ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م) وأصدر مجلّة « المنار » لبثّ آراء محمّد عبده في الاصلاح الاجتماعيّ . ويعدّ رشيد رضا من كبار الفقهاء المصلحين .

(٦) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمّد رشيد رضا ، مصر (مطبعة المنار) ١٣٣٠ هـ ق . (هجري قمري : للهجرة) و١٢٩١ هـ ش ، ٦ : ١٨٠ .

(٧) محمّد حسين الطباطبائي فقيه إمامي (من الشيعة الإمامية) معاصر لنا ويعيش في أيّامنا . ؟

(٨) القرآن الكريم ، سورة البقرة (٢ : ٢٢١) .

الكوافر[١] . . . ﴾ لأنها نزلت بعدهما [٢] ، وهو في قوله هذا (في تأخر الآية الأولى في النزول عن الآيتين التاليتين) على حق . ثم يورد رأيه هو فيقول (الميزان في تفسير القرآن ٥ : ٢٠٦) : « وبعد ذلك كله إنما تصرح الآية بتشريع حل المحصنات من أهل الكتاب للمؤمنين من غير تقييد بدوام أو انقطاع »[٣] .

ويأتي ردّ محمّد الطاهر بن عاشور[٤] أوضح وأعنف، فقد قال[٥] : « إنّ هذه الآية « أليوم أحل لكم . . المحصنات من أهل الكتاب » جاءت لإباحة التزوّج بالكتابيّات . . . . وشمل (قوله تعالى) ﴿**أهل الكتاب الذمّيين والمعاهدين وأهل الحرب**﴾ ، وهو ظاهر . إلا أنّ مالك (بن أنس) كره النساء الحربيّات . وعن ابن عبّاس (ورد) تخصيص الآية بغير نساء أهل الحرب ، فمنع (ابن عبّاس بذلك) نكاح الحربيات . ولم يذكر دليله » .

(ب) القائلون بالتحريم :

في المفسّرين نفر اكتفوا ، عند الكلام في الآية المذكورة : ﴿**اليوم أحل لكم . . . . المحصنات من أهل الكتاب**﴾ بأن عرضوا الأقوال المختلفة بإيجاز كثير أو قليل من غير أن يميلوا إلى قول بعينه . من هؤلاء الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ) في « معالم التنزيل » (٣ : ٨٠) والزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) في « الكشّاف »[٦] والخازن (ت ٦٧٨ هـ) في « لباب التأويل في معاني

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الممتحنة (٦٠ : ١٠) .
(٢) الميزان في تفسير القرآن ، تأليف محمّد حسين الطباطبائي ، بيروت (مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات) ١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠ م ، ٥ : ٢٠٥ .
(٣) الميزان في تفسير القرآن ٢٠٦ .
(٤) محمّد الطاهر بن عاشور .عالم تونسي (ت ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م) .
(٥) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمّد الطاهر بن عاشور ، تونس (الدار التونسية للنشر) ١٩٧١ م ، ٦ : ١٢٣ - ١٢٤ .
(٦) راجع تفسير الآية الخامسة من السورة الخامسة (المائدة) .

« التنزيل »[1] والبيضاويّ (ت ٦٨٥هـ) في « أنوار التنزيل وأسرار التأويل »[2] وآبنُ كَثيرٍ (ت ٧٧٤هـ) في « تفسير القرآن » (٣ : ٨٠) .

ثمّ كان هنالك نفرٌ ترجّحوا بينَ ٱلِاحتياطِ الشديدِ والتحريم . ومُعْظَم هؤلاء يَرْوُونَ رأيَ عبدِاللّهِ بنِ عُمَرَ (ت ٧٣ هـ) أحدِ كِبارِ الصحابةِ وآبنِ الخليفةِ الثاني عمرَ بن الخطاب ، وهو يرى تحريمَ نِكاحِ نساءِ أهل الكتاب جُملةً . وسُئِلَ عن نِكاح اليهوديّة والنصرانية فقال : « إنّ الله تعالى حَرَّم المُشركات على المؤمنين ، ولا أعلَمُ من الإشراك شيئاً أكثرَ من أنْ تَقول المرأة ربُّها عيسى . . . »[3] .

وفي « تفسير التبيان »[4] لأبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) : « وعِندَنا (عِند الشيعة الإماميّة) لا يجوزُ العَقْد على الكِتابية نِكاحَ الدوام[5] لقوله تعالى : ﴿**ولا تَنْكِحوا المُشركاتِ حتّى يُؤمِنّ**[6] **ـ ولا تُمسِكوا بعِصَم الكوافر**[7]﴾ . ثم يقولُ : ﴿**إنّ المُحصَناتِ من المؤمنات هنّ اللواتي وُلِدْنَ على الإسلام . وأمّا المُحصَناتُ من أهل الكتاب فهنّ اللواتي كنّ من أهلِ الكتاب ثمّ أسْلَمْنَ**﴾ والسببُ في نُزول هذه الآيةِ (عند الطوسي) أن قوماً من آلصَّحابة كانوا يتحرّجون[8] من العَقْدِ على الكافرة (مِنْ تزوُّج الكافرة) إذا أسْلَمَتْ ، فبيّن اللهُ بذلك (بتلك الآية) أنه لا حَرَجَ (لا إثْمَ ، لا ذنبَ) في ذلك : فلذلك أفردَهن بالذِكر . حكى ذلك البَلْخيّ[9] :

---

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل لعليّ بن محمّد البغداديّ المعروف بالخازن ، مصر (المطبعة العامرة الشرفية) ١٣٢٨هـ ، ١ : ٤٢٣ ـ ٤٢٤ .

(٢) راجع تفسير الآية الخامسة من السورة الخامسة (المائدة) .

(٣) راجع المحلّي لابن حزم ٩ : ٥٤٢ ؛ مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٣: ٣٧٣ .

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن لأبي عليّ الفضل بن الحسن الطبرسي ، بيروت (دار مكتبة الحياة) ١٣٨٠هـ = ١٩٦١م .

(٥) مجمع البيان للطوسي ٤: ٣٢ـ ٣٣ .

(٦) القرآن الكريم ؛ سورة البقرة (٢ : ٢٢١) .

(٧) القرآن الكريم ، سورة الممتحنة (٦٠ : ١٠) .

(٨) تفسير التبيان !! للطوسي ، ٣٠ ٤٤٦؛ راجع مجمع البيان للطبرسي ٤: ٣٢ـ ٣٣ ؛ مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٣: ٣٧٣ .

(٩) لعلّه أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي البلخي الخراساني أحد أئمّة المعتزلة (ت ٣١٩هـ) له كتاب في التفسير . وهو من الشيعة الاماميّة .

وذكر أبو عليّ الفضلُ بنُ الحسن الطبرسيّ (ت ٥٤٨هـ) في « مجمع البيان في تفسير القرآن » شيئاً قريباً من ذلك جدّا (كأنّه منقول عن الطوسيّ نقلاً ، قال[١] :

قال أصحابُنا (من فقهاءِ الشيعة الإمامية) : لا يجوز عَقْدُ نكاح الدوام[٢] على الكِتابية لقوله تعالى : ﴿ولا تَنْكِحوا المُشركات حتّى يُؤْمِنَّ﴾[٣] ، ولقوله تعالى : ﴿ولا تُمْسِكوا بِعِصَمِ الكوافر﴾[٤] . . . بأنّ المُراد « بالمُحصَنات من الذين أُوتوا الكتاب اللاتي أَسْلَمْنَ منهنّ ؛ والمُراد « بالمُحصَنات من المُؤمنات اللاتي كُنّ في الأصل مُؤمنات بأنْ وُلِدْنَ على الإسلام . و(سبب) ذلك أن قوماً كانوا يتحرّجون[٥] من العَقْد على مَنْ أسلَمَتْ على كُفْرٍ[٦] ، فبَيَّنَ سبحانَه أنّه لا حَرَجَ في ذلك ، فلهذا أفْرَدَهُنّ بالذِكْر . حكى ذلك أبو القاسم البَلْخي . . . .

وقد جاء الفخرُ الرازيُّ (ت ٦٠٦هـ) بآستعراضٍ مُفصّلٍ ثمّ أدْلى في خِلال ذلك بآرائه . وسأُوردُ ما ذكَرَه الفخرُ الرازيُّ برُغمِ أنّ بعضَه سيكونُ مكروراً . قال الفخرُ الرازيُّ[٧] :

ذهب أكثرُ الفقهاءِ إلى أنّه يَحِلُّ التزوُّجُ بالذِمّيّة من اليهود والنصارى ،

---

(١) مجمع البيان للطبرسي (بيروت) ٤: ٣٢ - ٣٣ .

(٢) نكاح الدوام في مقابل النكاح المؤقّت (المتعة) . والمتعة أن يتزوّج الرجل امرأة ثيّباً (مطلّقة أو أرملة) بعقد لفظيّ صريح وإلى أجل (مدّة معيّنة متّفق عليها في العقد نفسه قبل الدخول)قبل أن يبدأ الزوجان حياتهما . وفي هذا الموضوع آراء مختلفة لنفر من فقهاء الشيعة الإماميّة (راجع فصلا قيّما في ذلك في كتاب « فقه الامام جعفر الصادق » للشيخ محمّد جواد مغنية ، ٥ : ٢٤٦ - ٢٥٦) .

(٣ و٤) راجع ، فوق، ص ١٧٩ و١٨٦ - ١٨٨ .

(٥) تحرّج : تجنّب عمل شيء خوفا من أن يكون في ذلك الشيء ذنباً .

(٦) من كانت كافرة ثمّ أسلمت (ويذهب نفر من فقهاء المسلمين على رأسهم عبد الله بن عمر بن الخطّاب إلى أنّه لا فرق بين الكافرة وبين المرأة من أهل الكتاب إذا كانت المرأة من أهل الكتاب تشرك بالله ، أي تعتقد (كالنصرانية مثلا) أن الله ثلاثة أو أن عيسى بن مريم آله .

(٧) مفاتيح الغيب ٣: ٣٧٣ .

وتمسّكوا بهذه الآية[1] . وكان عبدُ الله بنُ عُمَرَ لا يرى ذلك ، ويحتجُّ بقوله تعالى ﴿ولا تَنْكِحوا المشركات حتّى يُؤمنّ﴾ . ثمّ يقول : لا أعلَمُ شِرْكاً أعظمَ من قولِ (المسيحيّة) إنّ رَبَّها عيسى . . .

ويتابع الفخرُ الرازيّ قولَه فيقول :

وفي هذه الآية وجوهٌ :

يرى بعضُهم في هذه الآية : ﴿ **والمُحصَناتُ من الذين أُوتوا الكتاب من قَبْلِكُم** ﴾ أنّ المُرادَ أنّ الكتابية إذا أسْلَمَتْ هل يجوزُ التزوُّجُ بها أو لا يجوزُ .

ويرى الفخرُ الرازيُّ أنّ نصَّ هذه الآية يُجيزُ للمُسلم أنْ يتزوّجَ اليهوديةَ أوِ النصرانيةَ إذا أسْلَمَتْ .

ثم يقول الفخرُ الرازيُّ :

ورُوِيَ عن عطاءٍ[2] : إنّما رُخِّصَ بالتزوُّجِ بالكِتابية في ذلك الوقت لأنّه كان في المُسلمات قِلّةٌ ، وأمّا الآن ففيهنّ الكَثْرة العظيمة . فزالت الحاجة فلا جَرَمَ [3] زالتِ الرُّخصة .

ثمّ يعلّق الفخرُ الرازيُّ على ذلك فيقول :

قال الله : ﴿**لا تَتّخذوا عَدُوّي وعَدُوَّكم أولياءَ**﴾ [4]، وقال : ﴿**لا تتّخذوا بطانةً من دُونِكم**﴾[5]، إذ عند حُصولِ الزوجيّة ربّما قَوِيَتِ المحبّةُ ويصيرُ ذلك سبباً لَمَيْلِ الزوجِ إلى دِينِها ؛ وعندَ حدوث الولد فربّما مال الولدُ (أيضاً) إلى دينِها . وكُلُّ ذلك إلقاءٌ للنفْسِ في الضررِ من غيرِ حاجةٍ .

---

(١) « اليوم أحلّ لكم » . . . (المائدة ، ٥ : ٥) .

(٢) أبو محمّد عطاء بن أبي رباح (ت١١٤ هـ) من أجلّاء التابعين والفقهاء والزهّاد ، كان مفتي أهل مكّة في أيامه .

(٣) لا جرم : لا بدّ . الرخصة : السماح بشيء شذوذا على القاعدة (إذا أجاز الشرع أمراً غير جائز في العادة لسبب طارىء - كتحليل أكل الميتة ولحم الخنزير في المجاعة وعند فقد الطعام الحلال حتى يخاف المسلم على نفسه الهلاك - فإنّ هذا السماح يبطل إذا أصبح الطعام الحلال موجودا) .

(٤) سورة الممتحنة (٦٠ : ١) .

(٥) سورة آل عمران (٣ : ١١٨) .

ويمضي الفخرُ الرازيُّ في التعليق فيقول :

قوله تعالى في الآية : **﴿ومن يكفُرْ بالإيمان فقد حَبِطَ عَمَلُهُ ، وهو في الآخِرَة من الخاسرين﴾**(١) ، هذا من أعظم المُنفِّراتِ عن التزوُّجِ بالكافرة . فلو كان المرادُ بقولِهِ ﴿ **والمُحصَناتُ من الذين أُوتوا الكتاب من قَبْلِكُم** ﴾ إباحةَ التزوّجِ بالكِتابية لكان ذِكْرَ هذه الآية عقيبَها من التناقض ، وهو غير جائز(٢)

وتنتهي مناقشةُ الفخرِ الرازيِّ بالتعليق التالي :

قال الكثيرُ من الفقهاء إنّما يَحِلُّ نِكاحُ الكتابية التي دانتْ بالتوراة والإنجيل قبلَ نُزولِ القرآن . . . فقوله تعالى : **﴿والمُحصَنات من الذين أُوتوا الكتاب من قَبْلِكُم﴾** يَدُلّ على أنّ مَنْ دانّ بالكتاب (بالتوراة أو الانجيل) بعد نزول الفُرقان (القرآن) خَرَجَ عن حُكم الآية :

وأوردَ جلالُ الدين السُّيوطيّ (ت ٩١١هـ) في « الدُّرّ المنثور في التفسير بالمأثور » قولاً لم أهتدِ إلى مَظنّه . قال(٣) :

« وأخرجَ ابنُ جريرٍ عن ابنِ عبّاس أنّه قال : نَهى رسوُل الله عن أصنافِ النساء إلّا ما كان من المُسلمات المُهاجرات ؛ وحرّمَ كلَّ ذاتِ دينٍ غيرِ الإسلام » .

وفي المذهب الإباضي(٤) مَيْلٌ إلى التشدّد . وفي مذهب التوحيد

---

(١) هذه تتمّة الآية الكريمة (سورة المائدة) ٥:٥ .

(٢) يقصد الرازي : أنّ هذا الجزء من الآية (٥ : ٥) يدلّ على أنّ كلّ من خالف الاسلام كافر . وبما أنّ الكتابية لم تدخل الاسلام فهي من الذين يكفرون بالايمان (بالاسلام) : بوحدانية الله وبرسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم .

(٣) الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ٢ : ٢٦١ .

(٤) عبد الله بن إباض التميمي (ب ٨٦هـ) كان من التابعين ينسبه قوم إلى رأي الخوارج ، وأتباعه لا يرضون بذلك . وفي « الكامل » للمبرّد (٢ : ١٧٩ ، ١٨٠) أنّ قول عبد الله بن إباض أقرب الأقوال إلى قول أهل السنّة . وإذا نحن رجعنا إلى كتاب « الفرق بين الفرق » لعبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٩ هـ) رأيناه يعدّهم (القاهرة ـ مكتب نشر الثقافة الاسلامية ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨ م)، ص ١٩ ـ ٢٠ ، ٦١ ـ ٦٢) من الخوارج . ويبدو ممّا ذكره عبد القاهر البغداديّ أن الاباضيّة معتدلون جدًا بالإضافة :

(المذهب الدُّرزيّ)[1] تحريمٌ مُطلقٌ باتّ لا هوادةَ فيه .

فقال عبدُ العزيز الثميني[2] في كتابه « النِيل وشفاءُ العليل »[3] : « وحَلَّ نِكاحُ حُرّةٍ كتابيةٍ مُعاهِدة » ولكن مُصحّحَ الكتاب والمعلّق عليه بكلّي عبد الرحمن بن عمر[4] يميل إلى أنّ الكتابيةَ التي يجوزُ لمسلمٍ أن يتزوّجها هي الكتابيةُ التي دانتْ بالتوراة أو الانجيل قبلَ نزولِ القرآن . ثمّ يقول بكلّي عبد الرحمن بن عمر : « وهو (الزَّواج بكتابية دانَ قومُها بالتوراة أوِ الانجيل قبلَ نزول القرآن) ما ذهب إليه ابنُ حزمٍ في المُحَلّى »[5] ؛ وهو ما يظهَرُ من كلام الشيخ دحلانَ في « الفُتوحات الإسلامية » [6] .

وأمّا المذهبُ الدُّرزيُّ فقد بالغ في التشدّد ، فلا يجوزُ لدُرزيَ أنْ يتزوّجَ كِتابيةً أبداً . يقول الدُّروزُ : بابُ الدعوة إلى المذهب قد أُغلِقَ بآختفاء الحاكم بأمرِ الله الفاطمي (باحتجابه ، بموته) ، سَنَةَ ٤١١ للهجرة . فمن لم يقبلِ الدعوةَ قبلَ ذلك لا يمكنُ أنْ يدخُلَ فيها . من أجل ذلك كان الدُّرزيُّ اليومَ هو

= إلى الخوارج . غير أنّهم كثيرو التشدّد في مسائل الاعتقاد وفي الأحكام وقضايا الأخلاق . وعرفت نفرا منهم في تونس والجزائر فرأيت في من رأيتهم استقامة وورعا بالغين . ويكثر الاباضيّة اليوم في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة العرب (في عمان بضمّ بالعين وإهمال الميم) وفي تونس والجزائر .

(١) المذهب الدرزي (مذهب التوحيد) فرع من فروع المذهب الإسماعيلي (الشيعة السبعية أو الاسماعيلية) يقولون بأن الدخول في المذهب كان ممكنا إلى يوم إحتجاب الحاكم بأمر الله الفاطميّ (سنة ٤١١هـ) . والمذهب الدرزي مذهب باطنيّ ، وهو في ظاهره « فرع من فروع الدوحة المحمّدية » . ولكن نفراً من غلاة الدروز في أيامنا يقولون إن الدرزية دين قائم بنفسه .

(٢) ضياء الدين عبد العزيز بن إبراهيم الثميني (ت ١٢٢٣هـ) فقيه اباضي من بني يزقن في وادي ميزاب (الجزائر) من العلماء والصالحين ، كان كثير التأليف في الفقه خاصّة وفي الأصول .

(٣) بين يديّ الجزءان الثاني والثالث من كتاب « النيل وشفاء العليل » (ولم استطع الحصول على الجزء الأوّل حينما كنت فى الجزائر في صيف ١٩٧٢) ، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م (الجزء الثاني ٣٢٢) .

(٤) بكلّي عبد الرحمن بن عمر .

(٥) كذا في تعليق بكلّي عبد الرحمن بن عمر . والظاهر من قول ابن حزم في المحلّي أنّه لا يقيّد التزوّج بالكتابية بشيء .

(٦) أحمد بن زيني دحلان (ت ١٣٠٤ هـ) فقيه ومؤرّخ مكّي ، ألّف عدداً من الكتب أشهرها « الفتوحات الإسلامية » . وله الفتح المبين في فضائل الخلفاء الراشدين وأهل البيت الطاهرين - رسالة في الردّ على الوهّابية .

الشخص المولودُ من أبوين يَرْجِعان بنسبهما إلى أُسرة قَبِلتِ المذهبَ قبلَ إغلاق باب الدعوة .

وتعليلُ ذلك عند الدُروزِ أن المذهَبَ الدرزي قائِمٌ في بعض جوانبه على « التقمّص » (على القول بأنّ النفس تنتقلُ من دُرزيّ تُوُفِّيَ في وقتٍ ما في مكانٍ ما إلى طفلٍ يولَد في ذلك الوقت نفسِه في مكانٍ ما)[١] . فالدُروزُ ـ إذَنْ ، في رأي المذهب ـ لا يزيدونَ في العددِ ولا ينقُصون أبَداً . إنّ هذا التشدّدَ القائمَ على هذه النظريّة (نظرية التقمّص) يقضي بأنّ الزّواجَ لا يكون إلاّ بينَ الدروز أنفُسِهم .

غير أنّ قانونَ الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية (في لبنان)[٢] لم يتعرّضْ في باب موانعِ الزّواج (الفصل الثاني : في من هو ممنوعٌ زَواجُه ـ الموادّ ٩ ـ ١٢) للزّواجِ بغيرِ الدُّرزيّات . ومعنى هذا السكوت (إذا نحن فهمنا فلسفة التقمّص) أن الزَّواجَ بين الدروزَ وغير الدروز غيرُ جائزٍ قطعاً . ثمّ إذا نحن أتينا إلى عمل المحاكم وجدناها أيضاً لا تُزوّجُ شخصاً دُرزيّاً بشخص غيرِ درزيّ وتحتجُّ لذلك « بعَدَمِ الصلاحيّة » . فإذا أرادَ دُرزيٌّ أنْ يتزوّجَ غيرَ درزيّة عَمَدَ إلى الحيلة بأنّ يعتنقَ مذهَب التي يريدُ أن يتزوّجها أو دينَ التي يتزوّجها ثم

---

(١) نظريّة الدروز في التقمّص (انتقال النفس من إنسان مات حديثاً إلى إنسان ولد حديثاً) تقوم على نظريّة فلسفية قديمة تقول إنّ النفس تنتقل (إذا أساءت) إلى كائن أدنى مكانة (من إنسان إلى حيوان : أسد ، فرس ، كلب ، سمكة ، الخ) أو تنتقل إلى كائن أرفع مكانة (من حيوان إلى إنسان) . والديانة الهندوكية قائمة على التناسخ . وكان أفلاطون (ت ٣٤٧ ق . م .) وفيثاغورس (ت نحو ٥٠٣ ق . م .) يؤمنان بالتناسخ . وتقوم فلسفة التناسخ على افتراضين : (أ) مجازاة كلّ نفس في دور تال على ما فعلته في دور سابق . فالتناسخ في الجسد الأدنى (عند الهنود) تعذيب للنفس ، أي عقاب لها ، والتناسخ في جسد أعلى ثواب لها . ثمّ (ب) إتاحة الفرصة للعاقل الذي أساء في دور من أدوار حياته أن يستدرك ما فاته في دور تال . ويرى الهنود أن النفس ما دامتْ في التناسخ فهي في عذاب لأنّها ناقصة التهذيب ، فإذا تمّ تهذيبها بطل تناسخها (رجوعها إلى الحياة) ودخلت في النرفانا (الهدوء ، العدم) .

(٢) راجع مشيخة العقل والقضاء المذهبي الدرزي عبر التاريخ (ويحتوي على مجموعة قوانين الأحوال الشخصية وتنظيم القضاء المذهبي) المعمول به حالياً ، للقاضي أمين طليع (رئيس غرفة في محكمة التمييز اللبنانية) ، بيروت (المطبعة الأنطونية) ١٩٧١ م .

عقد زواجه في محكمةِ ذلك المذهبِ أو ذلك الدين . وبعدَ تمامِ مُعاملاتِ الزَّواجِ يعود إلى المحكمة الدُّرزيّة للرُّجوعِ إلى مذهبِهِ الدرزيّ . وهذا من الناحية العملية الواقعة ممكنٌ (في الاحتيال على القوانين الوضعية : المدنية) .

ويبدو أن « قانون الأحوال الشخصية للطائفة الدرزيّة » سكت في موانع الزَّواجِ عن اختلاف الدين ليترك المجال مفتوحاً أمامَ الزَّواج المختلط ، فلقد نصَّتِ المادّةُ المِائةُ والواحدةُ والخمسون على ما يلي : « اختلاف الدين والمِلّة لا يمنعُ صِحّةِ الوصيّة » ، بعدَ أن نصّ (في المادّة المِائَة والثامنة والأربعين) على أنّ « الوصيةَ تَصِحّ بكلِّ التَرِكة أو ببَعْضِها لوارثٍ أو لغيرِ وارثٍ » .

من هذا نرى أن « القانونَ الرسميّ » قد أقرَّ الزَّواجَ المُخْتَلِطَ ضِمْناً . ولكنّ هذا الإقرارَ لا يمنع تخلخُلَ الأُسرة ، وهو الشيء المقصودُ من وضْعِ هذا البحث .

* * *

وفي موضوع الزَّواجِ بالأجنبيّات أمرٌ مُهِمٌّ هو الصِلات ٱلاِجتماعيّة قبلَ الزَّواجِ ومدى تلك الصِلات بين الشخصين طَالِبَي الزَّواجِ أو بين أحدِهما وأقاربِ الآخر . هذه الصِلاتُ ٱلاِجتماعية ، من التعارف وٱلاِستلطاف التي تُؤدّي إلى شيء من الحريّة في الصِلات الشخصية . وهنا أيضاً نَجِدُ أن أهلَ السنّة والجماعة أكثرُ المسلمين تساهلاً . أمّا الذين لا يقبَلون شيئاً من التساهل في ذلك من المسلمين فالإباضيّة .

هنا قضيّتان أساسيّتان :

أولاً - هل يجوزُ لِمَنِ ٱتّصل بامرأةٍ أن يتزوّجها هو ؟

ثانياً - إذا اتّصل رجُلٍ بامرأة ، فمَنِ اللواتي يَحْرُمْنَ عليه من أقارِبها ؟

وفي الحالين : ما حُكْمِ أقاربِ الرجلِ والمرأةِ من التحليلِ والتحريم فيما يتعلّق بالزَّواج ؟

يبدو أنّ فقهاءِ أهلِ السنّة مجمعون على أنّ الرجلَ إذا اتّصلَ بامرأةٍ ثمّ أرادَ أنْ يتزوّجَها فإنّ ذلك يَحِلُّ له .

وكذلك يبدو أنّهم مُجمعون على أنّ الاتّصال غيرَ الشرعي يُحْدِثُ الآثارَ التي يُحْدِثها الاتّصالُ الشرعي (الزَّواج) . إذاً اتّصل الرجُل بامرأةٍ اتّصالاً غيرَ شرعي نَزَلَتْ (من الناحية العملية) منزِلَةَ زوجتِهِ ، فلذلك تحرُمُ عليه قريباتُها اللواتي يَحْرُمْنَ عليه بالزَّواج الشرعي (أُمُّها وبنتُها وجَدّتها وحَفيدتُها) . ويبدو أيضاً أنّهم مُجمعون على أنّ مَنِ اتّصل بامرأةٍ اتّصالاً غيرَ شرعيٍّ فإنّه يجوزُ لابنهِ أنْ يتزوّجَ أمَّها أوِ ٱبنتَهَا (ولا يجوز طبعاً أن يتزوّجها هي ، لقوله تعالى : ﴿ **ولا تَنْكحوا ما نَكَحَ آباؤكم** ﴾[1] .

ووسّع أبو حنيفةَ معنى الاتّصال فقال (خالد ونجا ٤٩) : « من زنا بامرأةٍ أو لَمَسَها أو قَبّلها أو نَظَر إلى العضو المخصوص منها بشَهْوة ترتّبتْ على فعلهِ حُرمةُ المُصاهرة » .

أمّا فقهاءُ الشيعة فيتشدّدون في النظر إلى الاتّصال غيرِ الشرعي قبلَ العَقْد (قبل أن يكون الرجل والمرأةِ زَوْجَينِ شرعيّين) ويتساهلون في ما يقع من الاتّصالِ غيرِ الشرعي بعدَ العَقْد (إذا وقعَ بينَ الزوجِ وأمِّها مثلاً أو بنتِها) .

يقول الشيخ محمّد جواد مغنيّة[2]:

« الزنا قبلَ العقدِ يُوجب تحريمَ المُصاهرة . فمن زنا بامرأةٍ فليس لأبيهِ ولا

---

(١) راجع مثلاً « أحكام الأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية وما يجري عليه العمل في المحاكم الشرعية الإسلامية اللبنانية » ، تأليف الشيخ حسن خالد قاضي الشرع في جبل لبنان (مفتي الجمهوريّة اللبنانية اليوم) وعدنان نجا دكتور في الحقوق ، بيروت (منشورات المكتب التجاريّ للطباعة والتوزيع والنشر) ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م ، ص ٤٩ ، ٥٣ ؛ الأحكام الشرعية للأحوال الشخصيّة ، تأليف زكيّ الدين شعبان أستاذ الشريعة بكلّيّة الحقوق بالجامعة الليبية (منشورات الجامعة الليبية - كلّيّة الحقوق) ، الطبعة الثانية ، بيروت (مطبعة دار الكتب) ١٩٧١ م ، ص ١٧١ - ١٧٢ . ثمّ راجع « الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية على مذهب الإمام أبي حنيفة (المعمول به في مصر) ، الطبعة الأولى ١٣٤٧ هـ (المادّة ٢٤) .

(٢) فقه الإمام جعفر الصادق ٥ : ٢٠١ - ٢٠٣ .

لابنهِ أن يَعْقِدَ عليها . (ولكن) لا أثرَ للزنا الطارىء بعدَ العَقد . فإذا زنى (رجل) بأمِّ زوجتهِ أو بنتِها ، أو زنى الأبُ بزوجةِ ابنهِ ، أوِ الابنُ بزوجةِ أبيه ، فلا تحرُمُ الزوجةِ على زوجِها الشرعي . . . »

وينتقل الشيخ محمّدُ جواد مغنيّة إلى الكلام على الرجل إذا زنى بامرأةٍ ، فهل يجوزُ له هو أن يتزوّجَها ؟[1] .

يجعَلُ فقهاءُ الشيعة هذه الحالَ وجهَيْنِ :

(أ) إذا زنى الرجل بامرأةٍ متزوّجةٍ أو مُعتدّةٍ من طلاقٍ رَجْعيّ[2] فإنّها تحرُمُ عليه حِرماناً مُؤبّداً .

(ب) وإذا زنى الرجل بامرأة خَليّةٍ (لا زوجَ لها : بكرٍ أو مطلّقةٍ أو أرملةٍ) أو مُعتدّةٍ من طلاقٍ بائن[3] فلا تحرُمُ عليه .

وأمّا الإباضيّة[4] فإنّهم أحبّوا أن يكونَ الزَّواجُ خالياً من كلّ إثْمٍ أو شُبْهَةِ إثمٍ فحرّموا الزَّواجَ بينَ كلّ آثنينِ اتّصلا آتّصالاً غيرَ شرعي مهما يكن مظهرُ هذا الاتّصال يسيراً في ظاهره ، كالقُبلة وكمراودة الرجلِ امرأةً ولو لم يقعْ بينهما فعلٌ . « وكُرِهَ لرجلٍ نِكاح ضَرّةِ أُمّهِ عند غيرِ أبيه »[5] . ولو قالَ رجل لجاريةٍ (أو لمنبوذةٍ ، أو لمَسْبيّة صغيرةٍ) : أنت محرَمٌ لي[6] - أكان كاذباً في قوله (أو مازحاً !) - حَرُمَتْ عليه[7] .

---

(١) فقه الإمام جعفرٍ الصادق ٢٠١ .

(٢) الطلاق الرّجْعي في الإسلام هو المرّة الأولى والمرّة الثانية من التطليق العاديّ ، إذ يجوز أنْ يعقد الرجل على مطلّقته من جديد .

(٣) رجل طلّق امرأته للمرّة الأولى أو للمرّة الثانية ثمّ اعتدّت امرأته وانقضت عدّتها بانت منه امرأته بينونة صغرى (يجوز له أن يتزوّجها بعقد جديد) . فإذا طلّقها للمرّة الثالثة أو إذا خالعت المرأة الرجل (آفترقت عنه بعد التراضي على مبلغ من مال أو غيره) أو إذا آفترقا بعد اللعن (بكسر اللام : آتّهام الرجل زوجته بالزنا) وقع الطلاق بائناً بينونة كبرى (باتّاً ، قطعيّاً : لا يجوز للرجل بعده أن يعقد عليها إلّا إذا تزوّجها رجل آخر زواجاً عاديّاً شرعيّاً ثمّ طلّقها من عند نفسه في حال عاديّة) .

(٤) النيل وشفاء العليل ٢ : ٣٢٤ وما بعد .

(٥) إذا تزوّج زيد سلمى وزينب ثمّ طلّق سلمى فتزوّجها خالد وجاءه منها أولاد ، فابن خالد من سلمى لا يجوز له ان يتزوّج زينب (ضرّة أمّه عند غير أبيه) ، ولكن يجوز له أن يتزوّج ضرّة إبنته !

(٦) أنت محرم لي : أنت قريبة لي قرابة يحرم بها الزواج بيننا (أختي ، بنتي ، حفيدتي ، بنت أخي الخ) .

(٧) راجع ٤ .

وعلّق بكلي عبد الرحمن بن عمر على هذا التشدّد فقال[1]:

« . . . . والذي جرى عليه أصحابُنا سلفُهم وخلفُهم أنّ مَزْنيّةَ الرجل يحرُمُ عليه نكاحُها تحريماً أبديّاً لا هوادةَ فيه سواءٌ عليهما أتابا أم لم يتوبا ، فقد مَنعا تناكُحهُما بما آستعجلاه من سِفاحِهما ، لقوله ﷺ « لا نِكاحَ بعدَ سِفاحٍ ! » والحريصُ محرومٌ[2] . . . إنّ رابطةَ الزَّواجِ رابطة مقدّسةٌ يجب أن لا يَحُومَ حولَها دَنَس أو شائبةِ آرتيابٍ ، سواءٌ أكان ذلك قبلَها أو بعدَها ، وإلّا كان ذلك تشجيعاً ضِمْنيّاً على الرذيلة وفتحاً لبابِ الذُّواقـةِ بينَ الشَّهْوانيّين . . . (وخصوصاً) ونحن اليومَ في عصرٍ آستطارَ الفسادُ في هَشِيمه وآستشرى فيه الإلحادُ وعمّتِ الإباحية وَضَعُفتِ الحَصانةُ الدينية » .

(١) [السيل] وشفاء العليل ٣٢٤ .

(٢) من حرص (رغب رغبة شديدة) على الحصول على أمر من غير وجهه او في غير وقته او قبل [أو]انه حرم عليه ذلك الأمر . فقد ورد في مجلّة الأحكام العدلية (المادّة التاسعة والتسعين ، من الموادّ [ال]كلية) : « من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه » .

لقد كان أبا ذرّ ضعيفاً جدّاً*

كنتُ قد كتبتُ كلمةً في تعريفٍ للجُزءِ الأوّل من « موسوعة المورد »[1] للأستاذ منير البعلبكيّ ، وذلك في جريدة « النهار » (٢٣ / ٢ / ٨٠ ، الصفحة ٧) . لقد أخذتُ على الأُستاذِ البعلبكيّ قولَه (آستناداً إلى قول آخَرينَ) إنّ أبا ذَرٍّ الغِفاريَّ ـ رَضِيَ اللَّهُ عنه ـ كان آشتراكيّاً[2] . وأحببتُ أن أُعرّفَ أبا ذَرٍّ تعريفاً سريعاً (من الناحية آلِاُجتماعية) فقلتُ فيه : « وكان أبو ذَرٍّ شيخاً ضعيفاً طلَبَ من الرسولِ أن يُوَلِّيَهَ عملاً أو وِلايةً[3] فقال له الرسول : « إنّك رجلٌ فيك لِينٌ لا تصلُحُ للولايات »[4] .

(*) كتبت في ٢٦ / ٢ / ٨٠ وأرسلت إلى جريدة « النهار » (بيروت) ونشرت (أحسب بعد يومين أو ثلاثة) .

(١) موسوعة المورد (دائرة معارف إنكليزية عربيّة مصوّرة) تأليف الأستاذ منير البعلبكيّ ـ وهو مؤلّف مكثر مجيد ومن أبرع ناقلي الكتب من اللغة الانكليزية إلى اللغة العربية ، في موضوعات مختلفة من الأدب والقصص والعلم والتاريخ . وموسوعته هذه تصدر أجزاء عن دار العلم للملايين .

(٢) الإشتراكية مذهب ينظر إلى الإنسان على أنّه إنسان ويسكت عن جميع خصائصه الباقية (من جنسية ودينية وقوميّة ، وله في الجهود الإنسانية وفي الأموال مواقف لا يرضاها الإسلام) . والاشتراكية (ولعلّ كلمة « شيوعية » أصحّ لغة واصطلاحا) قد نقلت السيطرة الاقتصادية من يد النفر الكثيرين (باسم نفر كثيرين) إلى نفر قليلين ، ثمّ تركت أولئك النفر الكثيرين في حال سوء . والأخبار التي ترد في هذه الأيام (ومن قبل ذلك) عن البلاد الاشتراكية ، وعن بولونيا الاشتراكية خاصّة ، دالّة دلالة واضحة : أنّ العمّال في دولة بولونيا الاشتراكية (الشيوعية) لا يرضون عن دولتهم الاشتراكية .

(٣) « العمل » في الدولة الاسلامية : هو الإشراف على جمع الضرائب .

الولاية في الدولة الإسلامية : الإشراف على شؤون الناس (كالولاية على البلدان أو على الأفراد : الوصاية على الأيتام ، مثلاً) .

(٤) اللين في الانسان هو الحاجة إلى الحزم وإمضاء الرأي في الأمور . والرجل اللّين هو الرجل الذي =

لم تَسُرَّ هذه الجُمْلة السيّدَ لُقمَانَ سليم[1] فقال (جريدة النهار ٢٦ / ٢ / ٨٠ ، الصفحة ٧ أيضاً) : « . . . فلا بدّ لي (من) أن أستوضحه (أي يستوضحني) وأسأله عن مصدر الحديث المستشهد به . فالأستاذ فرّوخ يقول بالحرف الواحد : وكان أبو ذرّ شيخاً ضعيفاً طلب من الرسول أن يولّيه عملاً أو ولاية فقال له الرسول : إنّك رجل فيك لين لا تصلح للولايات » .

ثمّ قالَ لقمانُ سليم :

« أمّا ما يزعمه الأستاذ فرّوخ من طلب أبي ذَرّ ولاية أو عملا من الرسول ـ فمن مراجعةِ كتب السِّير والتاريخ لا نجد لهذا الطلب أثراً . . . نصل أخيراً إلى الحديث الذي يستشهد به الأستاذ فرّوخ ويعتبر أنّ فيه أسباب رفض الرسول لطلب أبي ذرّ . ففي كتب الحديث التي نستند إليها (صحيح الجامع الصغير وإرواء الغليل ومشكاة المصابيح وضعيف الجامع الصغير الخ (هذا قول لقمان سليم) لا نجد أثراً لحديث كهذا . . . » .

فبالإيجازِ أقولُ :

يا صاحبي ، اَفْتَحْ « مختصرَ صحيحِ مُسْلمٍ » للحافظ المُنذريّ (الصفحةَ الثامنةَ والثمانين من الجُزء الثاني) واَقْرَأِ الحديثَ ذا الرقمِ ١٢٠٤ : « عنْ أبي ذَرٍّ ، رَضِيَ الله عنه ، قالَ (أي أنّ أبا ذَرٍّ يقولُ عن نفسِه) : قُلْتُ : يا رسولَ الله ، ألا تَسْتَعْمِلُنِي (أوْ تُوَلِّيَني عملاً لجَمْعِ المالِ أو وِلايةً للحُكْم أو للوِصاية) ؟ قال (أبو ذَرٍّ) : فَضَرَبَ (رسولُ الله) بيدِه على مَنْكِبِي ثمّ قال : « يا أبا ذَرٍّ ، إنّك ضعيفٌ . وإنّها أمانة ، وإنّها يومَ القِيامةِ خِزْيٌ وندامة ، إلاّ من أخذها بحقّها وأدّى الذي عليه فيها » .

ثمّ اَقرأْ ، يا صاحبي الحديثَ السابق (رقم ١٢٠٣) للحديث المذكور آنفاً :

= تغلب عليه العاطفة وتأثير الآخرين فيه عند ضرورة البتّ في الأمور . وتولّي الأمور (حكم البلاد والناس) يحتاج إلى قدر كبير من الحزم وقدر معتدل من الشدّة .

(١) هو ابن المحامي محسن سليم (بيروت) .

« عنْ أبي ذَرٍّ ، رَضِيَ اللّهُ عنه ، أنّ رَسولَ الله ﷺ قالَ : يا أبا ذَرٍّ ، إنّي أراكَ ضعيفاً . وإنّي أُحِبُّ لك (من الخَيْرِ) ما أُحِبُّ لنفسي . لا تَأَمَّرْنَ (بتشديدِ الميم وفتح الراء وتشديد النون المفتوحة) على آثنينِ ولا تَوَلَّيَنَّ (بفتح ففتح فلام مشدّدةٍ مفتوحةٍ فياءٍ مفتوحةٍ فنونٍ مشدّدة مفتوحة) مالَ يتيمٍ » .

* * *

إظُنُّ أنّ السيدَ لُقمانَ سليم يَعْرِفُ هذين الحديثين (وقد أخَذْتُهُما من الكتاب الذي وَقَعَ تحتَ يَدي الساعةَ) .

لقد كنتُ أنا رفيقاً جِدّاً بأبي ذَرٍّ حينما قلتُ إنّه رجُلٌ فيه لِينٌ . ولقد كانَ الأليقَ أن يكونَ السيدَ لُقمانَ سليم أكثرَ رِفقاً بأبي ذَرٍّ مِنّي لِأنّني أُحاكِمُ أبا ذَرٍّ في نِطاقِ المُجتَمع . ففي الحديثين المُسْتشهَدِ بهما هُنا أن أبا ذَرٍّ لا يصلُحُ أن يكونَ أميراً على شَخْصين ولا أن يكونَ وصياً على مالِ يتيمٍ .

غيرَ أنَ هذا لا يمنَعُ أبا ذَرٍّ من أن يكونَ رجُلاً تَقِيّاً ومن كرام الناس ومن خيارِ الصَّحابةِ أيضاً . أمّا الاشتراكيةُ فلا أرضاها أنا له ولا أفتري عليه بها . وأحسَبُ أنّ الجماعةَ يقولون إنّ أبا ذَرٍّ قالَ بتأميمِ المعاملِ وبتَوْزيعِ الأراضي على الفلاحين .

٢٦ / ٢ / ٨٠

المشاكل العارضة
في تفكير نفر من العرب في الوقت الحاضر*

أوّلُ ما يعجَبُ منه العربيُّ اليومَ أنّه إذا آلتفتَ إلى ماضيه رأى ذلك الماضِيَ زاهراً مُشرقاً مملوءاً بِآلِابتكار في كلّ ميدانٍ من ميادينِ الحياة : في الفِكر النظريّ والعِلم العلميّ ، في السياسة والحرب وفي الأدب والفنّ ، حتّى إنّ الأوروبيّين كانوا يأتون بالأمسِ إلى جامعاتنا ليتعلّموا العِلمَ والفلسفة بِلُغَتِنا نحنُ كما نذهبُ نحنُ اليومَ لنتعلّمَ كلَّ شيءٍ في جامِعاتِهم وبِلُغَتِهِمْ هم !

في تاريخ الثقافة الإنسانية ثلاثةُ علومٍ نشأتْ نشأةً عربيةً خالصةً لا يَدَ لغيرِ العرب في نَشْأتِها ؛ علمُ الكيمياء وعلمُ الجَبْر وعلم المَناظِر (البصريّات) . وهنالك أيضاً نظراتٌ فلسفيةٌ مُبْتَكَرة رائعةٌ جعل منها أسلافُنا العربُ قواعدَ باقيةً ـ وحينما أقولُ العربَ فأنا أعني المسلمين[1] على آختلافِ أوطانهم وأُصولهم . من هذه النظراتِ مثلاً نظريّةُ المعرفة التي تَرُدُّ جميعَ المعارف الإنسانية إلى الحواسِّ من قُرْبٍ أو من بُعْدٍ ، وهي النظريّة المنسوبة اليومَ إلى الفيلسوف الألماني كنط ، بينما هي لِآبنِ حزمٍ الأندلسيّ الذي جاء قبل كنطَ بثمانيةِ قرون . وآبنُ باجّه الأندلسيّ كان أوّلَ مَنْ بني التفكيرَ العقليّ وآلِاجتماعيّ على الأُسس الرياضيّة والطبيعيّة . وكذلك كان ابنُ طُفيلٍ الأندلسيّ أوّلَ من تكلّمَ كلاماً مفصّلاً على النشوء الطبيعيّ للإنسان ثمّ على النشأة الطبيعيّة في التربية ، تلك النظريّةِ التي عالجها المفكّرُ الفرنسيُّ جان جاك روسّو

---

(١) كتب هذا البحث في سادس عشر صفر من سنة ١٣٩٤ هـ (١٠ /٣ /١٩٧٤ م) ثمّ ألقي في مهرجان الدوحة (قطر) . كان هذا المهرجان في ٢٤ /٣ /١٩٧٤ م .

في كتابه « أميل ». أمّا إذا جئنا إلى علم الاجتماع فإنّنا نجدُ أنّ واضعه إنّما هو العلّامةُ عبدُ الرحمن بنُ خلدونٍ ، وضعه علماً شاملاً مستقلاً سليماً من الهوى والانحراف . ففي مقدّمة ابن خلدونٍ الشهيرةِ أساسُ النظريّة الاشتراكية القائلة إنّ ثمنَ الأشياء إنّما هو ما فيها من العمل الإنسانيّ . وكذلك نجدُ في مقدّمة ابن خلدونٍ بسْطاً وافياً للمشكلة التي نُعانيها اليومَ ونعقِد لحلّها المؤتمرات : مشكلة تضخّم السكّانِ بما في ذلك أسبابُها القريبةُ والبعيدة ونتائجُها السليمةُ والخطيرة . أمّا إذا جئنا إلى ابن سينا في الطبّ وإلى الغزالي في نظريّة الشكّ الفلسفي وإلى ابن رُشْدٍ في الجمْع بين المداركِ العقلية والمداركِ الدينيّة الاجتماعية وابنِ تيْميّةَ وتلميذِه ابنِ قيِّمِ الجوْزيّة في التشريع السياسيّ والإداريّ ، فإنّنا نرى عندهم عجائبَ من النظر الصائب والابتكار العبْقريّ ممّا يصغُرُ في جانبِه كثيرٌ ممّا نراه إلى اليومِ في هذهِ الموضوعات عندَ العلماء في كلّ مكان .

فإذا كان في العقل العربي في ما مضى هذا النشاطُ الفتيُّ وهذا الابتكارُ الغنيّ وتلك القُدرة الوثّابة ، فما كانتِ العواملُ العارضة التي ساعدتْ على إطفاء نوره حتّى عاد جامداً مُظْلِماً ؟ وهل ثمّةَ من سبيلٍ للعودةِ بالعقلِ العربي إلى ما كان عليه في ماضي زمانه ؟

إنّ الأمم ، كالأفرادِ ، تمرُّ في أثناء الحياة في أطوارٍ مختلفةٍ صُعوداً وهُبوطاً فتخمُلُ أو تتقهقر ثمّ تتنبّه أو تترقّى . ولقد أدركَ الإسلامُ هذا القانونَ الحضاريَّ الثابتَ فجاء في الحديث الشريف : « إنّ الله يبعَثُ لهذهِ الأمّةِ على رأسِ كلّ مِائةِ سَنَةٍ من يجدّد لها دينَها ». وفي تاريخ الإسلام مجدّدون كثيرون يؤلّف نفرٌ منهم سِلسلةً مُتّصلةً أو كالمتّصلة . من هؤلاء : عُمَرُ بنُ عبدِ العزيز والشافعيُّ والأشعريُّ وأبو حامدٍ الإسفرائيني والغزّاليُّ والعزُّ بنُ عبدِ السلام وابنُ تيْميّةَ وابن حجَرٍ العسقلاني ثمّ محمّدُ بنُ عبدِ الوهّاب والشيخ محمّدُ الحوت والشيخُ محمّدُ عبده وجمالُ الدين القاسميُّ وغيرُهم . كلُّ هؤلاء كانوا يُحاولون أن يعودوا بالمسلمين إلى الطريق السَويّ الذي كان المسلمون قدِ انحرفوا عنه في الفترات

المتعاقبة ، في العقيدة والعِبادة والأخلاق والسياسة ، فكانوا ينجحون في ما يَقْصِدون إليه . ولكن ربّما تأخّرَ أثرُ أحَدِهم حيناً . إنّ الغزّالي مثلاً قد عُرِفَ بآسم « حُجّة الإسلام » في زمانه ، بينَما لَقِيَ آبنُ تَيْمِيَةَ في حياتِه آضطهاداً شديداً ، ولكنّ فضله ظَهَرَ وشيكاً بعد موتِه ثمّ ما زال هو يُعَدُّ في طليعةِ المُجدّدين في الإسلام .

* * *

والسبيلُ الذي سَلَكه المُصلحون في الإسلامِ كان سبيلَ الدين : سبيلَ التوحيد وآلاتّحاد ، سبيلَ العمل الصالح ، سبيل الوازِع آلاجتماعيّ ، سبيلَ مكارم الأخلاق ، سبيل الحياة الإنسانية الواقعة . هذا السبيلُ حَفِظَ وَحْدة الأُمّة الإسلامية زماناً طويلاً ، وكان مِحَكَّ صِحّة هذا السبيل ما حدَثَ في أثناء الحروب الصليبية . إنّ الدولَ الأوروبّيّة قد أثارتِ الحروبَ الصليبية على المسلمين بآسمِ الدين وبقيادة البابا رأسِ النصرانية . فلمّا وَقَفَ أسلافُنا في وجه الحَمَلات الصليبية مِائَتَيْ عامٍ كواملَ وطَهّروا بلادَنا من أهلِ تلك الحَمَلات ومن آثارِ تلك الحَمَلات وقفوا بالإيمان . لقد رأينا في هذه الحروبِ أُسامةَ بنَ مُنْقِذٍ العربيَّ وصلاحَ الدين الكُرديَّ وعِمادَ الدين زنكي - أيِ الزَّنْجِيَّ - وآبنَه نورَ الدين ، وهما من أصلٍ تُركي ، لم يَنْهضوا للدفاع عن الإسلام بآسمِ قوميّاتِهمُ المختلفةِ المُتناقضةِ ، بل بآسمِ إيمانهم الواحدِ الجامع .

* * *

وقد زَعَمَ نفرٌ من الأجانب عنّا ثمّ تابَعَهُمْ على زَعْمِهم هذا - معَ الأسف - خلقٌ كثيرون مِنّا أنّ العربَ خاصّةً والمسلمينَ عامّة قد مَرّوا بعَصْر من آلانحطاط بعدَ الحروب الصليبية ، ثمّ تعاظمَ آلانحطاط فيهم في العهد العثمانيّ الذي طال خَمْسِمائَةِ عامٍ حتّى آستحال على العرب أن يخرُجوا من هذا آلانحطاط برُغْمِ أنّ الحُكْم العثمانيَّ قد زال عنّا منذ خَمسةٍ وسِتّينَ عاماً .

ولكنّ هذا الزعْمَ باطلٌ : إنّ العثمانيّين لم يحكُموا المغربَ الأقصى ولا

الحَبَشةَ ولا أندونيسية ، ومَعَ ذلك فإنَّ المغربَ الأقصى والحَبَشةَ وأندونسية في التخلّف كسائر بلاد العربِ والمسلمين . ثمّ إذا نحن رَجَعنا البصَرَ في تاريخِنا العَرَبيِّ الإسلاميِّ بعدَ الحروب الصليبية وجدْنا فيها رُقيّاً كثيراً في عددٍ من ميادينِ الحياة . ولقد بَقِيَ أسلافُنا ناشطينَ في التأليف الثقافي إلى أواسط القرن الثاني عَشَرَ للهجرة (أواسطِ القرنِ الثامنَ عَشَرَ للميلاد) . هذا النشاطُ يدُلّ على آهتمام المجموع العربيِّ الإسلاميِّ بالموضوعات التي جَمَعَتْ تلك النواحيَ الثقافية . إنّ عندنا في أواخرِ هذه الفترة كِتاباً في آلاتِ الحرب والمِدفع لأحمدَ بنِ غالبٍ الأندلسي ، وهو مَغربي ، ثمّ كتاباً غايةً في الاتقان في حَرَكات السبعِ الكواكبِ السيارةِ ثمّ كتابَ الطِبِّ الجديدِ لصالحِ بنِ نَصْرَالله الحلبيِّ ثمّ كُتُباً وبُحوثاً قيّمةً في الفلك لِرَمَضانَ بنِ الصالح بنِ عُمَرَ السفطي ثمّ الكتابَ الجامعَ « كشّافَ آصطلاحاتِ الفنون » للتهانُوي آخِرِ هذه الكُتُبِ في الزمن ، وهو كتابٌ كبيرٌ جامعٌ شاملٌ يدُلُّ على سَعْةِ علمِ مُؤلِّفِهِ وعلى دِقّته في البحث وفي تعريفِ آلاِصطلاحات العلمية والفنيّة ، كما يدُلّ على آهتمامِ الناس بهذا الموضوع . تلك بضعةُ أسماءٍ من مِئاتٍ وألوفٍ من أمثالِها من هذا العصر الذي يُسمّيه نفرٌ من الناس ظُلْماً عصرَ الانحطاط .

* * *

وإذا كان الأدبُ الوُجْداني في الشعر خاصّةً قدْ فَقَدَ في تلك الحِقبة زَهْوَهُ الأوّلَ وغَرِقَ في شيءٍ من ضَبابِ الخُمول والضَّعف ، فليس معنى ذلك أنّ العَرَبَ لم يبرعوا في ذلك الحين في ميادينَ أُخرى كثيرةٍ من ميادينِ العلمِ العملي خاصّةً . إنّنا إذا بحثنا اليومَ في الولايات المتّحدة ثمّ لم نَجِدْ أديباً كبيراً مُبدعاً أو مُوسيقيّاً بارعاً مُبتكِراً أو رسّاماً قديراً خلّاقاً ، فلا يجوزُ لنا أنْ نقولَ إنّ الولاياتِ المتّحدةَ اليومَ في عصرِ آنحطاطٍ !

* * *

ومُعْظَمُ المؤرّخين يَرَوْنَ أنّ البَعْثَ العربيَّ في العصور الحديثة بدأ بحَمْلة

نابليونَ على الشرق في مطلَعِ القرن الثالثَ عَشَرَ للهجرة (في العام الأخيرِ من القرنِ الثامنَ عَشَرَ للميلاد) . والذي أراه أنّ بلادَ العرب والإسلام قد غاصتْ في الخُمود بعدَ حملة نابليون بعاملِ آلاِستعمار الجديدِ الذي بدأ بحَمْلة نابليون .

* * *

كانتْ حملةُ نابليونَ على مصرَ والشامِ مظهَراً من مظاهرِ النِّزاع بينَ فرنسة وإنكلترةَ على آلاِستيلاء على بلادِ الشرق وغنائِمه . والجُنديُّ وحدَه لم يكُنْ كافِياً في هذا النزاع ، فلقدِ آسْتعانَتْ جميعُ الدول التي آنْدَفَعَتْ في حَمَلاتِ آلاِستيلاءِ هذه بالمُبشِّرين حتّى صِيغتِ الجملةُ المشهورة في تاريخ آلاِستعمار : إنّ الطريقَ إلى آلاِستعمار قد مَهّدها المُبشّرون !

وقد تعلّمتِ الدُّوَلُ المُستعمِرةِ من الحروبِ الصليبية درساً مُفيداً لها مُضِرّاً بنا ، وذلك أنّ الجُنديّ والمِدْفَعَ وحدَهُما لا يَكْفِيانِ لِلاِستيلاءِ على بلادٍ وآستعباد أهْلِها ، وإذا آتّفقَ مرّةً أن كانا كافِيَيْنِ فإنّ الثمنَ المدفوعَ في ذلك كان باهظاً جدّاً .

من أجلِ ذلك عَمَدَ آلاِستعمارُ الجديدُ إلى تبديلِ التفكير في الشعوبِ الّتي يريدُ آلاِستيلاءَ عليها من غيرِ لُجوءٍ عادةً إلى مظاهرِ القُوّة المختلفة . ولمّا بدأتْ هذه الوسيلةُ تفعل في الشعوب العَرَبية والإسلامية نشأ في العربِ والمسلمينَ مُفكّرون يُريدون أنْ يُصلِحوا فآصْطَدَمُوا بمشاكلَ كثيرةٍ لم يَجدوا لها حَلاّ . والمشكلةُ في الواقع مسألةٌ لا حلَّ لها . وعُقدةُ هذهِ المشكلةِ أنّ الذينَ كانوا يثيرون هذه المشاكلَ كانوا من العرب أنفُسِهم !

* * *

كيفَ نشأتْ هذه المشاكلُ ؟ ما أبرزَ هذه المشاكلِ ؟ وما الأبعادُ الصحيحة لها ؟

إنّ المشاكلَ التي تَعْرُضُ عادةً في التفكير قديمةُ النشأةِ تَرْجِعُ إلى نشأةِ

الفِكر نفسِه ، كالمشاكل التي تَعْرِضُ في كلِّ حَركةٍ في تاريخ الإنسانيةِ . ولكن لا جَدْوى من البحث في هذا النِّطاق من التاريخ الإنساني لأنّه نطاقٌ مُتّسِعُ النواحي متشعِّبُ المسالكِ مختلف الأسباب .

أمّا إذا جِئْنا إلى المشاكل العارضةِ عندَنا نحن العَرَبَ اليومَ فإنّنا نَجِدُها كثيرةً أيضاً كَثْرَةً تَعْيا على الحَصْر . من هذهِ المشاكل :

أوّلًا ـ التخلُّفُ العِلمي الذي هو جانبٌ من التخلّف العامِّ في الأمّة . وأقصِدُ بالعِلْم العِلْمَ الرياضيَّ والطبيعيَّ ثمّ المُعالجةَ المَنْطِقية للموضوعات المختلفة في حياتِنا النظرية والعملية . ومن هذه المُشكلةِ الكُبْرى تتفرّعُ جميعُ مشاكِلِنا الأخرى .

ثانياً ـ الإصرارُ على إبراز العُنْصر الشخصي في النِتاج الفِكريِّ ؛ وهذا من خصائصِ النِتاج الوُجداني كالشعر مَثلًا . أمّا النِتاجُ الفُكري فهو نِتاجُ بحْثٍ وآستقصاءٍ قد يكون مُخالفاً في بعضِ الأحيان لِلاقْتِناعِ الشخصيّ . وسيّئةُ هذه المشكلةِ أنّها تَقودُ إلى تشعُّبِ الاتّجاهاتِ الفِكرية في الأمّة .

ثالثاً ـ الاندفاعُ في الجانبِ النظري الجَدَليّ . هذه الخاصّةُ التي لَزِمَتِ الفِكْرَ الفلسفي يومَ كانَ الفِكر طِفْلًا في العصور القديمة أو ماحِلًا في العصور الوسطى لا يجوزُ أن يستمرَّ في هذا العصرِ الحديثِ بعدَ أنِ آتّسعتْ آفاقُ المعرفةِ ووضَحَتْ الرُّؤْيةُ في عددٍ كبيرٍ من الموضوعات الإنسانية .

رابعاً ـ مزجُ التفكيرِ بالاتّجاهاتِ السياسية (وبالتأثُّرِ أحياناً بالتوجيه الرسمي) وتسخيرُ الفِكر قصداً أو عفْواً للدِفاع عن نَظريّاتٍ ونُظُمٍ راهنةٍ بدَلًا مِنَ البحثِ الموضوعي في هذه النظريّات والنُّظُمِ ، مِثلَ الكلام في الاشتراكية والشيوعيّة واليمينِ واليَسار والتَّجْديد والالتِزام والثورةِ مِمّا هو في الحقيقة من بابِ الاجتماع وعلم النفس . وقد خَرَجَ الاجتماعُ وعلمُ النفس منذُ زمنٍ بعيدٍ من البحث الفلسفي المُطْلق وآنضمّا إلى نِطاقِ العِلم . ويلحَقُ بهذا البابِ الكلامُ في القوميّة . وإذا نحن آسْتَعْرَضْنَا الكِتاباتِ القوميةَ وَجَدْنا أكثرها ـ ما عدا كتاباتِ

ساطع الحصريّ مثلاً - دَعْواتٍ إقليميّةً مُفَرِّقَةً يُقال فيها إنّها قوميّة ولكنّها ، في الواقع ، وفي سِياق التحليل ، دَعَوات جُزئية : أشُوريةٌ وفِرْعَوْنيةٌ وسوريةٌ وإفريقيةٌ وأسْيوية وسوى ذلك . والدليلُ على ذلك كَثْرَةُ الدول التي نشأتْ بعدَ الحرب العالمية الثانيةِ يومَ نشأتِ الجامعةُ العربية لتكونَ أداةَ توحيدٍ بين العَرَبِ ثمّ غُيِّرَ آسْمُها فجُعِلَ « جامعةَ الدُّوَلِ العربية » للزيادة في عددِ الدُّوَلِ الإقليمية . وهذه المُشكلةُ عَقَبَةٌ كأداءُ في طريقِ الفِكر الفلسفيّ .

خامساً - آلإتّجاهُ نحو الإلحادِ ميّزةٌ بارزةٌ جِدّاً في ما يُكْتَبُ في نِطاق الفكر . وحُجّةُ الذين يتّجهون هذا آلإتّجاهَ أن التفكيرَ الحديثَ في أوروبّةَ بدأ بخَلْع رِبْقةِ الدين . وقد أخطأ هؤلاء لمّا قايَسوا بينَ الإسلام وبين النَّصرانية ، فالنَّصرانية الكَنَسية كانت حَجْراً على الفِكر . أمّا الإسلامُ فهو النهضةُ الفِكرية في وجه آلإستبداد القديم . والإسلامُ هو الدينُ الوحيدُ الذي دعا إلى التفكير . ثمّ إنّنا لا ندعو هؤلاء إلى إقامة تفكيرهم على الإسلام - لأنّهم إذا فكّروا في آلإتّجاهِ الصحيح - فإنّ تفكيرَهم هذا سيكونُ نابعاً من الإسلام ، سواءٌ عليهم أقَصَدوا ذلك وأرادوه أم لم يَقْصِدوه ولم يُريدوه . وأغربُ من هذا كُلِّهِ أنّ نفراً كثيرينَ يتساهلون في العقائدِ غيرِ الإسلامية - من وثنيةٍ وغيرِ وثنية ، لأنّهم يَرَوْنَها جديدةً في نَظَرِهم - ويَحْمِلون على الإسلام وحدَه .

سادساً - وجانبٌ كبيرٌ وكثيرٌ مِن آتّجاهِ العرب اليومَ إلى الرِفض - إنكارِ كلّ راهنٍ - من غيرِ قُدرةٍ على آقتراحٍ إيجابيّ في ميدانٍ من الميادين المختلفة التي يَتيهون فيها ويَتيهُ فيها مَعَهم جُمْهورٌ كبيرٌ من القرّاء .

سابعاً - والمُشكلةُ الكُبرى في التفكير لدى جَمْهَرةِ العربِ اليومَ هو هذا « الأدبُ المُشوّه »[1] الذي يُسمّى حِيناً شعراً ، وحيناً دِراسةً أدبيةً ، وحيناً آخرَ فِكراً سياسيّاً ، وحيناً مُستأنَفاً خيالاً !

---

(1) إنّ هذا التشويه في الأدب (الشعر الحديث ، كما يسمّى) وفي الفنّ (تلك الرسوم المنكوسة) وفي الفكر (الجدال في الأمور الغائمة : كيف ندرك السعادة من طريق الشقاء ، وكيف نعرف الوجود من حقيقة العدم) وفي اللغة (بالرمز المفرط : موت الروح خلود للجسد) غايته إفساد =

فإذا أنا اخترتُ أن أعالج هذه المُشكلات كلّها فإنّ المُعالجة ستطول بلا جدوى . غير أني ساختار مُشكلتين وساتناولُ الكلام عليهما موجزاً جدّاً . وبما أنّي لا أريدُ أن أتكلّم كلاماً نظريّاً جدليّاً - وهذا ما نبّهتُ على أنه من المشاكل العارضة في التفكير عندنا اليومَ ، فقد اخترتُ أن أتناول مثلَيْن عليهما من كتاب « تجديد الفكر العربي » لأسباب منها أنّ هذا الكتاب حديثٌ جدّاً - نُشر مُنذُ نحو عامَيْن ونصفِ عامٍ - ثم هو لأستاذٍ يُعاني الفلسفة ويُدرّسها : الدكتور زكيّ نجيب محمود . ولقد اخترتُ أن أتناول هذا الكتاب نفسه ، ولو بشيءٍ يسيرٍ من النّقدِ الموضوعيّ ، لمودّةٍ أكنُّها لمُؤلّفه ونتبادلُها كُلّما التقينا على موعدٍ أو بلا موعدٍ . ثمّ إنّ هذا الكتاب دعوةٌ إلى « تجديدٍ » في الفكر العربيّ ، فيجبُ على المفكّرين أن يستجيبوا لهذه الدعوة ويُجيلوا رأيهم في الكتاب .

المشكلة الأولى : المشكلة اللفظيّة :

يقول الدكتور زكي نجيب محمود :

« لا بدّ من تركيبةٍ عُضوية يمتزجُ فيها تُراثُنا مع عناصرِ العصرِ الراهنِ الذي نَعيش فيه لِنكونَ بهذه التركيبة العُضوية عَرباً ومُعاصرين في آنٍ (واحدٍ) ؛ ولكن كيف ؟ » (تجديد الفكر العربي ١٤) .

ويُجيبُ الدكتور زكي نجيب محمود بأنّه كانتْ له في الماضي آراءٌ مُتناقضةٌ - لأنّ نفسه في الماضي لم تكُنْ على رأيٍ واحدٍ فجاء هو في مرّاتٍ سابقةٍ « بآراءٍ مُتعارضةٍ لا يتّسقُ بعضُها مع بعض » (ص ١٥) . ثمّ يَحْسِمُ المُشكلةَ التي تبدّتْ له فيقولُ (ص ١٥ - ١٦) :

« ففي المرّةِ الأولى كُنْتُ أبشّرُ بأنّ السبيلَ إلى ثقافةٍ عربيةٍ مُعاصرةٍ قدِ

أذواق الشعوب وتفكيرها . ولا شكّ في أنه من عمل اليهود . إنّ اليهود قلّة في هذا العالم . إنّهم يدّعون أنهم ستّة عشر مليوناً . (إنّهم أكثر من ذلك ، لعلّهم ثلاثون أو نحو ذلك) ، ولكنّهم ، مع ذلك قلّة ، فلا يستطيعون أن يسيطروا في عالم سويّ . من أجل ذلك فكّروا في إفساد البشر حتّى يستطيعوا هم - وهم غير فاسدين - أن يسيطروا على مجاميع فاسدة .

انفتحتْ أمامَنا أبوابُه ونوافِذُه ، وأنّنا إذا فعلنا كذا وكذا كانتْ لنا بذلك فلسفةٌ عربيةٌ وأدبٌ عربيٌ وفنّ عربيّ وأخلاقٌ عربيةٌ وسياسةٌ عربيةٌ ونِظْرَةٌ عربيةٌ تُمَيِّزُنا ، ثم نُعاصرُ بها الآخَرين مِمّنْ يَعيشون مَعَنا في عالمٍ واحد . . . وفي المرّة الثانية يأخُذُني اليأسُ فأكتبُ أوْ أتكلّمُ لأقولَ ألاّ (الصواب : أنْ لا) مخرَجَ من الأزْمة ، وأنّنا بينَ طَرَفَيْنِ مُتناقضَيْنِ ، ولا حَلَّ أمامَنا إلاّ أنْ نبتُرَ طَرَفاً منهما بتراً ليبقى لنا الطرفُ الآخَر خالصاً : فإمّا أن نتقَوْقَعَ في ثَقافةٍ عربيةٍ ذَهَبَ أوانُها ، وإمّا أن تَنْضُوَ عنّا هذا الثوبَ العتيقَ في غيرِ أسفٍ لِنَقُدَّ لأنفُسِنا ثوباً جديداً من القِماش[1] الجديد » .

المقصودُ هنا النسيجُ الجديد لا القِماش الجديد ، لأنّ القِمَاشَ هو فُتات الأشياءِ التي تلقى على وجه الأرض مطروحةً والأرذالُ من الناس والأشياءُ الدونُ من المَتاع .

غيرَ أنّ تَرْكَ أحَدِ وَجْهَيْ الأمر ليس ، في العادة ، حَلاًّ للمشاكل ، فكُلُّ إنسانٍ ـ ولو لم يُعانِ الفلسفةَ ـ يطرَحُ بينَ كُلِّ فترةٍ وفترةٍ ثوبَه القديمَ لِيَتَبدّلَ بهِ ثوباً جديداً . ثمّ إنّ الثقافةَ العربية والأدَبَ العربيّ والأخلاقَ العربية ليست أثواباً تُلْبَسُ وتُخْلَعُ ويُسْتَبْدَلُ بعضها ببعضٍ تَبَعاً لِتَبدُّلِ الحاجاتِ والأزياء .

إنّ الرأي المقترح هنا يترُكُ المشكلةَ مكانَها وإن كان هذا الرأيُ قد حاوَل أن يُؤجِّلَ الحلَّ العَمليّ . وتأجيلُ الحلِّ ليسَ حَلاًّ !

المشكلة الثانية : مشكلة الانقطاع .

يقول الدكتور زكي نجيب محمود :

« كان المنهَج العِلمي الجديدُ ذا وجهَيْنِ تولّى كُلاّ منهما رجُلٌ . أمّا أحدُ الرجلين فهُوَ الفيلسوفُ الفرنسي ديكارتُ الذي أرادَ أن يكونَ السيرُ العلمي بادئاً من فِكرةٍ داخليةٍ نَثِقُ بصوابها ثمّ نمضي منها خارجين منها إلى حيثُ العالمُ الطبيعيُ وما وراءه . وأمّا ثانيهما فهو الفيلسوفُ الإنكليزي بيكون الذي رأى أن يكونَ طريقُ السيرِ في الاتّجاه المُضادّ بادِئاً من الطبيعة الخارجية وما نشاهِدُهُ من

ظواهرِها ثمّ نمضي داخلين إلى فِكرة عقليةٍ نُقيّمها (يقصد : نقوّمها) ونكونُ على يقينٍ من صوابها » .

هذا الكلام صحيحٌ . ولكنّي أريدُ أنْ أرُدَّ حقَّ العربِ فيه . إنّ البدءَ من الباطن والمُضِيَّ إلى الخارج قال به الغزّالي قبلَ ديكارتَ بِستِمائةِ عام . والطريقةُ من الخارجِ مَعَ المُضيّ إلى الباطن قالَها آبنُ الهيثم قبلَ روجرَ بايكونَ بقرنين مِنَ الزمن . ومؤرّخو الفِكر الإنكليزي يقولون عن مُواطنهم روجر بايكون إنّه آستمدّ طريقتَه العِلمية من ابنِ الهيثم . وما دُمْنا نُريدُ أن نأخُذَ فِكرتين صائِبَتَيْنِ ، فلماذا نأخُذُ عن ديكارتَ ما أخَذَهُ ديكارتُ عن الغزّالي ؟ ولماذا نأخُذُ عن روجر بايكون ما أخَذَهُ روجر بايكون عن آبنِ الهيثم ولا نأخُذُ عن الغزّالي وآبْنِ الهَيْثَمِ مُباشرةً بقَطْعِ النَظَرِ عن أنّ ديكارتَ وروجرَ بايكونَ غريبانِ عنّا بينَما آبنُ الهيثمِ والغزّاليُّ قريبانِ منّا !

إنّ هذا الذي جِئْتُ به هنا من كتابِ « تجديد الفكر العربي » للدكتور زكي نجيب محمود لم أجىءْ به في مَجالِ النَّقْدِ ، فالكتابُ يحتاجُ إلى دراسةٍ وافيةٍ حتّى نستطيعَ أنْ نرى ما له وما عليه ، ولكنّي جِئتُ به هنا مثلاً أضْرِبُه للمناقشة .

* * *

أنا أقولُ إنّ في التفكيرَ العربي المعاصر لنا مشاكلَ عارضةً أوردتُّ عدداً منها قبلَ صفحتين . ولكنّي أقولُ أيضاً إنّ التغلُّبَ على هذه المشاكلِ العارضةِ ليسَ مُستحيلاً ولا صعباً لأنّها في الدرجة الأولى عارضةٌ في التفكير المُعاصر وليستْ أصيلةً في التفكير العربي .

وتصحيحُ الفِكرِ العربيّ المعاصر يكون ، عندي ، في رُجوعِ العرب إلى التفكيرِ الرياضي الطبيعيِ الذي قامَ عليه تفكيرُهم النظَري ، ثمّ يكونُ أيضاً بالرجوع إلى مجموعِ التُراثِ العربي وتَنْسيقهِ وتَبْويبه ودرسِه درساً مُنَظَّماً ليكونَ عُدّةً إلى جانبِ ما نأخُذه من غيرِنا .

امّا المشكلةُ الأولى ، مشكلةُ العلوم الرياضية والطبيعيّة في ثقافتِنا الحاضرةِ فهي مشكلةٌ حادّةٌ . إنّ نفراً كثيرين ممّن كتبوا في الفلسفة العربية في العصرِ الحاضر ليسوا من ذوي الرُّسوخِ في العِلم الرياضي والطبيعي ، وبعضُهم ليسَ من ذوي الإلمام بهما . لو نَظَرنا في تاريخِ الفلسفة القديمة والوسيطة لَوَجَدْنا ثاليسَ وأناكسمندروسَ وفيثاغوراسَ وأفلاطونَ وأرسطو أيضاً وديكارت ثمّ الكِنْديَ والفارابيَ وآبنَ سينا وآبنَ باجّه وآبنَ طُفيلٍ وآبْنَ رُشْدٍ والغزّاليَّ أيضاً من كِبار العلماء الرياضِيّين والطَبيعيّين أو مِنَ المُشاركين في هذه العلومِ مُشاركةً كبيرةً على الأقلّ . ودارسو الفلسفة النظرية يعلَمون أنّ أفلاطونَ مُعَلِّمَ الفلسفة في اليونان كان قد كَتَبَ على بابِ مدرستِه : « من لم يكُنْ مُهَنْدِساً فلا يَدْخُلَنَّ علينا » ! وسببُ ذلك في رأي أفلاطون ، ثمّ في رأي آبنِ خَلْدونٍ فيما بعد ـ أنّ العلومَ الرياضيّةَ والطبيعيةَ تُكْسِبُ العَقْلَ آستنارةً وتَنْظيماً . وما دامتِ الفلسفةُ في أساسِها مِنهاجٌ قبلَ أن تكونَ آراءً مجموعةً ، فلا بُدَّ للمتفَلْسف ، إذا أرادَ أن يكونَ لِتَفَلْسُفِه قيمةٌ ، مِنْ أنْ تكونَ آراؤ ه مَنْسوقةً نَسْقاً مُنظّماً ومربوطةً نتائجُها بأسبابها ربطاً مَنطقيّاً . إنّ الآراء ليستْ أشطُراً من الشعر الوُجدانيّ ، ولكنّها ـ كما قال أرسطو ـ نِتاجُ المَقولاتِ المَنْطقية . فالإنسانُ ، وأقْصِدُ بالإنسانِ الإنسانَ المُفكّر ، لا تَقْفِزُ آراؤ ه إلى لِسانه قفزاً ، بل هي تُنْتَجُ من المُحاكمة العقلية لِعَدَدٍ من المُعْطَياتِ الماثلةِ في عالَمِهِ الداخليّ أوِ المُشاهدة في عالَمه الخارجيّ . وبما أنّ العالَمَ الخارجيَّ عالَمٌ طبيعيٌّ ، وبما أنّ العالَمَ الداخليَّ عالَمٌ قائمٌ على قوانينَ عقليّةٍ ونفسيّةٍ فلا بُدّ للمُعاني للفلسفةِ من فهمٍ لِمبادىءِ العلومِ في الأكثرِ وللعلومِ الرياضيّة خاصّةً كثيراً أو قليلاً .

وأمّا المُشكلةُ الثانية فهي مُشكلةُ مَوْقِفِنا من التُّراثِ العربي .

أنا أقولُ إنّه ليس ثمّةَ تفكيرٌ يونانيٌّ وتفكيرٌ عربيّ وتفكيرٌ إنكليزيّ ، وإنّه ليس هنالك تفكيرٌ قديمٌ وتفكيرٌ جديدٌ . هنالك تفكيرٌ إنساني كما أنّ هنالك هندسةً وكيمياءً إنسانيّتَيْنِ لا هما يُونانيّتانِ ولا عَربيّتانِ ولا فرنسيّتانِ ولا قديمتانِ

ولا حديثتانِ . هنالك - على كلّ حالٍ - أساليبُ أو طرائقُ مِنَ التفكيرِ يُقال فيها قديمةٌ وحديثةٌ ثمّ توصَفُ بأنّها يونانيةٌ أو ألمانيةٌ أو عربيةٌ أو هِنديةٌ .

والتُّراثُ العربيّ - كالتُّراثِ اليونانيّ والتراثِ الصينيّ والتراثِ الافرنسيّ - يُمَثِّلُ مرحلةً من مراحل التفكيرِ الإنساني . فإذا نحن دَرَسْنا التُّراثَ العربيَّ بهذا المعنى فليس معنى ذلك أنْ نقتصرَ عليه ونُهْمِلَ كلَّ ما سواه . هذا معَ العلم بأنّ في التفكيرِ العربيّ أشياءَ أكثرَ دقَّةً من أشياءَ جاءت في التفكيرِ الأوروبيُّ القديم والحديثِ - ولا أُريدُ التبسُّطَ في هذا الجانبِ ، لأنّ هذا الجانبَ موضوعٌ آخَرُ .

أمّا الدقائق الباقية فأَوَدُّ أنْ أستَعْرِضَ فيها نظامَ التفكيرِ العربيّ الأصيل مأخوذاً مُنَسّقاً من المناهج الفلسفية التي وضعَها أسلافُنا ، على غايةٍ من الإيجاز ، وسأُسَمّيها قواعدَ التفكير العربيّ :

القاعدةُ الأولى : قاعدةُ محمّدِ بنِ موسى الخوارزميّ واضعَ علمِ الجَبْرِ كما نُعَلِّمُهُ إلى اليومِ في مدارسِنا في الشرق والغرب .

قال الخوارزميُّ :

التأليفُ ثلاثةُ أنواعٍ : ٱبتكارُ شيءٍ لم يَسْبِقْ أحَدٌ إليه ، ثم توضيحُ شيءٍ كان من قبلُ غامضاً ، ثمّ تصحيحُ شيءٍ كان من قبل خطأً . وعلى من يُؤَلِّفُ الكُتُبَ مُبتكراً أو مُوضِحاً أو مُصَحِّحاً أنْ يكون متواضعاً لأنّ العِلم ليس له ولا لِنَفرٍ آخَرينَ ، بل للإنسانية . ويكفي المُؤلّفَ المُخْلِصَ ثلاثةُ أوجُهٍ من وجوه السعادة : سرُوره الشخصيّ وأجْرُه عندَ الله والذِّكْرُ الحَسَنُ في الناس .

القاعدة الثانية : قاعدة ٱبْنِ رُشْدٍ ، وهو ذِروة التفكيرِ في العصور الوُسطى في الشرق والغرب ، وقد كان أشدَّ أثراً في التفكير الأوروبيّ من أرسطو نفسِه ، لأنّ فلسفةَ أرسطو لم تكن تُفْهَمُ في العصور الوسطى إلاّ من خِلالِ شُروحِ إبْنِ رُشْدٍ عليها .

يرى ٱبنُ رُشدٍ أنّ الفلسفةَ تطوّرٌ ، وعلى كلّ مُفَكِّرٍ أن يستفيدَ من جُهودِ

جميعِ الذين تقدّموه.ولا يستطيعُ أحدٌ أن يتولّى بنفسِه إقامةَ البراهينِ على كُلِّ قضيّة . ولو حاول أحدٌ ذلك لَعَدَدْناه في غيرِ العاقلين . من أجلِ ذلك قالَ ٱبنُ رُشدٍ :

« يجبُ علينا إذا أَلْفَيْنا لِمَنْ تَقدَّمَنا من الأمم السالفة نظَراً في الموجوداتِ وٱعتباراً لها ـ بِحَسْبِ ما ٱقْتَضَتْهُ شرائطُ البُرهان ـ أنْ ننظُرَ في الذي قالوه من ذلك وأثْبتوه في كُتُبِهم . فما كان منها مُوافقاً للحقِّ قَبِلْناه منهم وسُرِرْنا به شكَرْناهم عليه . وما كان منها غيرَ مُوافقٍ للحقِّ نَبَّهْنا عليه وحذَّرْنا منه وعَذَرْناهم !

القاعدة الثالثة : قاعدة الغزالّي .

يرى الغزّاليُّ أن المعرفةَ الحقيقية ـ أو العِلمِ اليقينيّ ـ تكونُ من الداخلِ بنورٍ يَقْذِفُه اللّهُ في قلوبِ مَنْ يشاءُ من عباده ، وهو أصلُ المعارف كُلِّها . والغزّاليُّ في تخريج هذه المعرفة بالإلهام ـ بِقَطْعِ النظَرَ عمّا فيها مِمّا يَجِبُ أخْذَه وممّا يجب ردُّه ـ أفضلُ كثيراً ممّا جاء به القِدّيس أُوغسطينوسُ قبلَه وديكارتُ الفرنسيُّ بعدَه ، من حيثُ المَنْطِقُ الشكْليّ أوِ الصُّوريّ على الأقل . إنّ أُوغسطينوسَ وديكارتَ كانا قد شكّا ـ أوِ ٱدّعَيا ذلك ـ ثمّ عادا إلى المعرفةِ بشيءٍ ممّا كانَا قد شَكّا به . حينما يقولُ ديكارتُ : أنا أشُكُّ في هذه الوَرَقةِ وفي هذه الشمعة إلى آخرِه ، « ولكنّني لا أشُكُّ في إنّني أشُكُّ » فمعنى ذلك أنّه لم يكُنْ شاكّاً ، لأنّ الذي يعلَمُ أنّه شاكٌّ يكونُ عالماً ؛ والذي يُدْرِكُ أنّه غافلٌ يكونُ صاحياً !

غيرَ أنّ هنالك نُقطةً جديرةً بٱلٱعتبار : إنّ هذا الإلهام الذي قال به الغزّالي لا يكونُ لكُلِّ إنسانٍ ، بل للإنسانِ الذي بَلَغَ مِنَ العلم بكُلِّ شيءٍ مبلَغاً عظيماً .

أنا لا أُنكِرُ أنّ الغزّاليَّ قد جعل هذا الإلهامَ فضلاً من الله ونعمةً يُسْبِغُها اللّهُ على مَنْ يشاءُ ، ولم يشترطِ الغزّاليُّ في ذلك شرْطاً ما . ولكنّنا إذا نحن دَرَسْنا « الشكّ » عندَ الغزّاليّ ، وجَدْنا أن الغزّاليّ لم يَصِلْ إلى هذا الطَّوْرِ : طورِ الإلهام بالنور الذي يَقْذِفُه اللّهُ في القلب إلّا بعدَ أن مرّ بجميعِ أطوارِ

التفكير مِنَ التقليد إلى الحِسّ إلى المعرفة الرياضيّة والطبيعية إلى المعرفة العقلية .

القاعدةُ الرابعة : قاعدةُ آبنِ خَلْدونٍ .

آبْنُ خَلْدونٍ مُؤرّخُ العلمِ والحضارةِ وواضعُ علمِ الآجتماعِ لم يَسْبِقْهُ أحَدٌ إلى ذلك . وقواعدُه في ذلك أكثرُ من أنْ يُحاطَ بها . غيرَ أنّي سآخُذُ من قواعدِه واحدةً تَنْتَظِمُ في سِلْكِ قواعِدنا التي هِيَ شِبْهُ مَنْهَجٍ للتفكيرِ العربيّ .

يرى آبْنُ خَلْدونٍ أنّ الفلسفةَ (وَيَقْصِدُ الفلسفةَ النَظَريّة الماورائية) وعِلْمَ الكلام (الجَدَلَ في العقائِدِ الإيمانية) أمرانِ يُمَثّلان طوراً من أطوارِ التفكيرِ الإنسانيّ ، ولا فائدةَ لنا منهما . قال آبنُ خَلْدونٍ ذلك في القرن الثامنِ للهِجرة (الرابعَ عَشَرَ للميلاد) . نحن ندرُسُ اليومَ الفلسفةَ النظرية لدراسةِ أحوالِ الناس السابقين علينا لِنَسْتَفِيدَ مِنَ آختبارِهم . أمّا إضاعةُ الوقتِ والجُهْدِ في الجَدَل النَّظَريّ فلا يَليق بالمُفكّر ؛ والقِتال في ذلك ـ كما آتّفقَ لعلماءِ الكلامِ ، وكما يتّفق لأنصارِ الأحزابِ اليومَ ـ أمرٌ بعيد عمّا يقضي به العقلُ وخيرُ الناس .

نحنُ اليومَ بحاجةٍ إلى التفكيرِ العِلميّ والتفكير آلآجتماعيّ . وأُحِبُّ أنْ أقولَ إنّ المشاكلَ لا تنشأُ من تِلقاء نفسِها في التفكير . إنّ نفراً من الناس يُثيرونَ هذه المشاكلَ في الناس . لقد شَغَلَ القُدماءُ أنفُسَهم زمناً بتسبيع الدائرةِ وبتقسيمِ الزاويةِ ثلاثةَ أقسامٍ مُتساويةً بالبُرهان الهَندسيّ . ثمّ أدركَ هؤلاءُ القدماءُ أنّ هذين أمرانِ مُستحيلانِ لأنّهما آفتراضانِ خاطئان . فإذا رأيتَ أنتَ اليومَ رَجُلًا يحاول ذلك جادّاً فلا تُجادِلْهُ بل أرْسِلهُ إلى الطبيبِ كَيْ يُداوِيَه .

القاعدةُ الخامسة : قاعدةُ آبنِ الهَيْثم .

آبنُ الهيثم من كِبارِ العُلماء في كلّ عصرٍ ؛ إليه يَرْجِعُ الفضلُ في وضعِ علم المناظر (البصَريات) على قواعدِه الرياضيّة والطبيعية والنفسية ، لم يُسْبَقْ إلى ذلك . وهو الذي قال إنّ الضوءَ (شُعاع النور) إذا مرّ مِنَ المجالِ الألطفِ

إلى المجالِ الأكثفِ إنْعَطَفَ وأبْطَأ سيرُه ، بينما كان نيوتُنُ العالمُ الفيزيائيُّ المشهورُ يقولُ إنّ النورَ في هذه الحالِ يُسرِعُ ، مع أنّ نيوتن جاء بعدَ آبْنِ الهيثمِ بستمّائة عام . ولا تُعَدُّ هذه الهفوةُ من نيوتن شيئاً في جنب ما لهُ من الآراء الصحيحة .

يقول آبنُ الهيثم في المِنهاج العِلمي في بحثِ الضوء مِمّا ينطبقُ على كلِّ فرعٍ من فروع المعرفة :

« نَبْتَدِىءُ بآستقراءِ المَوْجودات ونتصفّحُ أحوالَ المُبْصَراتِ وتَمْييزَ خواصّ الجُزئيّاتِ ونَلْتَقِطُ بإستقراءٍ ما يَخُصّ البصرَ في حالِ الإبصار وما هو مُطَّرِدٌ لا يتغيّرُ وظاهرٌ لا يَشْتَبِهُ[1] من كَيْفيَةِ الإحساس . ثمّ نترقّى في البحث والمقاييس على التدريجِ والترتيب ، معَ آنتقاد المُقدَّماتِ والتحفُّظِ من الغلَط في النتائج ؛ ونجعَلُ غَرَضنا في جميع ما نَستقرِئُه ونَتَصفّحُه آستعمالَ العَدْلِ لا آتبّاعَ الهوى ، ونتحرّى في سائرِ ما نُميِّزُه وننتَقِدُه طلبَ الحقّ لا المَيْل معَ الآراءِ » .

* * *

إنّ ما نتخيّله من المشاكل في كثيرٍ من أُمورنا لا يَرْجِعُ إلى أمورنا ، بل إلى نفوسِنا إذا كان نفرٌ منّا اليومَ لا يَعْرِفون العِلم ، فالذنبُ ذنبُهم هم لا ذنبُ العلم . إنّ العربَ اليومَ متخلّفون في طريق العلمِ والحضارة ، ولا ريبَ في ذلك . ورُقيُّهم سهلُ الطريق : لقد كان أسلافُنا راقينَ ، ونحن اليومَ نعيشُ في أُمَمٍ راقية . فإذا كنّا نريدُ رُقيّاً فما علينا إلاّ أن نفعَلَ ما فَعَلَهُ الذين آرْتَقَوْا منّا في الماضي وما يفعَلُه الراقونَ اليومَ . إنّ كثيراً مِمّا نتخيَّلُهُ اليومَ أنّه مشكلٌ ليس مشكلاً ، والمُشكِلُ الحقيقيّ في حياتِنا سهلُ الحَلِّ إذا نحن سَلَكْنا إليه السبيلَ الصحيحَ ، كما سَلَكْنا نحنُ بالأمسِ وكما يسلُكُ الراقون اليومَ : العلمُ الرِياضيّ الطبيعيُّ في الدرجةِ الأولى ثمّ تهذيبُ المَجْموع (أيْ تدريبُه وتمرينه) لإعدادِهِ للسيرِ في طريق الحياة . فلا يكْفي أنْ يكونَ في العرب أفرادٌ في ذِروة الرُّقيِّ العِلمي حتّى يَرْقى مجموعُ العرب إلى مستوَى أولئك الأفرادِ الراقينَ . ثمّ يجبُ

انتظارُ الزمن ، فليس من المُمكِنِ أن يتعلّمَ الجاهلُ في بِضعةِ أيامٍ . وإذا جاز أن يتعلّمَ الفردُ الفائقُ الفِطرة أو العاديُّ الاستعدادِ لُغَةً من اللُّغات أو فرعاً من الفنّ أو عِلماً من العُلوم في عَشْرِ سِنينَ أو عِشرينَ سَنَةً ، فإنَّ العامَ والعامين والعَشْرةَ الأعوامِ ليستْ كافيةً لتعليم المجموع .

أيّها السادة :

أنا لستُ متفائلاً كثيراً . أنا في التعليم منذُ سِتّةٍ وأرْبعينَ عاماً[1]، وقد رافقتُ التعليمَ في بَلَدي من المُستوى الأدنى إلى أعلى التعليمِ الجامعيّ ، وقد كنّا بَلَغْنا في مدارسِ جمعيّة المقاصد الخيرية الإسلامية مبلغاً في العلم يدعو إلى العَجَب . ثمّ جاءتِ الحربُ العالميةُ الثانية وانتهت ، فقامتِ الأحزابُ تستَغِلُّ الطُّلاّبَ في وسائلَ لا أرى أنا أنّها كانتْ كُلُّها نبيلةً . وبدأ الطُّلاّبُ يقومون بالإضراب في كلِّ حين ولكلِّ مناسبةٍ فأخَذَ العلمُ بينَ الطلاّب - وهم مجموعُ الأمّة - يَنْحَدِرُ . فإذا شِئتم رُقيّاً للأمّة العربية فيجبُ أن يتعلّمَ أبناؤها ، فإنّ العصرَ عصرُ علمٍ ، والجاهلُ لا يستطيعُ أن ينافسَ العُلماء في شيء . وليسَ من المُمكن أن تَرْقى أمّةٌ جاهلةٌ بينَ الأمم العالمة .

هذا رأيي لا أُريدُ فَرْضَه على أحَدٍ . ولكنْ إذا أرادَ العربُ أن يَرْقَوْا رُقِيّاً صحيحاً ، لا أن يُقَلِّدُوا الأممَ الراقيةَ في ظاهرِ أُمورِها وأمورِهم ، فَعَلَيْهِم ، أن يَبدأوا مِنَ المدرسة ، وأنْ ينتظروا مُدّةً من الزمن تطولُ أو تقصُرَ بِحَسْبِ جِدِّهِمْ . فإذا لم يُريدوا أن يفعلوا ، فَيَجِبُ ألاّ يلوموا أحَداً غيرَهم ، بلْ يجب أن يَرْجِعوا باللَّوْمِ على أنفُسِهم !

قال الله تعالى :

﴿ قُلْ هل يَسْتوي الذين يعْلَمون والذين لا يَعْلَمون ؟ إنّما يتذكَّرُ أولوا الألبابِ ! ﴾ .

---

(١) منذ عام ١٩٢٨ م .

م = مكرّر ، ح = في الحاشية

(١) ابن القيّم (ت ٧٥١ هـ) هو محمّد بن أبي بكر الدمشقي . وأبو بكر هذا كان قيّما (ناظراً ، وكيلاً) على المدرسة الجوزيّة التي أنشأها في دمشق يوسف بن عبد الرحمن ابن الجوزي (ت ٦٥٦ هـ) .

● **تجديد في المسلمين لا في الإسلام** .

● **عبقريّة اللغة العربية** (بحوث في اللغة : قراءات في القاموس العربي وفي القاموس الإسباني - خصائص الغزل : الصفات الجسدية التي أحبّها العرب في المرأة كما تظهر في الشعر العربي في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي والعصر العبّاسي - أثر العلم في الأدب - نقل الكلام من لغة إلى لغة) .

● **العرب والإسلام في الحوض الشرقي من البحر المتوسّط** منذ الجاهلية إلى آخر العصر الأموي .

● **العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسّط** : المغرب والأندلس جغرافيّاً وتاريخيّاً قبل الفتح الإسلامي ثمّ تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى آخر عصر الولاة (١٣٧ هـ = ٧٥٤ م) - هذا الكتاب مبني على التعليل التاريخي (من صلة الأسباب بالنتائج مع النظر فيما يجري عادة في المجتمع الإنساني وما يوافق العقل) .

● **التصوّف في الإسلام** : استعراض لنشأة التصوّف وتطوّره في الإسلام مع التنبيه على مخالفة التصوّف المتطرّف للإسلام . وفي هذا الكتاب فصول تتناول الأدب الصوفي في اللغة العربية واللغتين الفارسية التركية مع التوسّع في حياة عمر بن الفارض ومحيي الدين بن عربي وآثارهما .

● **إخوان الصفا** : دراسة مبنية على استعراض رسائل إخوان الصفا مع التنبيه على مذهبهم الباطني وتستّرهم وراء المذاهب الإسلامية والأسماء الإسلامية . ولكنّ هذا لم يمنع من أن تكون المعارف المجموعة في رسائل إخوان الصفا صورة للحياة الفكرية والعلمية في العصر العبّاسي ، مع العلم بأن هذه المعارف الفكرية والعلمية ليست في رسائل إخوان الصفا مقصودة لذاتها .

« تجديد في المسلمين ، لا في الإسلام »

مجموع بحوث ومحاضرات كتبت في مناسبات مختلفة ثم جمعت هنا منسوقة نسقاً منطقياً .

يكثر الكلام اليوم على التجديد ، في اللغة والأدب ، في التعليم والفكر ، في المجتمع والدين . فيحسن بالمسلم (وبغير المسلم أيضاً) أن يعرف أن كثيراً من هذا الكلام في غير محله ؛ ثم هو لا يصح على الإسلام أبداً .

الناس يتبدلون ، في الزمن الطويل ، صعوداً وهبوطاً ولكن المبادئ لا تتبدل . وإن كان نفر من الناس يتوهمون أن الحق والأمانة والشعر تتبدل بين زمان وزمان وبين مكان ومكان . إن نظر الناس إليها يختلف . أما هي فلا تختلف .

والإسلام لا يزال هو الإسلام الذي صدع به محمد رسول الله ونجده نحن في القرآن الكريم وفي سنة رسول الله الواردة في الأحاديث الصحيحة . ثم جاء الأئمة فشرحوا ما يغمض أحياناً على القارئ العادي واجتهدوا في عدد من وجوه الأحكام الاجتماعية .

هذا الكتاب يريد من نفر من المسلمين عودة إلى فهم الإسلام والعمل بأحكامه على هدى من الإيمان وعلى نور من العقل .

الناشر